تأملات

فى

المشروع الإسلامى

الشّيخُ الدُّكْتُورُ

جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُهَلْهِلِ الْيَاسِينِ



تأملات في
المشروع الإسلامي

بطاقة الكتاب

اسم الكتـــاب : تأملات في المشروع الإسلامي
المؤلف : الشيخ د / جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين
الناشـــر : شـركـة الـسـماحة للنـشر والتوزيـع الكويت

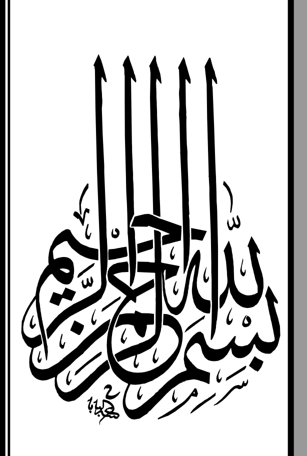
الصف والإخراج : مركز بدور للثقافة والترجمة

عدد الصفحـات :

عـدد المـــلازم :

مقاس الكتـاب : ١٧× ٢٤

رقــم الإيـداع :



الطبعة الثانية
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

شركة السماحة للطباعة والنشر
والتوزيع - الكويت
ت/٩٩٥٥٧٤٧١
الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦
ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

تأملات
في المشروع الإسلامي

(نقوش حركية)

الشَّيْخ الدُّكْتور:
جاسِمُ بْنُ محمد بن مُهَلْهِلِ الْيَاسِين

مؤسسة السماحة

الطبعة الثانية

١٤٣٦ هـ ـ ٢٠١٥ م

تطلب مؤلفات الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

في الكويت من: شركة السماحة ـ الكويت.

ت/ ٩٩٥٥٧٤٧١

الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦

ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

في مصر من: بدور للثقافة والترجمة



الإهداء نثرًا

إِلَىٰ **وَالِدَتِي** **مُنِيرَةَ**، الَّتِي لَهَا مِن اسْمِهَا نَصِيبٌ، فَقَدْ أَنَارَتْ لِي طَرِيقَ حَيَاتِي، فَعَرَفْتُ رَبّي، وَسَلَكْتُ مَنْهَجَ النَّبِيّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ .

إِلَىٰ وَالِدَتِي الَّتِي أَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الْخَيْرِ كُلَّهَا، فَكَانَتْ مَدْرَسَةً فِي كُلّ شَيْءٍ، فَهِيَ الَّتِي عَلَّمَتْنِي كَيْفَ يَكُونُ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَعَلَّمَتْنِي الإِحْسَانَ إِلَىٰ الآخَرِينَ وإِنْ أَسَاؤُوا، وأَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الصَّبْرِ الَّتِي قَرَأْنَا فِي المجَلَّدَاتِ وَكَتَبْنَاهَا. لَقَدْ عَلَّمَتْنِي مَعْنَىٰ الإِنْفَاقِ مِمَّا كَانَ فِي يَدهَا لِتُدْخِلَ بِهِ السُّرُورَ عَلَىٰ الآخَرِينَ.

إِلَىٰ وَالِدَتِي الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الشَّكْوَىٰ فِي حَيَاتِهَا، وَلَمْ تَئِنّ مَعَ كَثْرَةِ أَمْرَاضِهَا.

إِلَىٰ وَالِدَتِي الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وَفَاتِهَا – رَحِمَهَا اللهُ – بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ، وَإِنَّي لأَذْكُرُ قَوْلَ أَحَدِ الأَصْدِقَاءِ عَنْ أَمّهِ بَعْدَ وَفَاتِهَا: لَقَدْ ذَهَبَتْ مَنْ كُنَّا بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ. وَإِنّي لأَقُولُ: لَئِنْ تَنَعَّمْتُ بِدُعَاءِ أُمّي فِي حَيَاتِهَا، فَإِنّي أَتَنَعَّمُ بالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ لَهَا دُعَاءً، ازْدَادَتْ نَفْسِي إِحْسَاساً بِالنَّعِيمِ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَنَعَّمُ بِدُعَائِهَا فِي حَيَاتِهَا وَأَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَفِي الْحَالَتَيْنِ، فَإِنّي أَتَنَعَّمُ بِخَيْرِهَا فِي الْحَيَاةِ وَالممَاتِ.

وَلَسْتُ أَعْرِفُ لإِنْسَانٍ فَضْلاً عَلَيَّ – فِيمَا أَنْعَمُ بِهِ مِنْ فَضْلٍ – خَيْراً يُعَادِلُ أَوْ يُقَارِبُ فَضْلَ وَالِدَتِي – رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَىٰ. وَأَسْأَلُ الله – سُبْحَانَهُ – أَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَهَا لِي، وَيَسْتَجِيبَ دُعَائِي لَهَا.

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْهَا الصَّبْرَ وَالتَّجَلُّدَ؛ فَقَدْ شَطَبَتْ مِنْ حَيَاتِهَا مَا يُسَمَّىٰ بِالإِيذَاءِ،

فَكَانَتْ لاَ تُؤْذِي أَحَداً وَلا شَيْئًا، حَتَّىٰ الأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ تَمْشِي عَلَيْهَا، عَلَّمَتْنِي مَعَانِيَ كَثِيرَةً، قَدَّمَتْهَا وَهِيَ تُضَحّي بِصِحَّتِها وَوَقْتِهَا وَسَعَادَتِهَا.

إِلَىٰ وَالِدَتِي الَّتِي أَعْرِفُ مِنْ مَدْرَسَتِهَا الْكَثِيرَ، وَلاَ يَسَعُنِي ذِكْرُهُ فِي هَذَا الإِهْدَاءِ، وَسَأُفْرِدُ لَهُ رِسَالَةً خَاصَّةً، إِنْ شَاءَ اللهُ.

إِلَىٰ وَالِدَتِي أَهْدِي ثَوَابَ هَذِهِ الرَّسَائِلِ، لَعَلّي أُؤَدّي زَفْرَةً مِنْ زَفرَاتِهَا فِي وِلادَتِي.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ وَالِدِي – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ رَفِيقَةَ الدَّرْبِ أُمّ مُعَاذٍ، الَّتِي كَانَتْ لِي عَوْنًا فِي صَبْرِهَا عَلَىٰ سَهَرِي وَسَفَرِي.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ أَوْلادِي جَمِيعًا، ذُكُوراً وَإِنَاثًا.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ كُلّ مَنْ أَسْهَمَ فِي إِخْرَاجِهَا، وَجَعَلَهَا بَيْنَ يَدَي النَّاسِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

وَإِنَّنِي إِذْ أَكْتُبُ هَذَا الإِهْدَاءَ، أَرْجُو مِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ يَكُونُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَذَا الْكِتَابُ أَلاَّ يَنْسُونَا جَمِيعًا مِنْ صَالِحِ دُعَائِهِمْ.

❋❋❋❋



الإهْدَاءُ شعْرًا

أمَّــاهُ كُنْــتِ مُنِيــرَةً وَمَنَــارَةً	عُلْيَـا وَصَــرْحـًا ثابـتَ الأَرْكَـانِ
قَـدْ كُنْـتِ مَدْرَسَـةً تُعِـدُّ نُفُوسَنَـا	لِـصَنَائِعِ المَعْــرُوفِ وَالإِحْـسَانِ
قــدْ كُنْـتِ لِلأَيْتَــامِ أُمًّــا بَــرَّةً	وَالجَـارِ وَالمِـسْكِينِ أَرْأَفَ حَـانِ
أَرْضَعْتِنَا الأَخْـلاق شَـهْدًا سَلْسَلاً	تَـدْنُو ثِمَــارُ قُطُوفِهَــا لِلْجَـانِي
عَلَّمْتِنَـا الـصَّبْرَ الجَـمِيلَ خَـلِيقَةً	وَالقَـوْلَ لِلحُـسْنَىٰ وَكَـفَّ لِـسَانِ

❊ ❊ ❊

أبَتَــاهُ قَــدْ رَبَّيْتَنِــي وَأَحَــطْتَنِي	برِعَايَــةٍ فِــي غِبْطَــةٍ وَأَمَــانِ
وَفَّـرْتَ أَسْـبَابَ الـسَّعَادَةِ وَالهَنَـا	فَجَعَلْتَنِـي أَسْمُــو عَلَـىٰ الأَقْـرَانِ
فَجَـزَاكَ رَبُّ العَـرْشِ خَيْـرَ جَزَائِـهِ	وَأُسْـكِنْتَ فِـي رَوْحٍ وَفِي رَيْحَـانِ

❊ ❊ ❊

نَوَّرْتَ **يَا بَـدْرَ** الدُّجَـا سُبُلَ العُـلا	بالفَــضْـلِ لاَ فَــظٍّ وَلاَ مَنَّـــانِ
كَـمْ ذَا تُقَابِـلُ بِالـسُّـرورِ تَـدَلُّلِي	بمَـحَبَّـــةٍ وَبِرَأْفَـــةٍ وَحَنَــــانِ
أَحْبَبْتَنِـــي قَـرَّبْتَنِــي رَبَّيْتَنِــي	بالعِــزِّ فِـي ثِقَــةٍ وَفِـي اطْمِئْنَـانِ

❊ ❊ ❊

أرَفيقَتِـي كُنْـتِ الـشُّعَاعَ إِذا دَجَـا	لَيْـلُ الحَيَـاةِ بِمُظْـلِمِ الحِـدْثَانِ

قَـدْ كُنْـتِ خَيْـرَ شَرِيكَـةٍ وَمُعِينَـةٍ ... فِـي البِـرِّ عِنْـدَ تَقَـاعُسِ الأَعْـوَانِ

الـصَّبْرُ فِيـكِ مَـعَ الوَفَـاءِ سَـجِيَّةٌ ... بتَعَــاقُبِ الأَفْــرَاحِ وَالأَحْــزَانِ

❋ ❋ ❋

يَـا حَبَّــذَا **أَفْــلاذ أَكْبَـادٍ** بِهَـا ... كَـمُلَ المُـرَادُ وَقَـرَّتِ العَيْنَـانِ

فَاحْفَـظْ **مُعَـاذاً** وَاحْفَظَـنَّ **مُهَلْهِلاً** ... أَمَـدَ الزَّمَـانِ **وَعَابِـدَ الـرَّحْمَنِ**

لاَ زَالَ **عَبْـدُ اللهِ** فِـي حِفْـظٍ وَلاَ ... زَالُــوا جَمِيعــاً غُــرَّةَ الفِتْيَـانِ

وَلْتَـحْظَ **عَـائِشَـةٌ وَفَـاطِـمَةٌ** بِمَـا ... قَــدْ شَــاءَتَا مِـنْ بُغْيَـةٍ وَأَمَــانِ

وَاحْفَـظْ **هَيَــا وَمُنِيــرَةً** يَـا رَبَّنَـا ... مِــنْ مُبْطِـنِ البَغْـضَاءِ وَالـشَّنَآنِ

❋ ❋ ❋

يَـا رَبِّ لاَ زَالَ الجَمِيـعُ بِنِـعْمَةٍ ... وَقِـهِمْ شُـرُورَ الحَاسِـدِ المِعْيَـانِ

صَلَّىٰ الإِلـهُ عَـلَىٰ **النَّبِـيِّ مُحَـمَّدٍ** ... وَالآلِ وَالأَصْحَـــابِ كُــلَّ أَوَانِ

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

❋❋❋❋

المقدمة

الكلمة هي ترجمان الفؤاد، تكشف مكنونه، وتبين ما انطوى في حناياه وزواياه، وبغيرها يظل الإنسان سرًا مغلقًا لا تدري أين مفتاحه، إلى أن تعثر على الكلمة منطوقة أو مسموعة أو مقروءة، فتزيل الحجب، ويتم التواصل بينك وبين الآخرين فيعرفون عنك ويعرفون منك.

وهل قامت الدعوات على اختلاف توجهها بغير الكلمات؟

وهل قامت حروب إلا مسبوقة بالتهديد والوعيد؟

وهل حدث سلام بغير كلام؟

وهل تتم تربية بغير توجيه وإرشاد؟

والناس لا يتعاملون ـ بيعًا وشراءً وأخذًا وعطاءً ـ بغير لسان مبين وكلام واضح غير ذي عوج.

وإذا كانت تلك هي منزلة الكلمة بين الناس، فإنه من الواجب أن تكون كلمة صادقة، لا تبغي غير الإصلاح. منزهة عن الهوى والغرض الشخصي،عاملة على النصح المخلص، من غير تشهير بأحد، ومن غير ذم، وإن أخطؤوا، فغرضنا الإصلاح لا الإفساد، والتقويم لا الاعوجاج، والبناء لا الهدم، والنقد الموضوعي الذي نبغي من ورائه الصالح العام، وهو جزء من الكلمة الصادقة الناصحة، التي نسعى من أجل أن تصل إلى جموع الناس، فَتُقَوِّى عزيمتهم وتشدّ من أزرهم، فيعملوا بجد واهتمام لرقي هذه الأمة وازدهارها وتقدمها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[1].

---

(١) إبراهيم: ٢٤، ٢٥.

إن أمانة الكلمة من أعظم الأمانات التي حملها الأنبياء والدعاة من بعدهم في كل عصر . فلا مدح بغير الحق، ولا سلطان يعلو فوق الحق الواضح الذى لا لجاجة فيه أو مجادلة أو مماراة.

وما لم تستند الكلمة إلى الحق وتتطلع إليه وتعمل على بيانه للناس.

فهي ألفاظ جوفاء تحملها الرياح لتصك بها الأسماع كالطبل الأجوف، ثم لا يكون من ورائها غير الإزعاج: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾[(١)].

إن الكلمة التي تحمل القيم وتزيل عنها غبار الشعارات المكتسبة أو التقاليد المتوارثة هي الكلمة الأمينة المؤثرة النافعة.

وإن الكلمة التي تحمل الشر، وتُبشّر به، وتنشره بين الناس، هي كلمة ضالة مضلة، هدفها إشاعة الخراب والدمار وتحطيم الأنفس والقيم. ولشعبنا أصالته وقيمه، وتقاليده المستمدة من الدين أو عاداته الحسنة التي لا تخالفه، ولشعبنا آماله وتطلعاته في مستقبل يسعد فيه الناس ويأمنون على أنفسهم وأموالهم وديارهم وأعراضهم. ونحن في عَصْرٍ الغَافِلُ فيه مَيِّتٌ لم يقبر، فلا غفلة عن الأحداث من حولنا، ولا غفلة عن المتغيرات العالمية التي تجري أمام أبصارنا أو تصل إلى أسماعنا، ولا غفلة عما يحدث في ديار العرب والمسلمين، وفي هذا العالم الذي لم يعد يخفى فيه حدث أو أمر.

فلنا في ذلك كله رؤيتنا وآراؤنا، التي يوافقنا فيها الكثيرون وقد يخالفنا فيها القليلون. وفي هذا الإطار تكون كلمتنا، التي أدعو الله أن يجعلها شعاعًا من الضوء يزيل أو يخفف من غبش الظلام.

وقبل أن أختم هذه الكلمة أنبه إلى أمر مهم هو أن الكلمة الشريفة تستعصي على البيع والشراء، إنها من شرف الإنسان لا تباع ولا تشترى.أسمعت عن شريف يبيع عرضه؟ أسمعت عن حر يبيع ابنه؟ كذلك الكلمة الشريفة، والمسلمون بحمد الله

(١)إبراهيم: ٢٦.

ليسوا من الذين يبيعون ضمائرهم ولا شهاداتهم حتى تباع كلمتهم هنا أو هناك.

الشيخ د. جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُهَلْهل الْيَاسِين

الفصل الأول
تأملات في فقه
المشروع الإسلامي المتكامل

مدخـــــــــل

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى وبعد:

هي الأمانة كذلك... تبعاتها وهمومها تأخذ حيزاً كبيراً من تفكير الدعاة المخلصين الذين ينامون ويصحون على أحلامها وأمانيها وغاياتها السامية العالية...

إنها الأمانة التى ناءت بحملها السماوات والأرضون، وتقاعست عن تبنيها الأجرام والمخلوقات بأسرها، عدا الإنسان الذي تكفل بذلك إنه كان ظلوماً جهولاً.

لقد أخذت تلكم الأمانة اليوم صورة جديدة وبدت فى حلة قشيبة وتسمت بأسماء حسنة، فسماها البعض (الحراك الإسلامي) والبعض الآخر (الصحوة الإسلامية) وآخرون (المشروع الإسلامي) و ... و ...

ومهما يكن من شيء، فإن هذه التسميات لن تغير من حقيقة الأمانة التي مضمونها واحد مهما تكاثرت في بيانها الأسماء... والذي يهمنا من أين وكيف نصل بتلك الأمانة وذلك المشروع ـ إن صح التعبير ـ إلى طالبيه ومبتغيه؟! كيف نبين لهم المنهج، ونوضح لهم الطريق، وننير لهم السبيل، ونأخذ بأيديهم إلى شاطئ الأمان وبر النجاة؟

هذه بنات خرائد وأبكار بكار وخواطر كبار دارت وتدور حول هذه النقطة بالذات... خواطر دارت بالفكر وخطرت على القلب في ساعة لمعت فيها بارقة أمل يحدوها إلى المستقبل المشرق الذي ينتظر هذه الأمة.

إننا إذ نقيد هذه الأفكار من خلال هذه الورقات لنرجو ـ إن شاء الله ـ أن نكون من بين أولئك الكثيرين الذين أسهموا في عملية البناء البناءة التي شيدت لهذا المشروع أسسه، ووضعت له معالمه.

وما كان فيها مما يَلْقى ارتياحاً لدى القارئ وقبولاً في نفسه أرجو أن يكون صواباً في حقيقة الأمر، وهو أولا وآخراً من الله تعالى وتوفيق منه.

وما كان منه غير ذلك لديه فرأيٌ قد يكون صواباً وقد يكون غير صواب، ولكن أرجو أن تُسْعِفنى أقلام القراء فى الدلالة على وجه الصواب فيه أو في غيره.

وفي الختام هو إسهام فى حقل الدعوة، أسأل الله له القبول عنده، والجزاء عليه منه، إنه سميع قريب.

والحمد لله رب العالمين.

*****

أولاً:
أزمات دعوية

١ ـ يصارعون في الميدان وحدهم:

لقد حفظ الله كتابه من التحريف أو التغيير، وجعله صراطًا مستقيمًا، لا تزيغ به الأهواء. وتوعد الذين يتركون العمل به بأن يقصمهم ويذلهم (من تركه من جبار قصمه الله).ومن حاد عنه وانحرف عن سبيله ضل وغوى (من ابتغى الهدى في غيره أضله الله) وكفى بهذا الكتاب فخرا لهذه الأمة أن نزل بلغتها، وأحيا مواتها، وصنع منها خير أمة إن تمسكت به، وجاهدت في سبيل إعلاء كلمته، وسيادة شريعته، وأخذت نفسها بتعاليمه، واستقامت على هداه.

وحملة القرآن الكريم هم أرق النَّاس أفئدة، وأعظمهم أخلاقًا، وأقومهم طريقًا ـ أو هكذا ينبغي أن يكونوا ـ لقربهم من القرآن، وعملهم بتعاليمه، ويقينهم بأقواله، وثقتهم في تحقيق ما جاء فيه من وعد أو وعيد، ولذا حين رأى عمر رضي الله عنه كاهنا يجتهد في العبادة بكى، قيل: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله ـ عز وجل ـ في كتابه: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾[1] فذاك الذي أبكاني[2]. هكذا إحساس المتدبرين للقرآن، التالين لآياته، يفرحهم الثواب والخير والهدى والنور، فتنشرح صدورهم وصدور قوم مؤمنين، يسمعون تلاوتهم، ويعايشون كتاب الله معهم.

ومن هؤلاء ـ إن شاء الله ـ إمام الحرم المكي الشيخ/ عبد الرحمن السديس ـ ولا نزكيه على الله ـ الذي عايشنا معه كتاب الله في ليالي رمضان في الحرم الشريف، وهو يتمثل

---

(١)الغاشية: ٣، ٤.

(٢)أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٦٧) برقم (٣٩٢٥) وقال: «هذه حكاية فى وقتها فإن عمر أبا عمران الجونى لم يدرك زمان عمر».

معاني الآيات حين يقرأ بصوت جهوري وهبه الله إياه، فأحسن استخدامه فيما ينفع الناس، فالآيات تمر من لسانه إلى قلوب المصلين خلفه في الحرم، فإذا تأثر بالمعاني وسالت منه الدموع، وجدت كثيرا من المصلين يبكون.

وقد ذكرني هذا البكاء في الحرم المكي لسماع آيات الله في صلاة القيام بما حدث في العام الماضي وسجلناه حينذاك «للمجتمع» حيث كنا قد استمعنا للشيخ سعود الشريم في نفس المكان وهو يتلو قول الله: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٤٢﴾ [(١)] وسالت دموع التوبة والخوف من الله على الخدود، إعلانا بإنابة القلوب إلى الله رب العالمين.

لقد اعتاد عامة الناس أن يبكوا عند ذكر الموت أو عند ذكر الجنة والنار، ولكن الكبار من الناس يبكون ويألمون لتخلي الأنصار عن واجب التعاضد والتعاون لإقامة الحق في الأرض ونشره، والدفاع عنه، حيث تجد بعضهم يتخلى عن واجبه في هذه النصرة ـ نصرة الحق ـ دون مبالاة تذكر، وكأنه لم يفعل شيئا، بل قد يسيء الأدب حين يُدْعى إلى هذا الأمر.

وقد كان مما استمعنا له من الشيخ عبد الرحمن السديس آيات من سورة المائدة تقص علينا جزءا من قصة موسى عليه السلام (الآيات من ٢٠ ـ ٢٥) وفي بعضها يطلب موسى من بني إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، فما كان منهم إلا أن أشاحوا بوجوههم، وأعرضوا عن نبيهم، وتخلوا عن واجبهم، وقالوا ما حكاه القرآن: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝٢٤﴾ [(٢)] فكانوا سلبيين في قعودهم، متجاوزين حدود الأدب في قولهم، وشتان بين موقفهم وموقف ذلك الصحابي الذي قال للنبي محمد ﷺ بعد أن استشار أصحابه لملاقاة العدو في غزوة بدر، قال: «لا نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكنا نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون..» [(٣)]. وهذه هي الإيجابية التي يطلبها الكبار ممن

---

(١) هود: ٤٢.

(٢) المائدة: ٢٤.

(٣) أخرجه البخارى (٤٦٠٩) والنسائى فى الكبرى (٨٥٨٠)، وأحمد (١/ ٣٨٩) وقائل هذه العبارة هو الصحابي الجليل المقداد بن الأسود.

معهم في الصف، فإذا ما انعدمت هذه الإيجابية عند البعض بكى الكبار ألما وحسرة على تخلي الصغار.

وإنك لتجد البعض اليوم لا يمنعك من أن تفعل ما تشاء، بل ويؤيدك، ولكنه لا يساعد حين يحتاج الأمر إلى مساعدة، ولا يعاون والموقف لا يقتضي إعراضا أو مناقضة، وتكون السلبية عند هذا البعض هي الغالبة في مواقف لا تحتمل التأجيل أو التعطيل.

إن هذه السلبية بين الأنصار والأعوان لا تمحوها كثرة الدموع، ولكنها تسري عن صاحبها قليلا، وتدفعه لأن يلتجئ إلى الله داعيا ضارعا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾[(١)].

وما عرفت الدعوات ولا عرف أصحابها طريقا يؤدي إلى فشلهم ـ أحيانا ـ وتأخر تمكينهم ـ أحيانا أخرى ـ أخطر من هذا الطريق، إنه أعظم شرا عليهم من عدوهم، لأن أصحابه يؤتون من قبل أنفسهم، فكيف يتوقون ضرر هذه النفوس وخطرها، وهم لا يحسبون حسابها، ولا يعرفون متى تظهر هذه النفوس سلبياتها؟ إن العدو الخارجي تستطيع أن تتقي خطره وأن تقلل شرَّه برصد حركته، وإقامة المتاريس في وجهه، أما خطر النفس، وخطر بعض من في الصف فمتى ترصد حركتهم وأنت تثق بهم وتعتمد على قدراتهم وعطائهم؟ إذا تخلى أصحاب المال فلم يبذلوا عند الاحتياج، وتخلى أصحاب العلم فكتموه، وتخلى أصحاب العافية والصحة عن الجهاد، وارتدوا على أعقابهم، فكيف لصفٍ مثل هذا أن ينجح؟

وهذا ما يحزن الكبار، ويدعو إلى استمرار الألم، ولا يملك المرء أمامه إلا أن يقول: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾[(٢)].

٢ــ نعم حق .. ولكن كيف لنا به؟

الذين ينكرون الحق قد لا يكونون ـ بالضرورة ـ عنه غافلين أو جاهلين، بل ربما

(١)آل عمران: ٨.

(٢)البقرة: ٢٥٠.

ينكرونه ـ بعد معرفتهم به وتيقنهم منه ـ لعوج في نفوسهم، وضعف في إرادتهم، وتفلت من قيوده التي يفرضها عليهم الالتزام به، وهم غير أهل للالتزام، وغير قادرين على الانضباط داخل نظام، ولذا هم يفرون من الحق، بل قد يحاربون المتمسكين به ـ إن اقتضى الموقف ذلك ـ حسدا من نفوسهم، وبغيا وعدوانا على من هم أقوى منهم، وأعظم شأنا، وأعلى قدرا. ولعل موقف أبي جهل في رفضه نبوة محمد ﷺ، دليل على ذلك، إذ أرجع رفضه للنبوة؛ لأنهم تنافسوا هم وبنو عبد مناف الشرف في الجاهلية، حتى إذا كانوا كفرسي رهان، قال بنو عبد مناف: «منَّا نبي يوحى إليه»، ثم يكشف عمَّا في نفسه قائلا: «فمتى ندرك مثل هذه؟!»، هو إذاً يعرف أن النبوة حق، ولكن لأنه لا يستطيع أن يدعيها هو وجماعته فليس من سبيل أمامهم إلا إنكارها، بل والاستمرار في محاربتها بغير نكول أو توقف.

وكثيرون ممن يشرعون أقلامهم اليوم ضد الصحوة الإسلامية، بل ويتجاوزون ذلك إلى غمز الإسلام أحيانا والإساءة إلى نبيه ﷺ ليسوا جاهلين بالحقيقة، ولا غافلين عنها، ولكنهم يقولون قولة أبي جهل: متى ندرك مثل هذه؟ وإذا كانوا عارفين بما في أنفسهم مما تدل عليه مقولتهم، فإنهم يجهلون أو قد يجهلون أن ما تحققه الحركة الإسلامية من نجاحات في جموع المسلمين، إنما مرده إلى إخلاص العمل لله، وإلى أن العاملين في حقل الدعوة الإسلامية يضحي الكثير منهم، والمقدم بين أقرانه وإخوانه بما يضحي به الصغير، وقد يزيد، ويتحمل كبيرهم من المشاق والشدائد ما يتحمله الصغير، بل قد يزيد، وقدوتهم في ذلك وأسوتهم رسول الله ﷺ، الذي يقول عنه علي بن أبي طالب: (كنا إذا اشتد البأس، واحمرت الحدق ـ كناية عن شدة الحرب ـ اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه)[1]، فكانت شجاعته قبل كل شجاعة، وتضحيته في سبيل الله فوق كل تضحية، حتى مات ودرعه مرهونة عند يهودي في أمداد من شعير[2]، مع أنه ﷺ لم يكن فقيرا، بل كان جوادا كريما، أجود

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٥٧)، وأبو يعلى (٣٠٢)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ ص٥٧»، وصححه الأرناؤوط في تخريج المسند (٢/ ٤٥٤ رقم ١٣٤٨).

(٢) كما في الحديث الذي رواه البخاري (٢٥٠٨) عن أنس رضي الله عنه .

بالخير من الريح المرسلة[١]، تأتيه الأموال الكثيرة فلا يترك منها نقيرا ولا قطميرا إلا ويوزعه على البائسين، ويواسي بها المحرومين، دون أن يترك لنفسه أو لأهله شيئا. والعاملون في الدعوة يدركون ذلك ويعملون به ـ ما استطاعوا ـ فتثمر جهودهم، ويبارك الله في أعمالهم، لأنهم يعملون لله وفي سبيل الله، لا يعنيهم الكسب المادي ـ من وراء دعوتهم ـ ولا المنصب الأدبي، بل قد يتخلون عن هذا وذاك إن عارض الدعوة عارض، أو أثر على سيرها أدنى تأثير، والناس في شوق شديد إلى أن تسود تعاليم الإسلام، لأن الحق والعدل رهن بسيادة هذه التعاليم، حيث يحتكم الجميع إلى منهج الله، فتستريح النفوس، وتأمن وتطمئن القلوب إلى أن المعتدي يلقى جزاءه في الدنيا قبل الآخرة، وأن المحسن يلقى جزاءه في الدنيا قبل الآخرة، فتستقيم الحياة.

فماذا عند غير الإسلاميين يدعون إليه في بلاد الإسلام؟ وأي حق في دعاويهم؟ ولماذا هذا الهجوم على كل ما هو إسلامي وعلى كل منتم بحق للإسلام؟ وهل من مبررات لذلك؟ أليس الأولى بنا أجمعين أن نعمل على إحقاق الحق، وأن نشد على أيدي المصلحين، وأن نأخذ على أيدي المفسدين؟

أليس الأولى أن يتخلى كل ناظر لنفسه، مضخم لذاته عن مقولة: «متى مثل هذه؟» لتستقيم الحياة لأصحاب السفينة التي يتلاطم بها الموج من كل جانب، وتأتيها الريح من كل مكان، ولا تكاد تسلم من عاصفة حتى تلاحقها أخرى؟

أليس الأولى أن نتذكر ونعمل بقول الله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٢].

٣ـ معاني التضحية.. في يوم الأضحية:

في يوم الحج الأكبر ـ يوم النحر ـ يمارس الحجاج شعائر الحج التي جعل الله تعظيمها إحدى أمارات تقوى القلوب ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾[٣]،

---

(١) ورد ذلك في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري (٦) ومسلم (٢٣٠٨).

(٢) ص: ٢٦.

(٣) الحج: ٣٢.

فيرمون جمرة العقبة وينحرون البدن، أو يذبحون الهدي، ويحلقون أو يقصرون ثم يطوفون ضارعين متبتلين، داعين الله أن يقبل منهم وأن يعفو عنهم ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ (1). ومن وراء هؤلاء الحجيج ملايين المسلمين في كل أرض تهفو أفئدتهم إلى البيت العتيق، وتود أن لو كانت مع الحجيج، وربما نوى الكثيرون أن يكونوا من بين الحاجين في العام القادم إن شاء الله لهم ذلك ويسّره، وهؤلاء وإن كانوا لم يمارسوا شيئا من شعائر الحج إلا أنهم يقومون بذبح الأضاحي تشبها بمن ذبحوا الهدي، وتحقيقا لسنة المصطفى ﷺ، فينال الفقراء والأصدقاء والأقارب من لحومها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض، فتطيب بها نفوس المضحين، ونفوس المحتاجين، فتعم الفرحة ديار المسلمين، فلا يبقى بينهم - في هذا اليوم - جائع ولا محروم، لأنهم طبقوا سنة رسول الله ﷺ، فصلوا صلاة العيد، ووزعوا لحوم الأضاحي، وأدركوا أنهم على ميراث من إرث أبيهم إبراهيم، الذي شرع في ذبح ولده الوحيد اتباعا لأمر الله ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ (2)، إن أمر الله عظيم، يحتاج تنفيذه إلى قوة وعزيمة، وعلو إرادة، وتمسك شديد بالصبر، ونفوس تضحي في سبيل الله بكل غال ونفيس، وحينئذ - بعد أن يعلم الله منها الصدق والعزم - يأتيها عون الله، ويخفف الله عنها، ويحقق ما تقر به العيون من كل ما هو معنوي ومادي.

والأمة المسلمة - اليوم - محتاجة إلى التضحية في كل مجال من مجالات الحياة، ومن كل قادر على التضحية بما يستطيع، لا من أجل علو في الأرض ولا فساد، ولا من أجل استكبار في الأرض، ولا من أجل مباهاة الآخرين، ولا غير ذلك مما يدخل في حيز الاهتمام بشؤون الدنيا، ولكن من أجل تنفيذ أوامر الله وفي سبيل مرضاته.

---

(١) البقرة: ١٢٧.

(٢) الصافات: ١٠٢ - ١٠٧.

إن الأمة التي يرتبط اسمها الآن بالتخلف والتبلد والجمود محتاجة إلى التضحية لتنفض عن عيونها الكرى[(١)]، وعن جوارحها الكسل، وعن حواسها الغفلة، وعن فكرها الهمود، حتى تتحرك ملكاتها، وتعمل أعضاؤها، وتستبصر طريقها، وتتيقظ إلى مكانها بحسب ما هو واقع على الأرض، وبحسب ما ينبغي أن يكون في دنيا الناس، حيث هي الأمة الوسط، الأمة الخيرة، الأمة التي أخرجها الله للناس، الأمة الشاهدة على الآخرة ﴿لِتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[(٢)].

إن التضحية في هذا العصر أصبحت واجبة وجوبا عينيا على كل قادر، وفي مقدمة المضحين يأتي دور العلماء وأصحاب النفوذ وأرباب المال، فالعلماء يضحون بوقتهم لتبصير الأمة بحالها وحثها على النهوض من كبوتها، وتوضيح الأهداف العليا أمامها، وأصحاب الخبرات والتجارب لا يدخرون وسعا في هذا السبيل، إذ يقومون بتجاربهم في معاملهم ومختبراتهم، ليثبتوا كل صالح، ويبينوا كل فاسد، ويكشفوا كل زائف في مجالات الصحة والأغذية والأدوية، والأسلحة والتصنيع، وفي كثير مما يحتاج إليه الناس في دنياهم، وكلٌّ يبذل جهده، ويعطي ما استطاع، ويدخر ذلك عند الله ليجد أجره الجزيل المضاع ف يوم يلقاه.

إن التجرد لله كان السمة المميزة لأصحاب رسول الله ﷺ الذين رباهم على يده، وصنعهم على عينه، فحققوا بالتجرد لله والتضحية في سبيله ما سوف يظل إلى يوم الدين شاهد صدق على بذلهم وعطائهم الذي غيروا به وجه الأرض المعمورة، فصارت فيها كلمة الله هي العليا، وجاءتهم الدنيا وهي راغمة، وهابتهم الأمم، وجعلت تحسب لهم كل حساب قبل أن تفكر في المكر بهم أو الاعتداء عليهم.

وأرباب المال من الناس عليهم ـ كغيرهم من الفئات ـ أن يضحوا في سبيل الله وحده، بتقديم أموالهم في كل نافع مفيد، يعود على الأمة بالخير، حتى يكونوا على أثر

---

(١)أي: النوم. المعجم الوسيط (كرى).

(٢)البقرة: ١٤٣.

السابقين من أمثال: عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهم من المنفقين المتصدقين، الذين جيّشوا الجيوش، وأعدوا في السلم والحرب ما استطاعوا من نفقة يرجون أجرها وبرها عند الله.

ولئن اقتصر حديث التضحية على هذه الفئات إلى جانب أصحاب النفوذ والسلطات العامة فلأنهم الأقدر على التضحية، ولأنهم يحملون العبء الأكبر في مسؤولية النهوض بالأمة، ولأنهم الباذلون للتضحية في مكانها بحيث تثمر ثمرتها وتؤتي أكلها، وإلا فإن الناس جميعا مطلوب منهم أي يضحوا بما يستطيعون، لأن أحدا لا يخلو من المسؤولية أمام الله «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[1]، وبدلا من أن نلعن الظلام فليضئ كل واحد منا شمعة، وبدلا من أن نندب حظنا على اللبن المسكوب، فلنعمل على اكتساب غيره، وتنظيف الأرض من أثره.

المسلمون يضحون يوم الحج الأكبر، وهذه شعيرة يؤجرون عليها ـ إن شاء الله ـ يوم الدين، وعليهم أن يضحوا من أجل المسجد الأقصى الذي يستصرخهم دون أن يجد مُصرخا، ويستنجد بهم دون أن يجد منجدا.

المسلمون يضحون ـ يوم الحج الأكبر ـ وعليهم أن يضحوا لإطفاء الحرائق الملتهبة في جسم الأمة المسلمة وفي بلاد عديدة، وبعضهم ـ للأسف ـ يذكي نيرانها ويسكب عليها مواد الاشتعال لتزداد اتساعا وامتدادا.

المسلمون يضحون يوم الحج الأكبر، وعليهم أن يضحوا بما يستطيعون ليكسروا حاجز التخلف الذي يفصل بينهم وبين التقدم بعشرات السنين، وعليهم أن يخلعوا عن أجسامهم ثياب الكسل والخمول، ليلبسوا في هذا العيد ثياب النشاط والهمة ومراقبة الله في أعمالهم وأقوالهم وخدمة أمتهم حتى تجد لها في الركب موضعا.

٤ ـ هذه القوة الخفية متى تُستغل؟

عرفت البشرية ـ وما تزال تعرف ـ العديد من أنواع القوة المادية عبر التطور الزمني

---

(١)أخرجه البخاري (٥٢٠٠)، ومسلم (١٩٢٩)، والترمذي (١٧٠٥)، وابن حبان (٤٤٨٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

لتاريخها، بيد أن أيا من هذه الأنواع لا يداني ولا يقارب قوة الإيمان، خاصة حين يكون هذا الإيمان عميقا يحكم هوى الإنسان ولا يجعله خاضعا لرغباته وشهواته، لأن المرء يتحمل التضحية والعنت والمشقة في سبيل ما يؤمن به ابتغاء مرضاة ربه، إنه ـ في هذه الحالة ـ يذهب إلى الموت راضيا باسما، لأنه يقرِّبه إلى الله، ولا يبالي أوقع الموت عليه أم وقع هو على الموت:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا … عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي الله مَصْرَعِي[1]

والمتشككون في هذه القوة ليسوا على صواب، بل هم لا يعايشون الواقع ولا يرونه ولو امتدت أبصارهم إلى بطاح مكة وما حولها لرأوا بأعينهم الحقيقة مجردة من كل زيف، لرأوا ـ كما رأينا قبل أيام قليلة ـ ملايين من المسلمين يحجون البيت العتيق، آتين من كل فج عميق، أي قوة جمعتهم في هذا الوقت؟ ومن وراءهم يتحمل نفقاتهم؟ ولماذا خرجوا في أسفار قريبة أو بعيدة وتحملوا مشاق هينة أو عظيمة؟ وأسئلة كثيرة تلتف حول هذه الجموع دون أن تجد غير الإجابة المعلنة: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنها يا أخي في الإسلام قوة الإيمان التي تستطيع بها هذه الأمة أن تصنع في الأرض الأعاجيب في السلم والحرب، وفي العلم والعمل، وفي الدين والدنيا، وفي التقدم والعمران والحضارة.

خبرني بربك، أي دولة في الأرض تستطيع أن تحشد مثل هذا الحشد؟ وكم من ميزانية تعلن إفلاسها إن هي حاولت أن تحشد مثل هذه الحشود؟ وكيف توحد هدفهم، وتهيئ سبيلهم، وتصون نظامهم وتحافظ على أمنهم؟ أي الدول تقدر على ذلك؟

إن الإيمان يصنع ذلك ويستطيع أن يصنع في الإنسان المسلم ما هو أعظم من تجميع الطاقات، وتوحيد القدرات، والسعي بها لصالح المسلمين، بل لصالح الناس أجمعين،

---

(١) البيت قاله خبيب بن عدى ضمن أبيات له قبل أن يصلب خلال بعث الرجيع، روى ذلك البخارى (٣٩٨٩)، والنسائى في الكبرى (٨٨٣٩) وأحمد (٢/ ٢٩٤).

ولكن المتشككين لا يفقهون، ومن قديم قال زعماء لهم من قبل: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾(١) فلما رجعوا إلى المدينة ثبت فيها الإيمان وطاشت كفة الخذلان والبهتان، وبقيت المدينة ـ وستبقى ـ ركن الإسلام الركين، يأرز إليها الإيمان حتى آخر الدهر.

وكان الأجدر بالمشككين والمخذلين أن يروا هذا الواقع ـ واقع القوة الإيمانية ـ يتمثل في عصرنا الحاضر، في جموع الحجيج التي تفيض من عرفات لتذكر الله ـ وحده ـ عند المشعر الحرام.

إن هذه الجموع أدركت أن سر القوة الأول هو حسن الصلة بالله، وإعلاء وإعلان التوحيد فأهلت: لبيك اللهم لبيك. لم يقل واحد من بينها لبيك عبد القادر، ولا عبد الباسط، ولم يول أحد من بينها دبره لنسك من المناسك أو شعيرة من الشعائر، ولم يؤجل واحد منها منسكا بعد وقته، ولم يعجله قبل وقته الذي اختاره الله وبينه رسول الله ﷺ حين قال: «خذوا عني مناسككم»(٢) وهذا درس عملي حركي للركن الخامس من أركان الإسلام، لو حرصنا على التمسك به حينا من الدهر بعد انتهاء الحج، لتغيرت أحوال المسلمين ولسلمت مقاصدهم، وتوحدت وجهتهم، وما تشعبت بهم الأودية، وعبث بهم الأعداء، وأخذوا بعض ما في أيديهم.

والداعون إلى المشروع الإسلامي، وأبناء الصحوة الإسلامية هم في مقدمة المطالبين بأن يستشعروا هذه القوة، وأن يتخلوا عن أهوائهم وعصبياتهم، وأن يجعلوا أنفسهم طوع ربهم، لا يرفعون إلا شعار: لبيك اللهم لبيك، ليؤلف الله قلوب المسلمين من حولهم، ويجعل قوتهم إرهابا لعدو الله وعدوهم، وهذا هو الطريق .. فهل من سالك؟

*****

(١) المنافقون: ٨.

(٢) أخرجه مسلم (١٢٩٧)، وأبو داود (١٩٧٠)، والنسائي (٣٠٦٢)، وأحمد (٣/ ٣١٨)، وابن خزيمة (٢٨٧٧) عن جابر رضي الله عنه.

ثانياً:
لنبعث روح الحياة من جديد

١ ـ إحيــاء المــوات:

أ ـ إنما الميت ميت الأحياء:

ماتت الأرض مواتا: خلت من العمارة والسكان فهي موات[١].

وإحياؤها يكون بالغرس والزرع والبناء، وأن تدب فوقها حركة ونشاط الأحياء، لأنها صارت أرضا عامرة، يستفيد منها بنو الإنسان، وقد يستفيد منها الحيوان ويأوي إليها الطير... وجهد الإنسان في تعمير الأرض وإحيائها غير ضائع في ميزان الإسلام، لأن ثواب ذلك عند الله لا يضيع في الدنيا ولا في الآخرة، فقد قال رسول ﷺ: «من أحيا أرضا ميتة فله خير أجر..»، وفي لفظ: «من أحيا أرضا ميتة فهي له..» [٢].

فعمّار الأرض لهم أجرهم في الدنيا والآخرة.. وأعظم من هؤلاء أجراً العاملون على إحياء الموات من البشر، الذين لم يعرفوا الصراط المستقيم، أو عرفوه ولكنهم ينحرفون عنه ويبتعدون عن سبيله، ويجعلونه خلف ظهورهم، وهم يتجهون تلقاء الضلال الذي أشاعه المفسدون وأذاعه المنحرفون، وزينه للغافلين الشياطين الذين لا يكفون عن الشر والمنكر، ويقدمون للشباب من القصص الرخيصة والتمثيليات الهزيلة والمسرحيات الهابطة ما يجعل غريزته تزداد التهابا فوق التهابها، وتأججا فوق تأججها، ويزداد الصراع في نفسه بين الخير والشر، وبين المعروف والمنكر وبين الفضيلة والرذيلة.

إن الشباب هنا أحوج إلى الإحياء من الأرض الموات، لأن الأرض إن لم تنبت الزرع فليس من الضروري أن تنبت الشوك، لأنها قد تصبح جرداء لا تنبت شيئا.

---

(١)المعجم الوسيط (موت).

(٢)أخرجه أبو داود (٣٠٧٣)، والترمذي (١٣٧٨)، وأحمد (٣/ ٣٠٤)، وابن حبان (٥٢٠٥)، وصححه، وانظر صحيح الجامع (٥٩٧٥).

والإنسان إن لم يعش للخير عاش للشر، وإذا لم يصلح أفسد، وإذا لم ينفع أضر وهو ـ في معظم الأحوال ـ يجد على الشر أعوانا ورفقاء وأذلاء، وما لم تمتد إليه يد حانية تنقذه من الأشرار وتخلصه من الفجار فإنه يهلك نفسه ويهلك غيره.

وإحياء هذا الشباب بالدين والقرآن والسنة والأخلاق والفضائل والقيم أعظم أجرا عند الله: «لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النَّعم»[1]. ولا تعجب إن اعتبرنا أمثال هؤلاء مواتا يستحقون الإحياء فإننا قد استعملنا تعبير القرآن الكريم: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[2]. فالضالون والغافلون والغارقون إلى آذانهم في أوحال المعاصي في حاجة إلى من ينتشلهم، أو هم في حاجة إلى إحياء جديد يبدد الظلام من حولهم، وينشر الضياء في قلوبهم وحياتهم.

ب ـ من يحيي الشباب؟

إن الشباب هم نصف الحاضر وكل المستقبل، ولا تستطيع جهة واحدة ـ مهما زاد إخلاصها وكثر جهدها ـ أن تقوم بهذا العبء، الذي يترتب على النهوض به والاطمئنان إلى مستقبل الأمة، وإلى أنها تسير في الطريق الصحيح.

إن جميع المؤسسات الرسمية والشعبية عليها واجب المساهمة في هذه المهمة بقدر ما تستطيع، وإن جهود العلماء العاملين في مجالات تخصصاتهم المختلفة لازمة للقيام بعملية الإحياء على النحو السليم.

وحين أطلب من المؤسسات والعلماء القيام بهذه المهمة لا يفوتني ولا يغيب عن ذهني ما يقدمه الجميع في مجالات العمل الرسمية لهذه الغاية، غير أني أتجاوز الرسميات إلى مجال المبادرات، وأن تكون الجهود التطوعية في غير أوقات العمل الرسمية ميسورة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لأعطين هذه الراية رجلا يحب الله ورسوله»، وفيه: فدعا علي بن أبي طالب فأعطاه إياها وقال: «لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم» وهذا لفظ مسلم.

(٢) الأنعام: ١٢٢.

موفورة، تؤدي دورها في رعاية النشء، وإتمام بنائه بعقد الصلة الوثيقة بينه وبين الله، حتى تكون الرقابة الذاتية التي لا تغيب من نفس الإنسان هي المهيمنة على سلوكه ونشاطه، وهو يتحرك في الحياة يبني بمنهج الله نفسه، ويصبح ـ بذلك ـ مع إخوانه في مجتمعه لبنة قوية متلاحمة لا تتفتت عند أول ضربة.

تكامل الجهود والجهود المتكاملة هنا لها ضرورتها، فلا يمكن أن يكتمل بناء إنساني أو عمراني إذا كان هناك هدّامون لهذا البناء تحت أي حجة من الحجج:

مَتَى يَبْلُغ ٱلْبُنْيَانُ يَوْمًا تَمَامَهُ   إِذَا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَغَيْرُكَ يَهْدِمُ

وبناء الإنسان أو إحياؤه أمر يحتاج إلى صبر جميل وجهد طويل، وبعد عن التشعب والتشتت، حتى لا تتضارب عنده الأفكار، وتتناقض في ذهنه الاتجاهات فيسلب بعضها بعضا ويخرج الإنسان في النهاية مشوش الفكر، مضطرب الوجدان، لا يدري على أي جانب يقف، وفي أي اتجاه تكون السلامة والأمان، فيصبح بذلك مذبذبا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؛ لأن هؤلاء يجذبونه مرة، وأولئك يجذبونه أخرى وهو ـ لفراغ عقله وقلبه ـ لا يدري أين يستقر. وحتى نقضي على هذا التذبذب والتردد لا بد أن نعرف ماذا نريد من الشباب؟

جـ ـ ماذا نريد من الشباب؟

إننا نريد من شبابنا أن يكون جادّاً في عمله وحياته، يستمتع ـ أحيانا ـ باللهو البريء، الذي يدفعه بعد ذلك إلى استمرار الجد، وإلى تحمل المسؤولية والإحساس بواجبه نحو أهله وقومه ووطنه.

نريد من الشباب أن يرعى وطنه وأن ينمي بناءه وأن يحافظ عليه وألا يفرط فيه، وأن يقدر النعم التي وهبها الله له في هذه الأرض التي نعيش فوقها، فلا يسرف فيها ولا يبذر وهذا وغيره لا يتم إلا في ضوء تربية إيمانية قوية تجعل الشباب يتخذ الدين (عقيدته وعبادته وشعائره وشرائعه) مرجعا أعلى في كل حكم وكل سلوك، لأن في دين الله الخير كل الخير ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[1]، ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟

(١)الأعراف: ٢٨.

وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ..﴾[(١)] والرسول ﷺ ما ترك من خير إلا دلنا عليه، وما ترك من شر إلا نهانا عنه. فكيف نجعل هذه المعاني تستقر في قلوب الشباب وعقولهم، وبيننا من يسيء إلى الذات الإلهية، أو يسخر من الرسالة المحمدية، أو يجعل قواعد الدين وأسسه مجالا للاستهزاء بدعوى حرية الرأي، وحرية الفكر وحرية التعبير؟!

ولهذا فإن الجهود المتكاملة ضرورة لازمة ينبغي أن نوجدها بيننا ونلتزم بها في تصرفاتنا في ضوء احترام الدين ومبادئه وقيمه التي لا خلاف فيها بين الناس، وإذا كان الناس جميعهم يتفقون على أنه من العيب وليس من الحرية أن يسب الولد أباه، فكيف لا يتفقون حول من يسب الذات الإلهية؟ وبأي حجة يحتجون؟ وكيف نربي أبناءنا على القيم والفضائل وهم يرون اختلافا في رأينا وسلوكنا وقبولنا أو رفضنا لمن يؤذي الله ورسوله والمؤمنين؟ وإن كل دعوة مناقضة للدين، تؤثر في تربية الشباب وفي بناء

المجتمع، وتسبب أضرارًا كبيرة تجنيها الأمة والمجتمع ولو بعد حين.

ومن هنا فإن أساس إحياء الشباب - إن أردنا له وللمجتمع النفع - أن يرى الجميع متفقين على القيم العليا التي يحتكم إليها.. وقيم الدين وشعائره وشرائعه هي أساس كل بناء وأساس كل إحياء.. فتكون هي المرجعية التي يرجع إليها الجميع والرابطة التي تربطهم حتى لو اتجهوا في الحياة وجهات شتى، فإنهم يظلون مخلصين لدينهم، جاعلين جهودهم في خدمته لا في نقضه وهدمه.

ولنذكر جميعا هذا النموذج: (إن العالم اليهودي الذي اخترع مادة متفجرة جاءت كثمرة لتخصصه العلمي، كان إلى جانب هذا التخصص العلمي الدقيق يتمتع بثقافة توراتية ورؤية دينية توجه ملكاته وتوظف تخصصاته للعمل على تحقيقها، وذلك في الوصول إلى أرض الميعاد وإعادة بناء الهيكل، إنه لم يكن عاجزا عن توظيف مخترعه العلمي من خلال تلك الثقافة، لقد فرض على الحلفاء في الحرب العالمية أنه لن يبوح لهم بسر المخترع الذي يمكنهم من النصر ما لم يأخذ عليهم العهد في تأييد حق يهود في فلسطين.. وهذا الذي كان، وقدم هذا العالم لأبناء دينه ما لم يستطع تقديمه جيش من

(١)الأعراف: ٢٩.

الجهلاء أو العلماء الفاقدين للبصيرة والثقافة، والذين لا تزيد علومهم عن أن تكون نسخا جديدة مما قرؤوا أو معاجم جامدة في المكتبة!!) (١).

إن هذا العالم كانت مرجعيته دينية يعمل من أجلها ويخدم في سبيلها، ويقدمها على ما سواها ورغم أن يهوديته الحاضرة قد لحقها زيف كبير وتحريف عظيم قام به الأحبار بحسب أهوائهم ورغباتهم إلا أن ذلك لم يمنعه من تسخير علمه وعمله وجهده لمصلحة اليهود في الشرق والغرب حتى لو اغتصبوا الأرض وطردوا أصحابها وارتكبوا كل موبقة ومهلكة، فلماذا ليس بيننا مثل هذا العالم حتى في بعض فروع العلم التي نبغ فيها بعض علمائنا العرب؟ إن جهودنا واختلاف نظرتنا لديننا ومبادئنا وقيمنا، وعدم الاتفاق على مرجعية عليا نحتكم بالفعل والقول والسلوك أدى بنا إلى ما نحن فيه من خلافات وتذبذبات.

ومن زرع حنظلا لا يحصد تمراً، ومن زرع شوكاً لا يجمع عنباً. فهل تجد هذه الدعوة صداها أو أنها تذهب صرخة في واد؟

٢ ـ إملاءات الواقع الدعوي:

أ ـ الحاجة إلى العمل الجاد:

إن الأمة مدعوّة اليوم قبل الغد إلى العمل الجاد الدؤوب، وخير الأعمال ما دوام عليه صاحبه وإن قلَّ، وإنما تبنى الأمم بالأعمال لا بالأحلام ولا بالأقوال والأماني. ويستحق الفرد منزلته في الآخرة بين الأبرار بعمله الصالح المبني على الإيمان، أو بين الأشرار بعمله الطالح المبني على الكفر والجحود والنكران.

العمل إذن طريق الرقي في الدنيا وسبيل السعادة في الآخرة، ومع إيمان المسلمين بهذا إلا أنهم لا يعملون العمل المناسب الذي يدفع الحياة إلى الأمام دفعاً، ويرقى بهم في مصاف الأمم، ليكونوا على مقربة من قامتها السامقة، ومنزلتها العالية.

كأنما تطرق إليهم ذلك المفهوم الخاطئ، الذي تسلل إلى عقولنا خلسة، حين فهمنا أن الدين لا صلة له بالحياة؛ إذ يكفي أن الإنسان ينجو به من عذاب النار، أما أنه هو

---

(١) انظر: حول إعادة تشكيل العقل المسلم، لعماد الدين خليل.

المحرك نحو العزة والكرامة، هو المحرك للهمم، هو الدافع للعمل، فذلك ما ليس للدين إليه سبيل. هذا وهمهم في فهمهم، وكم من فهم خاطئ عن صلة الدين بالحياة يعيش بيننا الآن، ويشدنا إلى القاع، دون أن يرفعنا إلى القمة.

فهل غاب عن الناس أن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل؟ ولعلهم يظنون أن المقصود بهذا العمل هو العمل الصالح. وهل العمل الصالح في كثير من الأحيان إلا متصلا بالناس يقدم لهم ما يحتاجون، ويؤخر عنهم ما به يتضررون؟ وهل غاب عن الناس أن من بات كالاّ (متعباً) من عمل يده بات مغفورا له؟ وهل غاب عن الناس أن من كان يسعى على أبوين ضعيفين فهو في سبيل الله، ومن كان يسعى على صبية صغار فهو في سبيل الله؟ إن الرجل الذي سقى كلبا غفر الله له، وإن المرأة التي حبست هرّة دخلت بسببها النار، أليس هذان نوعين من العمل الدنيوي أحدهما فيه الخير فكان جزاؤه الغفران، وثانيهما فيه الشر فكان جزاؤه الخسران؟ وكم بين سقي كلب وإحياء نفس من درجات في مراتب العمل. وكم بين حبس هرة وقتل نفس أو إشراك بالله من دركات في إحباط العمل.

فمراتب العمل متفاوتة والناس فيها متفاوتون بحسب قدراتهم وطاقاتهم وعلمهم وابتكارهم، وغير ذلك مما فضل الله به بعض الناس على بعض، ولكن هذه الجهود المتفاوتة تنتظم في سلك واحد يخدم الأمة، حين يبذل كل إنسان ما استطاع من عمل عقلي أو عمل يدوي في إتقان ومهارة، بحيث نصل في يوم من الأيام - وعسى أن يكون قريبا - إلى أن تكتفي أمة الإسلام بما لديها من المرحلة الأولى.. ثم يفيض ما عندها بعد ذلك على غيرها في جانبيه المعنوي والمادي، المعنوي المتمثل في الدين والقيم والأخلاق، والمادي المتمثل في كل ما يحتاج إليه الإنسان مما لا غنى عنه في أي مكان على وجه الأرض.

لترفع أمتنا بهذين الجانبين العمليين من قيمة الإنسان، فلا يظل حيوانا ناطقا، ولا حتى راقيا كما ينظر إليه الغربيون، بل إنه جنس آخر غير الحيوان، وغير الشيطان وغير الملائكة الكرام، إنه جنس كرمه الله، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعا

منه. فكيف نوافق أصحاب الأهواء في تصورهم الناقص للإنسان حين يعتبرونه حيوانا همه إشباع الرغبات، وتحقيق الشهوات والملذات، ولا نتبع في تصورنا ما أخبر الله به من تكريم لهذا الإنسان حتى أسجد الملائكة لآدم أبي البشر؟

لقد انحرف تصور أصحاب الفلسفات الأرضية عن الإنسان فصار همهم الأول، بل الأوحد ما أخبر به القرآن ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾﴾[1] فلماذا انحرف تصورنا نحن، وعندنا الخبر اليقين عن هذا المخلوق.

إننا نحاول أن نتبع الغربيين في كل أمر، ونلهث وراء أعمالهم الدنيوية التي بغيرها تتعثر الحياة. فلماذا نتبعهم في الأفكار والتصورات ولا نتبعهم في الأعمال والإنجازات؟ لقد صار الإنسان عبداً للآلة، مع أن المفروض والمنتظر أن تكون الآلة في خدمة الإنسان.. ولعل هذا الذي أخبرك به بعيد عن رأيك وفكرك مع أن الأمر واقع بيننا اليوم. وإذا ما نظرت إلى كثير من البيوت وجدت الأقساط تكاد تفتك بجهود صاحب البيت، وتكاد تخربه لسداد قرض هنا وقسط هناك في شراء بعض الأمور التي يمكن الاستغناء عنها بغير ضرر.

وإن العمل بجانبيه المادي والمعنوي المبني على الإيمان هو الذي يجعل أصحابه روادا على طريق الخير للبشرية كلها، لأن العاملين المؤمنين المنتجين يدركون واجبهم نحو إخوانهم في الإنسانية، فلا يحرقون الغلات والحبوب حتى يحافظوا على بقاء الأسعار، ولا يلقون بمحصول في البحار لنفس الغرض، ولا يثيرون القلاقل في البلاد، ويبعثون الفتن بين العباد من أجل أن يبيعوا لهم سلعة معينة، يكسبون من ورائها الملايين ولا يستفيد المشترون لها شيئا يذكر حتى بعد سنين.

إن العمل في الإسلام عبادة والمقصِّرون في أعمالهم لا يضرون - فقط - أنفسهم، بل يضرون غيرهم من البشر، ويؤثرون على التصورات والقيم، ويجعلون الحياة قحطاً، حين يقودها الماديّون الذين قست قلوبهم فخلت من الرحمة والشفقة إلا إذا كانت لهم من وراء ذلك مصلحة تذكر.

---

(١) محمد: ١٢.

فهل نقوم بهذه العبادة، فنحقق قول شوقي أمير الشعراء:

سَعْيُ الْفَتى فِي عَيْشِهِ عِبَادَه ... وَقَائِدٌ يَهْدِيهِ لِلسَّعَادَه

لَأَنَّ بِالسَّعْيِ نَمَاءَ الْكَوْنِ ... وَالله لِلسَّاعِينَ نِعْمَ الْعَونِ

والأمم بحسب ما اعتاد أبناؤها، فإن عودتهم احتمال الشدائد، والصبر على المكاره، وإتقان العمل، وإشراقة الأمل، خلقت منهم رجالا يشدون أزرها، ويقوون عضدها، وإن اعتادوا الرخاوة والترف والكسل في العمل والتهاون في المسؤولية كانوا كلا على الأمة وعالة عليها.

ونحن ـ بحمد الله ـ لم نكن كذلك، حين كانت أمتنا تقوم على الجهاد والاجتهاد، فكنا بحق كما قال شوقي:

وَنَحْنُ فِي عَيْنِ الْوُجُودِ أُمَّه ... ذَاتُ اشْتِهَارٍ بِعُلُوّ الْهِمَّهْ

والأمر محتاج إلى تربية وإلى بعث للعزيمة وإلى قبول التحدي المطروح علينا، والدين الإسلامي خير حادٍ لنا وخير مرشد لأبنائنا على امتداد الأجيال.

ب ـ الحاجة إلى قدوات معاصرة:

«الإنسان القدوة» هو النموذج الواقعي المتجسد الذي يحمل من القيم والفضائل والمكارم ما يعلو به على نوازع الأرض وثقلة الطين؛ لأن له بالله صلة قوية تمنعه من التردي والسقوط، فهو مشدود إلى العلا، بعيد عن الهوى، أسلم قياده لله، فحماه وآواه، وأمده بنصره ورعاه ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾[1] والذين يقتدى بهم لهم في الفضائل والمكارم درجات بحسب استمساكهم بمنهج الله، ولذا كان خير قدوة مأموراً باتباعها النبي ﷺ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾[2] ويظل الناس يحاولون الارتقاء نحو هذا المرتقى الصاعد، لعلهم يقتربون من هذه القمة السامقة التي يقف عليها رسول الله ﷺ، وهم في ذلك متفاوتون أشد التفاوت بحسب القدرة والإخلاص والاستمرار والعلم والمعرفة

---

(١) محمد: ٧.

(٢) الأحزاب: ٢١.

والاشتغال بالعمل الإسلامي العام، الذي يقوم به بعض الدعاة سواء على المستوى الرسمي أم على المستوى الشعبي المتمثل في أصحاب المشروع الإسلامي، هؤلاء الذين ينبغي أن يتجردوا من كل ما يمس ذواتهم، ويجعلوا أنفسهم مذللة للدين، تمثله سلوكاً وعملاً والتزاماً قبل أن تتحدث به أو تعلن للناس عنه ليكونوا قدوة لغيرهم، وسراجاً منيراً ينير الدرب، ويزيل الغبش أو الظلام فهل نحن ـ الدعاة ـ كذلك؟

هل قادة المشروع الإسلامي ودعاته حين نظروا إلى أتباعهم فرأوهم ـ في بعض الأحيان ـ كثيرين، ونظروا إلى أعمالهم فرأوها في بعض الأحيان غير قليلة، بالقياس إلى غيرهم تواضعوا لله، وشكروا أنعمه عليهم، أم أنهم اعتدوا بحولهم وطولهم وقضهم وقضيضهم، وظنوا أن الأرض دانت لهم، وأن الناس نازلون على حكمهم، سائرون على دربهم، منفضون عن غيرهم، فاستعلوا في الأرض، ولم يتواضعوا أمام أتباعهم، ولم يتذللوا خضوعا وانكسارا لربهم.. وكأني بهم يقولون: لن نغلب اليوم من قلة؟

إن التواضع للناس أجمعين أمر حث عليه الدين وأوحاه الله إلى نبيه محمد ﷺ: «وإن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[1]. وكان الرسول القدوة ﷺ إمام المتواضعين، حتى إن الجارية كانت تأخذ بيده إلى أي طريق من طرق المدينة لتسر له بحاجتها، وكان يلاطف الصغير، ويحترم الكبير، ويقدر الآخرين، ولا ينتقص جهد أحد، ويقبل من كل أحد بحسب ما يستطيع، وقد بين لنا أن المتواضعين يرفعهم ربهم، ويعلي من شأنهم «وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[2].

وقد كان موقفه في مواطن الترفع التي يقع فيها الناس مثالا للتواضع، ألم يأتك نبأ فتح مكة؟ كم يساوي هذا الحدث في دنيا الناس آنذاك حين يجد الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله أنفسهم وقد نصرهم الله فعادوا إلى موطنهم ظافرين، وعلى أعداء الأمس منتصرين، استسلمت لهم الجباه، وخضعت لهم الهامات، ودانت لهم الدور والجبال في فتح سبقه إعداد واستعداد؟

---

(١)أخرجه مسلم (٢٨٦٥)، وأبو داود (٤٨٩٥)، وابن ماجه (٤٢١٤) عن عياض بن حمار رضي الله عنه.
(٢)أخرجه مسلم (٢٥٨٨)، والترمذي (٢٠٢٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ومع عظمة هذا الحدث فإنك تنظر إلى القائد العظيم محمد ﷺ ورأسه تكاد تمس عنق راحلته تواضعا لله، وشكرا له على ما رزقه إياه، وساقه إليه من النصر، ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [١].

وانتقل هذا الخلق الكريم من الرسول ﷺ إلى أصحابه حتى إن أبا بكر كان يحلب للحي أغنامهم قبل الخلافة ـ كما أخرج ابن سعد[٢] ـ فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحي: الآن لا تحلب لنا منائح دارنا، فسمعها أبو بكر، فقال: بلى، لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه، فكان يحلب لهم. والأمثلة عديدة، وكلها تبين أن الإسلام صاغ نفوس المسلمين صياغة جديدة، وصفاها تصفية بديعة، أزالت شوائبها وعمقت فضائلها، وجعلت للتواضع مكانا بارزًا بين هذه الفضائل.

فهل ما زال مكان التواضع هذا بارزاً في القلوب، ظاهرًا في الأعمال؟

إن بعض الأضواء وبعض الأتباع وبعض الأحاديث والأقوال والكتابات لا ينبغي أن تمس القيم الأصيلة في النفس، ولا أن تطغى عليها لتزيحها من مكانها، أو تحجب نورها، أو تزعزع مقدارها، وإلا فإن هذا أول الشروخ في زجاج الدعوة، وإن الزجاجة كسرها لا يجبر.

جـ ـ الغضب للحق:

هل نحن ـ دعاة المشروع الإسلامي ـ نغضب للحق أو نغضب لذواتنا؟

وهل المعارك التي تقوم بين أصحاب الفصيل الواحد، وتنشرها الصحف وتذكى أوارها، وتنفخ في لهبها مقصود بها وجه الله أو يقصد بها وجه فلان ورأى فلان؟

إن الغضب غريزة في الإنسان والحيوان لا يمكن منعه، ولكن يمكن التخفيف من أوضاره، والتخلي عن أثقاله، وتجنب أسبابه أو بعضها على الأقل، وتوجيهه الوجهة

(١) آل عمران: ١٢٦.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٨٤).

النافعة حين يكون الغضب من أجل إحقاق الحق وإن خالف رأينا، وإزهاق الباطل وإن وافق هوانا.

وهكذا كان غضب رسول الله ﷺ، فما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط، وما كان ينتقم إلا أن تنتهك محارم الله(١).

وهل كانت مناصبة المشركين العداء وجهاد المسلمين الأولين، وبذلهم للأموال والدماء إلا غضبة للحق ونزولا على مقتضياته.. فما بالنا نجانب هذا المنهج، أو يجانب بعضنا هذا المنهج في بعض الأحيان والمواقف، فلا يرى غير نفسه ولا يقبل غير رأيه، فإما رأيه وشخصه وإما غضبه الذي لا يبقى ولا يذر..فأين الحلم؟ وأين الرفق؟ ثم أين الإيثار؟ ثم أين موضعك من الأتقياء الأخفياء الذي إذا حضروا لم يعرفوا وإذا غابوا لم يفتقدوا؟

إن فلانا إذا أراد ألا يرى الناس إلا شخصه ولا يسمعون إلا رأيه، ولا يقدمون في المهمات غيره، ولا يقضون أمرا إلا بمشورته، قد يشتط إذا تجاوز الناس شيئا من ذلك لسبب من الأسباب، فإن هم فعلوا نالهم غضبه، وأحاط بهم سخطه، وعبس وبسر وأدبر واستكبر وقال: مالكم من داعية غيري، ومنظِّر مثلي وإلا فهاتوا برهانكم وأجمعوا جموعكم فإني لكم بالمرصاد أكشف أوهامكم، وأظهر أسراركم وأهتك أستاركم.. ثم يتمادى في غضبه، مستظهرا بالشيطان على نفسه، فينطق لسانه في أشخاصهم، وربما أطلق قلمه في كشف أخطائهم مدعيا أن غضبه للحق، والحق أن غضبه لنفسه.. لكنه لم يعد يرى أين الحق من الباطل أم أين الهدى من العمى، وكثيرا ما تكون طامة هؤلاء أن يأتي ضلالهم الحاضر على أثارة من علم سابق فيحدثوا فتنة، قد تشتد حتى تضر بآخرين.

---

(١)أخرجه مسلم (٢٣٢٧)، والترمذي في الشمائل (٣٤١)، وأحمد (٦/ ٣٢)، والنسائي في الكبرى (٩١٦٥)، والدارمي (٢٢١٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ خادماً له قط ولا امرأة له قط، ولا ضرب بيده إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء فانتقمه من صاحبه إلا أن تنتهك محارم الله عز وجل فينتقم لله عز وجل..» الحديث.

وقد يستمر هذا الغضب لأن أسبابه قائمة ودواعيه لا تتوقف، فما من إنسان غير الأنبياء أوتي الحكمة وفصل الخطاب، بل إن الرأي بين الناس مشترك والأمر شورى، والناس يحترمون كل صاحب رأي لا يتعصب لرأيه، ولا يرى أن قوله ـ وحده ـ هو الحق، وقول غيره هو الخطأ، بل إن المنصفين يقولون قول الإمام الشافعي:رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب، ويتحلون بما تحلى به الشافعي في مناظراته من سلوك (ما ناظرت أحدا إلا تمنيت أن يجعل الله الحق على لسانه).

فأين هذا مما يظنه البعض في آرائهم من أنها لا تحتمل الخطأ، ولا يأتيها الباطل من بين أيديها ولا من خلفها، فإن أظهر أحد عوارها وأبان بهرجها وفسادها، صب عليه الغضب صبا، وذاق من أفانين الكيد ألوانا، وشهر به واجتنبه الناس وتحزب ضده المتحزبون.. أفلا راجع الدعاة الهداة أنفسهم؟ أفلا جعلوا غضبهم للحق.. أفلا سخروا أنفسهم وأقلامهم وأقوالهم وأموالهم وجهودهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رغبة فيما عند الله، وطمعا في رضاه، فتجاوزوا عما يصيبهم في ذات الله، ولم يغضبوا لمنصب ذهب، أو رأي مخالف لرأيهم بين الناس اشتهر، أو شخص غيرهم تقدم.

أسمعت أن أحدا غضب أو ثار أو استدبر أمره واستدار لأن الرسول ﷺ ولى أسامة (٢٠ سنة) جيشا فيه أبو بكر الذي جاوز الستين أو عمر أو غيرهم من الصحابة.. وحقا حين مات الرسول ﷺ حاول البعض عزل أسامة بناء على رأي رآه، ولكن تمسك أبي بكر بقيادته للجيش حسم الموقف فلم يخرج عن قيادته أحد من مشاهير القواد المهرة المعروفين.. لماذا الغضب إذن إن أخذ رأي من الآراء، واستحسن اجتهاد معين قد يناسب الظرف الآني فيكون أولى بالتقديم؟ ولماذا الغضب إن قدم هذا أو ذاك لتولي قيادة أو الاضطلاع بأعباء الريادة؟ إننا ننصح له ونبذل معه ما نستطيع ونكون له ردءاً وعوناً.. لأننا نعمل في سبيل الله وينبغي أن نستعين بما أمر به الله: واستعينوا بالصبر والصلاة.أسأل الله لي ولكم العافية.

د ـ حب النفع للآخرين:

هل نحب للآخرين ما نحبه لأنفسنا، ونكره لهم ما نكرهه لها؟ هل نعتبر صالح المسلمين صالحنا؟ هل نبذل ما نستطيع من نصح أو جهد أو مال في سبيل الآخرين، نعلم جاهلهم، ونعالج مريضهم، ونحاول إغناء فقيرهم بإعطائه حقه ومنع الظلم عنه ما استطعنا إلى ذلك سبيلا؟ هل نصرناه كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما»(١)؟ وهل حققنا في المسلمين قول الله: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ ﴾(٢) هل أقمنا بيننا حقوق الأخوة التي قررها الله سبحانه بين المؤمنين ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٌ ﴾(٣)؟ وقول الرسول ﷺ الذي ربط فيه تحقق الإسلام بحب النفع للآخرين «وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما»(٤)؟

هل نحن على قلب رجل واحد نتعاون على البر والتقوى، ونتباعد عن الإثم والعدوان؟ هل تآلفت منا القلوب، وتماسكت منا الأيدي، وتدابرت عنا الأحقاد؟

وَفِيمَ يَكِيدُ بَعْضُكُمُ لِبَعْضٍ   وَتُبْدُونَ ٱلعَدَاوَةَ وَالخِصَامَا؟

كم من مرة تناصح فيها الإخوة في المشروع الإسلامي؟ وكم من مرة تصافح فيها ذوو الاتجاهات المختلفة في هذا المشروع الإسلامي؟ هل عفا أحد فيه عن مخطئ أساء، أو جاهل بغى، أو عالم تأول بعد اجتهاد، أم أن هؤلاء المخطئين سلقوا بألسنة حداد، وجلدوا بكلمات أقسى من السياط وأشد من وقع النبال عند النزال؟ هل فعل فيهم أحد ما فعله ابن عباس رضي الله عنهما حين سبه أحد المسلمين؟ ماذا كان رد فعله، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن؟ قال له: إنك لتسبني وإن فيّ ثلاث خصال: أني أقرأ الآية من كتاب الله فأود لو أن كل المسلمين يعلمون منها ما أعلم، وأني أسمع بالغيث

(١)أخرجه البخاري (٦٩٥٢)، والترمذي (٢٢٥٥) عن أنس رضي الله عنه.

(٢)الأنفال: ٧٢.

(٣)الحجرات: ١٠.

(٤)أخرجه الترمذي (٢٣٠٥)، وابن ماجة (٤٢١٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٣٠).

نزل في أرض المسلمين فأفرح وليس لي في مكان نزوله سائمة، وأني أسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل فأفرح وربما لا أقاضي إليه أبدا.

لقد اكتفى ابن عباس في رده على من سبه بأن قلبه يحب للمسلمين ما يحبه لنفسه، وأنه يفرح لكل خير أصابهم، ويحزنه كل شر نزل بهم.

وتلك هي النفس التي تحمل الدين وتعمق له مكانا في قلوب المسلمين، وتنشره بين الناس أجمعين، فهل نحن كذلك؟ وهل قمنا بحقوق الآخرين؟

هـ - التضحية في سبيل الدين:

هل نحن - حقا - نضحي التضحية الواجبة في سبيل نصرة هذا الدين؟ إن الغايات العظيمة تتطلب تضحيات جسيمة، وأي تضحية تكون هينة بسيطة أمام عظمة هذا الدين.

لأنه النعمة الكبرى التي امتن الله بها على المؤمنين ورضيها لهم ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾[(١)] وقد فهم المسلمون الأولون قيمة هذه النعمة (الدين) في حياتهم وآخرتهم، فاسترخصوا كل شيء في سبيله، قدموا أموالهم وأولادهم، وأنفسهم لإعلاء كلمة الله، وجعلوا حياتهم وقفا على نصرته، وتحملوا ما تحملوا من جهاد لينتشر نور الله بين العالمين، وأي تضحية تأتي بعد تضحيتهم لن تكون على مثال ما قدموه، ولا قريبة مما فعلوه، وأحداث الصدر الأول من المسلمين مع رسول الله ﷺ ومن بعده لا تترك مجالا لمقارنة ولا حتى لمقاربة في الأفعال مع الذين يظنون - اليوم - أنهم يضحون وهم يجنون ويحصدون ثمرة ما يعملون، حيث يجدون أنفسهم وقد صار لهم أتباع وصارت لهم كلمة مسموعة بين مجموعات من الناس، ولا يحرمون من السفر هنا أو هناك، ليؤدوا بعض المحاضرات، ويتم الاتفاق معهم على كتابة بعض المقالات، أو يحضروا بعض الاجتماعات، ثم يظنون أنهم قد ضحوا وأنهم قد بذلوا وأدوا لهذا الدين بعض ما يجب عليهم أداؤه، وأن

---

(١) المائدة: ٣.

تضحياتهم قد تجاوزت الحد، وبلغت الأوج، فيعتزون بما فعلوا، وهم لم يفعلوا شيئا إلا أنهم خرجوا عن إطار العرف الفاسد، الذي أصبح الدين آخر ما يتصل به أو يعبر عنه، وهذه ليست تضحية، لأنها واجب من واجبات المسلم التي تجعله ينأى بنفسه عن كل ما يرتضيه العرف الفاسد ويرتفع بنفسه وبغيره عن السفاسف والدنايا ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾[1]، ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[2]، فهل إن تجنبنا أمثال هذه الأشياء نكون قد ضحينا أم نكون قد التزمنا بشيء ديني أوجبه الله علينا؟

وهل التضحية ترك المعصية، أم هي التسابق في حمل الأعباء وتخفيف اللأواء عن المسلمين؟ أليست التضحية عند المسلمين بذلاً وعطاء يتفاوتون فيه ابتداءً من شق تمرة «اتقوا النار ولو بشق تمرة»[3] وانتهاء بتقديم النفس في سبيل الله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[4].

وبين البدء والانتهاء في سبيل الحق ومن أجله درجات كثيرة يتفاوت فيها المؤمنون وتتنوع وتتعدد من أجلها التضحيات، التي تتجمع لتصد عن الدين شرا قادما، أو تدفع بالدين شرا قائما ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[5] وبدون هذه التضحيات يبقى الشر منتفشا والحق منكمشا.

وكان السابقون في الإسلام هم أكثر الناس تضحية بالمال والوطن والأهل والولد والعشيرة والتجارة ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[6]،

---

(١)القصص: ٥٥

(٢)النساء: ١٤٠.

(٣)أخرجه البخاري (٦٥٣٩)، ومسلم (١٠١٦) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٤)آل عمران: ١٦٩.

(٥)الأنبياء:١٨.

(٦)التوبة: ٢٤.

لقد أحبوا الله ورسوله فقدموا كل شيء، قدم أبو بكر كل ماله، وقدم عثمان الكثير من المال، وسمع أبو طلحة الآية الكريمة: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1]، فجعل بستانا له من أجمل بساتين المدينة تجري فيه عين ماء في سبيل الله، وقسم عبد الرحمن بن عوف ماله نصفين جاء بأحدهما إلى رسول الله لينفقه حيث شاء في مصالح المسلمين، وفعل مثله أحد فقراء المسلمين، وحملوا جميعهم السلاح في وجه البغاة المتجبرين ليردوهم إلى الحق الذي جاء من عند رب العالمين، فأين نحن من هذه الأعمال؟ ومتى نقوم بها أو نؤدي بعضها؟

و ـ الحاجة إلى النظرة المستقبلية:

المتغيرات الكثيرة المتلاحقة إحدى سمات العصر الحاضر، فما كان يعد بالأمس القريب جديدا أضحى اليوم قديما، وقد يكون في الغد غير مقبول، لأن الزمن تجاوزه، والعهد به صار بعيدا، وتلك المتغيرات إحدى الحقائق العلمية في عصرنا، التي تؤثر على كثير من أنشطة الحياة، حتى في المجالات الفكرية والنفسية، فما عاد شيء يتصل بدنيا البشر إلا ولحقه بعض التغيير، أو إن شئت أن تقول بعض التطوير فلا حرج عليك في تلك التسمية، وليس الأمر في حاجة إلى دليل مكتوب، لأن كل المشاهد التي حولك في بيتك أو في مكتبك أو في السوق أو في غير ذلك ما هي إلا برهان مشاهد ودليل بيِّن على ما نقول.

والثوابت الحياتية، تبقى لها هذه الصفة وإن تزيت بأزياء مختلفة، وتلونت بألوان شتى، والدعوة إلى الله أحد أنشطة الحياة، بل هي من أهم الأنشطة عند المؤمنين، يبادرون إليها ويسعون إلى إظهارها بوسائل متعددة متغيرة، ورغم ثبات الدعوة على ما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إلا أن وسائل الدعوة تتعدد بحسب ظروف الزمان والمكان وثقافة الداعية، وأحوال المدعوين، فما يصلح للناس في مكان ما على وجه الأرض لا يصلح لآخرين في مكان آخر رغم اتفاق الزمن، وما كان يصلح للناس منذ

(١) آل عمران: ٩٢.

عقد أو عقدين قد لا يصلح لهم الآن، من هنا وجب على الدعاة أمران:

١ـ أن ينظروا إلى المستقبل على أنه الأمل المرتقب، الذي تحقق فيه الدعوة ظهورها، وتسلك فيه إلى كثير من الناس في الشرق والغرب سبيلها، متسلحة بأسلحة الحاضر التي يراها الناس ويسمعونها، في مجال الثقافة والتربية والحركة الإيجابية والسلوك الملتزم؛بحيث لا يظهر الداعية كراكب الدابة في الوقت الذي يركب فيه الناس ـ كل الناس ـ الطائرات الأسرع من الصوت أحيانا.

وإن من العجب أن يأخذ الإسلام بنيه إلى المستقبل في الدار الآخرة، فيتحدث القرآن حديثا مستفيضا عن الجنة ونعيمها وما أعده الله للمؤمنين فيها؛ مما يجعل الوجوه تتهلل، والقلوب تستبشر، والنفوس تبتهج وتسر، ويتحدث كذلك عن النار وعذابها حديثا مستفيضا تعبس له الوجوه، وتبتئس له النفوس، وتضيق به الصدور، ويتحدث رسول الله ﷺ عن المستقبل، ويشد أذهان المسلمين إليه حتى في أشد حالات الضيق والكرب: «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه»[1]، قال ذلك، وقد جاء إليه خباب بن الأرت يشكو الأذى ويطلب من الرسول ﷺ الدعاء للمسلمين والاستنصار لهم.

وفي كثير من مواقف الضيق والكرب كان ﷺ يعطي للمسلمين الأمل في المستقبل القريب في الدنيا، والبعيد في الآخرة.

فما للمسلمين اليوم لا يكادون يفقهون من الحديث إلا ما كان عن الماضي، ماضي الإسلام والمسلمين، ماضي فلان الذي فعل كذا، وفلان الذي أصَّل، وفلان الذي نظر، وفلان الذي عاش ومات وهو يحمل في قلبه هموم دعوته، ولا بأس بذلك كله، وإنما البأس أن نقف عند هذا الحد، دون أن نتجاوزه إلى المستقبل المنظور.

٢ـ الأخذ بالتخطيط لهذا المستقبل؛بحيث لا يكون أصحاب المشروع الإسلامي فيه

---

(١)أخرجه البخاري (٣٨٥٢)، وأبو داود (٢٦٤٩)، وابن حبان (٢٨٩٧)، وأحمد (٥/ ١٠٩) عن خباب بن الأرت رضي الله عنه.

نبتة تأتيها الرياح من أي اتجاه فتكفؤها، بل يكونون دوحة باسقة يستظل الناس بظلها، ويعرفون لها قدرها، وهذا يقتضي وضع برامج معينة، وإعداد قيادات مدربة، وغربلة للتراث الماضي، ومعرفة بتجارب الحركة الإسلامية، وما بها من كبوات أو نهضات، ويقتضي كذلك قيام المجامع الفقهية بإعادة صياغة الفقه الإسلامي، والنظر في المستجدات العصرية في ضوء قواعده وأسسه... إلى غير ذلك مما يقتضيه هذا المستقبل الحافل بشتى التطورات والمتغيرات، بل المتناقضات أحيانا حتى لا يكون سلاحنا سيفا مثلوما في عصر الصواريخ والإلكترونيات.

٣ـ هل الصحوة الإسلامية تتراجع؟

أ ـ الامتداد والظهور:

لقد كانت الصحوة الإسلامية ظاهرة برزت على الساحة في العقود الأخيرة، فملأت أخبارها الدنيا وشغلت الناس، فمنهم الناصح المؤيد، ومنهم الكاره المهاجم، ومنهم المنتظر المهادن، الذي ينتظر أن تأتيه أخبارها والمعلومات المرصودة عنها من مراكز الأبحاث الاجتماعية والاستراتيجية في الشرق والغرب، ولا تظن ـ أخي القارئ ـ أننا نبالغ في التعبير، ونعطي ظاهرة الصحوة أكثر مما تستحق، فالدراسات التي تحدثت عنها في الغرب أكثر من الدراسات التي كتبت في الشرق الإسلامي، وهي دراسات رصدت الصحوة من جوانب شتى، وبعضها دراسات واقعية تحليلية لوسائلها وأهدافها، وامتداد أثرها، وسعة انتشارها في عديد من البلاد.. ولسنا نتعرض هنا لأهداف هذه الدراسات، ولا لمن يقومون بتمويلها.. وإنما نتعرض للظاهرة ذاتها، التي نبتت جذورها حين غيبت السجون والمعتقلات دعاة المشروع الإسلامي في جوانبها المظلمة، وحين ظن البعض أن الدعوة إلى الله لم يعد لها صوت يسمع ولا لسان ينطق.. كانت جذور الصحوة الإسلامية في هذه الأثناء تمتد وتمتد في هدوء وثقة في الجامعات والمعاهد، وبعض المدارس الثانوية، وكان التوجه إلى دين الله هو الملاذ الذى يلتجئ إليه الذين رأوا بأعينهم فشل القوميين وتجني العلمانيين، وغطرسة الديكتاتوريين، الذين

كانوا يتبعون طريقة زعيمهم الأول فرعون ، الذي قال:﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾[1] لم يكن أمام الشباب غير الدين يلتجئون إلى رحابه، ويعيشون في جنابه، حيث يمكن - بالعودة إلى الدين - تحقيق عزة المؤمنين، وإقامة العدالة بين الناس، ورفع إصر التخلف عن الأمة، والمحافظة على كيانها ومقوماتها، وتربية الشباب على عدم التفريط في أرض ولا عرض ولا حق، مهما توالت التهديدات أو كثرت الإغراءات.. وأدرك الشباب أن الحركة الإسلامية مقيدة، وأن التحديات أمامها كبيرة، وأنها في حاجة إلى جهود متواصلة، فكانت الصحوة الإسلامية مدداً جديداً، وشرياناً يصب في الحركة الإسلامية ويمدها بقوة الشباب، ويسترشد بخبرتها في العمل، ويحاول مزج حكمة الشيوخ بقدرة الشباب لتأدية عمل نافع يظهر أثره على الساحة الإسلامية.

وقد بلغت الصحوة أوجها في السبعينات والثمانينات، وكان لها بعض الأثر في بعض الأمور السياسية أو الاجتماعية، ولعل الأحداث التي مرت بها الأمة بعد هزيمة سنة ١٩٦٧م ومعركة أكتوبر سنة ١٩٧٣م إلى جانب بعض السياسات الداخلية، والضغوط الخارجية ساعدت على انطلاق الصحوة وانتشارها في عديد من البلاد، وساعدت على أن يكون لها دور في الأحداث، وصوت يسمع في قضايا الأمة.

ب - تراجع غير مقصود:

وما يزال للصحوة الإسلامية بريقها، وسيظل لها أثرها الفاعل - إن شاء الله - غير أننا نظن أنها في التسعينات قد تراجعت قليلا عما كانت عليه قبل ذلك، ولعل الإحباطات التي توالت على العالم العربي والإسلامي منذ التسعينات والتي كان من أبرزها الغزو العراقي للكويت، وتوقيع ما سمي باتفاقات السلام في أوسلو ومدريد خير شاهد على ما نقول.

ولن نتكلم عن أثر هذين العاملين على الصحوة، لأن كثيرين تكلموا من قبل. ولكنا لن نترك السبب الثالث وهو انشغال الدعاة - في جزء كبير من نشاطهم - بالعمل

---

(١) غافر: ٢٩.

السياسي وحده، واعتباره هو الأساس الأول للعمل الإسلامي مع إغفال جوانب أخرى لا تقل أهمية عن هذا الجانب من بعض الوجوه.

وللعمل السياسي من جانب الإسلاميين أهميته لأنه مشاركة لها وزنها ولها اعتبارها في محاولة تسيير وضع الأمة بحسب ما يقتضيه الدين، وفي بيان الأحكام الشرعية التي يمكن أن تبنى عليها القوانين ومناقشتها داخل أروقة البرلمانات، والعمل على الخضوع للشريعة والالتزام بها، وبيان الروح الإسلامية المتسامحة التي تتعايش مع كثير من التوجهات التي لا تناقض الإسلام ولا تخالف مفاهيمه، إذ العمل السياسي يؤدي إلى تحديد لمشاكل الجماهير وتشخيص سليم للآلام التي تعاني منها، وقدرة عملية على إيجاد الحلول الصحيحة لها، وقدرة حركية على تنظيم الجماهير وتعبئة قواها وتحريكها لتنفيذ الحلول[١].

وهذا كله يتم على يد النواب المنتمين للحركة الإسلامية في ضوء تعاليم الإسلام، وهو شي غير قليل، ولكنه ـ وحده ـ غير كافٍ، لأن العمل الجماهيري أوسع من العمل السياسي؛ إذ يشكل العمل السياسي بعض جوانبه، وتبقى هنالك جوانب أخرى اجتماعية وتربوية واقتصادية تتصل بالجمهور مباشرة، ويود أن يدخلها أصحاب المشروع الإسلامي بقوة، لمعرفتهم أن الناس قد لا يهتم بعضهم بالعمل السياسي إلا بمقدار، ولكن بقية الأعمال الأخرى التي تقوم عليها أركان أي دولة قد تجد من الناس كثيرا من الاهتمام والالتفات دون أن تجد ذلك من النواب الإسلاميين، وإذا وجدته فإنه يكون أقل من الآمال المعقودة عليهم عند الناس.

جـ ـ الصحوة جزء من جمهور المسلمين:

والصحوة الإسلامية جزء من جماهير المسلمين، فإن لم تعبر عن مشاعرهم وتتبنى آمالهم، وتندمج معهم في كل ما لا يتعارض مع التوجه الديني الصحيح، إن لم تفعل ذلك تركتها الجماهير وابتعدت عنها ووقفت منها موقف المتفرج.. وهذا ما عبر عنه

---

(١) مستقبل الصحوة الإسلامية، د. عبد الله النفيسي.

الدكتور عبد الله النفيسي حين قال: وإذا أرادت الصحوة الإسلامية أن تحتضنها الجماهير فيجب عليها أن تبادر هي باحتضان الجماهير من خلال الانحياز الدائم لها وضبط العلاقة بها وفق نظرية موضوعية في العلاقات الشعبية. يجب أن ينعكس هذا الأمر على طبيعة لغة التخاطب مع الناس، فلابد من الرفق معهم وحسن التأتي والابتعاد عن مخاطبة الناس بلغة القضاة الأوصياء؛ لأننا في الأساس دعاة لا قضاة. كما أنه يجب أن ينعكس على طبيعة التعامل مع الناس واستعدادنا التام للتآلف معهم في إطار المباح من الأمور وعدم الاعتزال لما في العزلة من ضرر على الصحوة الإسلامية. لابد كذلك من بلورة موقف محدد وموضوعي من كافة القطاعات الاجتماعية والسياسية في المجتمع السياسي، والحذر من خلط الأوراق، وضبابية الرؤية، وحروب الوكالة، والاستدراج لمعارك جانبية تكسر التقيد بقوانين الاقتصاد في القوى وتؤدي إلى الهدر والتبديد، فهل وقعت الصحوة في بعض هذه المحذورات؟

هل هذه بعض أسباب تراجع الصحوة الإسلامية؟ وهل التركيز في توجيه جهود النواب وبعض الدعاة والعاملين إلى بعض الجوانب أدى إلى هذا التراجع؟ وهل للأحداث التي تلاحق المسلمين مثلما حدث في أفغانستان والبوسنة والهرسك، وكوسوفا وجنوب السودان والمشكلات القائمة داخل الجزائر وكشمير والمعاناة الفلسطينية داخل الضفة، وعدم اتخاذ موقف حازم تجاه القدس، وغير ذلك من المشكلات التي يسمع بها المسلمون ويرونها في أجهزة الإعلام، هل لهذا أثر - ولو من بعيد - في تراجع الصحوة؟

كل ذلك لا نستبعده، لأن الإنسان في عصرنا تتنازعه أفكار شتى وتتكالب عليه نوازع عديدة، تغذيها توجهات متعددة، وتأتيه في مكانه الذي هو فيه الأخبار والأفكار والآراء من كل صوب، ومن كل اتجاه.. وما لم يكن دعاة الإسلام أقوياء الحجة، داعين بالحكمة، عارفين بتيارات العصر، آخذين أهبتهم دائما لتوعية الجماهير، وتبصيرهم بالنافع في شؤون دنياهم ودينهم انصرفت الجماهير عنهم وتركتهم إلى غيرهم..

ومن هنا وجب مراجعة الأمر حتى نزن الأشياء بميزانها الصحيح، وحتى نعرف سبب الداء فنقدم له الدواء.

٤ ـ لا تبحث عنها فها هي بين يديك:

أ ـ طرق مسدودة:

الجميع يبحثون عنها، ويحاولون أن يلتمسوا طريقها، وأن يرتووا من ينبوعها، وأن يجعلوها نصب أعينهم، وملء قلوبهم وحياتهم، يبحث عنها الأمير، ويبحث عنها الوزير، يبحث عنها النائب، ويبحث عنها المواطن، يبحث عنها الكبير والصغير، والرجل والمرأة والغني والفقير... بحث عنها الأقدمون، ودأب في البحث عنها المحدثون، وأكثروا من المخترعات والمبتكرات كي يصلوا إليها وينعموا بها... ولن يفتر البحث عنها والجري وراءها حتى قيام الساعة.

وهناك عروض من جهات عديدة لتيسير الوصول، وكل جهة من الجهات تعرض ما تراه محققا للغرض بالطريقة التي تراها مناسبة، بحسب ثقافتها وأفكارها وحظها من التربية والتعليم. ولكنها ـ في معظمها ـ طرق مسدودة، يتوقف فيها السالكون وتزداد حيرتهم واضطرابهم، لضياع الطريق من أقدامهم، ونضوب الأمل في قلوبهم، فلا هم يصلون إلى هدفهم، ولا هم قادرون على أن يرشدوا غيرهم، فيَضلون ويُضلون.

إنها ليست تلك الغانية السمراء التي بحث عنها أحد المطربين في بلاد الشام، حين قال: أبحث عن سمراء، قامتها هيفاء، تسكن في قلبي تلك الأغنية التي كنا نسمعها ونحن في المدرسة المتوسطة. لا ليست هذه التي يبحث كل الناس، لأن الكثيرين منهم لا يعنيهم في شيء شأن هذه السمراء، سواء كانت هيفاء القامة أم لم تكن... وإنما كل الناس يبحثون في كل زمان وفي كل مكان عن «السكينة والسعادة» إنها سكينة القلب وسعادة الحياة، التي لا يمكن أن تتحقق بالأعراض المادية، لأنها ليست مكسبا ماديا يمكن شراؤه أو الحصول عليه، وليست سلعة متداولة في أسواق العرض والطلب، يستطيع أن يصل إليها من يشاء متى ملك ثمنها، وصمم على اقتنائها... ليست السكينة

والسعادة شيئا من ذلك، وإنما هي منحة ربانية يسوقها الله لبعض عباده، الذين أحسنوا العبودية، وأخلصوا قلوبهم لله، وأحسنوا علاقتهم به في عباداتهم القلبية منها قبل البدنية ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾[(١)] لقد تنزلت على هؤلاء السكينة وفاضت عليهم السعادة بعد أن باعوا الله أنفسهم، فأثبتوا صدق العبودية، وسلامة النية، وأنهم مستعدون للقدوم على ربهم، تاركون الدنيا خلف ظهورهم، حيث بايعوا النبي ﷺ على الموت في سبيل الله ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[(٢)] فأنزل الله عليهم السكينة ليزدادوا بها إيمانا، ويزدادوا بها يقينا في النصر، وثقة في الله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾[(٣)] وحين أصاب الفزع أبا بكر رضي الله عنه وهو في الغار مع الرسول ﷺ من أن يراهما أحد المشركين إن نظر أسفل قدميه، قال له الرسول ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[(٤)] وجاء القرآن الكريم ليبين أن السكينة قد نزلت لتربط على القلوب، فلا تجزع للخطب الجليل والحدث المهول: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾[(٥)].

وقد اتجه أصحاب رسول الله ﷺ إلى ربهم بالدعاء والضراعة أن ينزل عليهم السكينة، يوم أن حزبت الأحزاب جموعها، وأحاطت بالمدينة جيوشها، وجاء من أعلى المدينة ومن أسفلها من يريد تدمير المسلمين، وبلغ الخوف مداه فزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وزلزل المؤمنون زلزالا شديدا، وأظهر المنافقون ما في قلوبهم فأعلنوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾[(٦)] هنالك اشتد البرد واشتد البلاء

---

(١) الفتح: ١٨.
(٢) الفتح: ١٨.
(٣) الفتح: ٤.
(٤) أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١)، والترمذي (٣٠٩٥) عن أنس بن مالك عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه.
(٥) التوبة: ٤٠.
(٦) الأحزاب: ١٢.

والكرب، وكان مصير دولة الإسلام في مهب الريح، وخاف المسلمون خوفا شديدا، حتى إن الرسول ﷺ حين طلب منهم قائلا: «من يأتيني بخبر القوم وله الجنة» لم يقم أحد، ولم يندب نفسه لهذه المهمة الجليلة أحد، حتى عيّن الرسول ﷺ لها حذيفة[١].

وحين بلغت حالة المؤمنين ما بلغته لم يكن التجاؤهم وملاذهم وتضرعهم إلا إلى الله يطلبون منه:

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ ٱلْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

فالسكينة منحة من الله يعطيها لمستحقيها، ليربط بها على قلوبهم، ويثبت بها عند النزال والقتال أقدامهم، ويذهب عنهم الخوف والفزع، وبغير هذه المنحة الربانية التي ينزلها الله على عباده الصادقين من صالحي المؤمنين، فإن أحدا من الناس مهما بلغ من القوة لا يستطيع أن يحقق لنفسه السكينة والسعادة، ويذهب عنها الضيق والكآبة. بغير هذه الرحمة يكون الصراع ويكون الضياع، وإن أوتي الإنسان كثيرا من حظوظ الدنيا ومتاعها. بغير هذه السكينة المنزَّلة من الله يكون الشقاء ويكون العذاب والخسران والهوان.

ب ـ المال والجاه لا يسعدان الناس:

إن المال لا يسعد أحدا، وإن الجاه لا يسعد أحدا، وإن فرح الناس بالمال والجاه، وقد فهم المسلمون الأولون هذا المعنى جيدا فطبقوه في حياتهم، ونصحوا به إخوانهم، وتأمل هذه المكاتبة التي حدثت بين صحابيين جليلين لتدرك كم كان فهمهم عظيما، وتوجههم سليما.

كتب أبو الدرداء ـ وقد سكن الشام في عهد عثمان ـ إلى سلمان الفارسي وكان قد سكن العراق:

سلام عليك، أما بعد.

(١)أخرجه مسلم (١٧٨٨)، وابن حبان (٧١٢٥)، وأبو عوانة (٦٨٣٩) والبيهقي في الدلائل (٣/ ٤٤٩) عن حذيفة رضي الله عنه.

فإن الله قد رزقني مالا كثيرا وولدا. وإني أعيش في الأرض المقدسة.

فرد عليه سلمان بقوله:

سلام عليك، أما بعد.

فاعلم أن الخير ليس بكثرة المال والولد، وإنما الخير أن يكثر حِلمك، وأن ينفعك الله بعلمك، واعلم أن الأرض المقدسة لا تقدس أحدا. فاعمل كأنك ترى، وعدَّ نفسك في الموتى.

المال لا يسعد ولو كان مال قارون، والجاه لا يسعد ولو بلغ به سدة الحكم في أقوى دولة في العالم.

فكم من ثري يبحث عن السعادة بحبوب مهدئة، وكأس خمر محرمة، ومصاحبة غانية، فلا يزداد هذا الثري الشقي إلا شقاء، ولا يحقق لنفسه غير التعاسة، لأنه لم يسلك الصراط المستقيم، بل سلك سبيل الضالين الآثمين، وساعده ماله على الضلال والغيّ، فكان من الأشرار الأشقياء. وكم من صاحب جاه يهرب من تعاسته وشقائه وحيرته، محتميا بالجاه والسلطان والنفوذ والصولجان، فلا يغني عنه ذلك فتيلا ولا يحقق من السعادة قطميرا، وها هو ذا رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أكبر وأغنى وأقوى دولة عصرية يحاصره الشقاء، ويجري وراءه الخزي، وتفضحه كل صباح وسائل إعلام ما عرفت يوما الحياء، ويذكر هو أنه عاش حتى الأربعين في قلق وانقباض حتى كان يفكر في الانتحار.

فماذا كان مخرجه من هذه التعاسة؟ إنه الخروج المدمر الذي ظن به أنه يحوز متعته ويقضي نَهَمَهُ في أي وقت شاء طلبا للسعادة، فلم يحقق لنفسه غير الإيذاء والشقاء، وتطاول عليه الصغير والكبير والعظيم والحقير. ومثل هذا الرئيس في حيرته وشقائه بعض الذين بعدوا بأنفسهم عن الدين في عالمنا العربي والإسلامي، أما أمثاله في عالم الغرب فلا يحصون كثرة، ولذا فإن القلق والضيق والضياع والتشرد أمور منتشرة في حياتهم رغم كثرة أموالهم، وتعاظم نفوذ دولهم، فذلك لا يجدي ولا ينفع إن ضاقت

الصدور، وضاعت معالم الطريق، واعتبر الإنسان ذاته إلهًا، فلم يعرف عبودية، ولم يسبح الله أو يحمده في بكرة أو عشية.

جـ. عروض كثيرة:

إننا نبحث عنها والعروض أمامنا كثيرة، والمعارض متعددة، ولكنها تعرض الزيف والزور، لأنها تعرض متاعا قد يخلف الشقاء، ويلقي أصحابه الغيَّ ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ ﴾[1] إن الدواء المغشوش لا يشفي من الأسقام، وإن الطعام الفاسد لا تصح معه الأبدان، وإن الشهوة المحرمة والمتعة المزيفة لا تزيل التعاسة، ولا تذهب ضيق الصدور وكمد القلوب، فما الذي يذهب ذلك كله؟

أخي القارئ، أخي المحب، أختي المسلمة، إن كنتم تبحثون معي عنها وتجدُّون في البحث فإني بها خبير، وسأخبركم خبرها، وأدلكم على معرضها وطريقها، وهناك ستجدونها غير بعيدة عنكم، لا تخفى عليكم. وسترتوي منها قلوبكم، وتظل ناضرة بها حياتكم، تتقلب الأحوال وأنتم ثابتون، ويشقى الناس بالمتاع الزائف وأنتم تسعدون بحقائق الحياة وبسلوككم الطريق الموصلة إلى النعيم في دار القرار.

إن السكينة والسعادة طريقها حسن الصلة بالله، والتعامل الصحيح مع آيات الله وأسمائه وصفاته، والثقة فيما عنده، والطمع في رحمته، والخوف من عذابه، والرجاء في عفوه، واستصحاب ذلك للنفس، لقد سمع أحد الصحابة الرسول ﷺ يقول: «لقد ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غِيَرِهِ فلان» قال رزين: قلت يا رسول الله، أويضحك الربُّ؟ قال «نعم». فقال ذلكم الصحابي: لن نعدم من رب يضحك خيرًا[2].

ووجد آخر من الصحابة نفسه في آخر الركب لا يأبه به أحد، فعلم أن له ربا يرفع ويخفض، ويعطي ويمنع، ويقسم الأرزاق بين عباده بما جرى في علمه، فاتجه إلى الله بالدعاء أن يرفع درجته في الدنيا والآخرة، فعل ذلك وهو راض بقضاء الله وقدره،

---

(١) مريم: ٥٩.

(٢) أخرجه ابن ماجة (١٨١)، وضعفه الألباني، وأحمد (٤/ ١١) وضعفه شعيب الأرناؤوط.

مستسلم لأمر الله غير ساخط ولا غاضب، فَلان قلبه وشعرت بالطمأنينة نفسه، ونال الرضا والسكينة بما حباه الله وأعطاه.

وضاق آخر فاتجه إلى الله بالتهليل والتسبيح والدعاء فاستجاب الله دعاءه، وأذهب كربه، وفرج ضيقه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾[1] ورابع اجتمعت عليه الهموم فضاق بها ضيقا شديدا ولم يجد مخرجا فالتجأ إلى كتاب الله يرتل آياته، ويتأمل فيه، ويأخذ لنفسه عظات وعبرا، يقرأ ويرتل ويجمل صوته بالقرآن، فإذا الضيق يزول، وإذا الأسارير تنبسط، وإذا النفس راضية، والسكينة بادية، والسعادة قريبة ظاهرة.

إنها هدية أقدمها إلى الأحباب، هدية ناصح إلى نفسه وإخوانه، من أجل تحقيق سلامة الصدر وطمأنينة النفس وسكينة الفؤاد، لنأخذ بعد ذلك في التفكير والإبداع والعمل والإنتاج.

*****

(١) الطلاق: ٢، ٣.

ثالثاً:
سياسة التعامل مع مستجدات المشروع الإسلامي

١ ـ الحكمة في التعامل مع المصالح والمبادئ:

إن الصحوة الإسلامية كانت ولا تزال نعمة من الله سبحانه على الأمة الإسلامية، بل وعلى البشرية كافة ـ رغم ما يقال عنها ـ مما يحاوله البعض لينفروا الناس من الدين، ولسنا ندعي شيئًا بغير دليل، فكم من تائه ضال أرشدته إلى الهدى، وكم من عاجز ساعدته، وكم من كسير جبرته، وكم من فكر سددته، وما ذاك إلا لأن العاملين فيها، والداعين إليها، يتبعون منهج الله، ولا يتعدون عنه، جريًا وراء الهوى والغرض والرغبة، إنهم ملح الأرض وبهم حفظ الله البشر من الهلاك: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾[1]. وهم مع ذلك كله ليسوا ملائكة، بل هم لم يفارقوا دائرة البشرية، المعرضة للخطأ والصواب.

وتظل كلمة الحق شاهدة لهم بالصواب والاستمرار، أو ناصحة لهم بما قد يكون منهم أحيانًا، ونحن ـ مع ذلك ـ نعلم أن الكلمة الصادقة تصل إلى القلوب؛ لأنها نابعة من قلب مخلص، وقديمًا قيل: ما خرج من القلب وصل إلى القلب، وما خرج من اللسان لم يجاوز الآذان.

ومن هذا المنطلق نطرح بعض المفاهيم:

على أبناء الصحوة الإسلامية أن يثبتوا للعالم أنهم يستطيعون التعامل مع جميع الدول على أساس من المصلحة، وهم في ذلك يقدرون مصلحتهم ومصلحة غيرهم في ضوء شريعتهم الربانية، التي لا تأبى أن يتبادل المسلمون المصالح مع غيرهم من غير ظلم من طرف للآخر، وقد عاش المسلمون في المدينة يتعاملون مع غيرهم ممن ليسوا على دين

---

(١)هود: ١١٧.

الإسلام تعاملاً قائمًا على المصلحة المشروعة في البيع والشراء والأخذ والعطاء، وكان المسلمون يَغْشَوّن الأسواق التي يغشاها المشركون واليهود وغيرهم، وتعاملوا، بعد ذلك ـ مع أبناء الأمم الأخرى من غير أن يفرضوا عليهم مبدأ معينًا ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[1].

وعلى مدى التاريخ كان هناك تعامل بين المسلمين وغيرهم تتبادل فيه المصالح من غير أن تفرض فيه المبادئ، وهذا أمر لا تخلو منه فترة من فترات التاريخ، وليس معنى هذا الكلام أن تخلو المصلحة من ضوابط الشريعة، بل إننا نقول: إن مصلحة خالية من ضوابط الشريعة لاخير فيها ولا بقاء لها، ونقول كذلك: إنه لا خوف على الإسلام من هذا التعامل، طالما تمسك المسلمون بشريعتهم وجعلوا مصلحتهم خاضعة لدينهم.
وأبناء الصحوة الإسلامية مدعوون اليوم قبل غيره ليعرفوا العالم ويثبتوا له أنهم يتعاملون معه من منطلق مصالح بمصالح لا من منطلق مصالح بمبادئ.

وإذا ما اتفقت مصلحة الإسلام في وقت من الأوقات مع مصلحة جهة ما غير مسلمة، فهل نلغي مصلحة الإسلام لأن جهة أخرى ستستفيد من نفس المصلحة؟

إن رائدنا وأساس عملنا هو الإخلاص للإسلام والوعي بالمتغيرات من حولنا، وإدراك مصلحة الإسلام والمسلمين والعمل على تحقيقها، وإن استفاد من ذلك بعض الآخرين.

٢ ـ قراءة في فكر حماس وصراعها مع السلطة الفلسطينية:

مع بداية إيجاد دولة عربية إسلامية في فلسطين، تبدأ بلورة عمل إسلامي حركي، له خطابه الإقليمي الخاص إلى جانب خطابه الإسلامي العام، وذلك في إطار حدود سترسم، وتحدد بشكل نهائي في آخر مطاف الانحدار التفاوضي، الذي تسير فيه القيادة السياسية في فلسطين.

وليس يهمنا هنا الحديث عن الثورة أو الدولة الفلسطينية وتقييمها فهذا مما امتلأت

---

(١)البقرة: ٢٥٦.

به الأسواق، وهي في أحسن أحوالها ستكون ككثير من بلادنا العربية. ساقطة في التبعية الغربية سقوطًا كليًا أو جزئيًا، وهذه التبعية مآلها إلى الزوال، وتلك سنة كونية لا مجاملة فيها، وقد لا يحدث هذا في عقدنا الذي نعيشه ولكنه سيحدث عما قريب، ومن يقرأ الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي العالمي ـ اليوم ـ يدرك ذلك بوضوح.

والسؤال المطروح: من سيكون البديل بعد السقوط؟ وهذا السؤال هو الذي يجعلنا نبحث مبكرين عن المسار الحركي الإسلامي في هذه المولودة الجديدة، كيف سيكون؟. ولا أدَّعِي أني أرسم كيفية هذا الشكل، وهذه المنظومة، فأنا قاصر عن رسم هذه الصورة، بل إنى أخشى ـ إن رسمتها ـ أن يلحقها بعض التشويه مني، ولكني أتحدث عن هذه الصورة لأجعل أهل الاختصاص يفكرون فيها.

والفكرة التي تبرزها صورة هذا العمل الإسلامي تحمل حلمًا ماضيًا، وحاضرًا واقعًا، ومستقبلاً نستشرفه، وتتمثل جوانب هذه الصورة في النقاط الآتية:

أولاً: إن قدر الإسلاميين أنهم سيتحركون في مشروع إسلامي حضاري ملاصق لمشروع حضاري يهودي سبقهم في تأسيس الدولة من منطلق عقدي تلمودي، وإن الصراع بين هذين المشروعين الحضاريين قديم منذ عصر البعثة المحمدية وسيظل باقيًا إلى قيام الساعة: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود»[1].

ثانياً: إن الإسلاميين وإن كانت حركتهم فوق الأرض محددة بالحدود التي اصطنعت في «سايكس بيكو» أن لهم انتماءً دينيًا يمس كل المسلمين، ولذا فإن ممارستهم تفرض عليهم معادلة دقيقة أكثر من أي تجمع إسلامي آخر، يعمل من أجل مشروعه الإقليمي الإسلامي.

ثالثاً: إن الإسلاميين وإن جمعتهم الأطر العامة كالشمولية والعالمية والربانية، إلا أن لكل مجموعة منهم نظرة خاصة بناء على التنظيمات التي عاشوا فيها، فالذين نشأوا في أفغانستان غير الذين نشأوا في أميركا وأوربا، وهؤلاء غير الذين نشأوا في الأردن أو

(١)أخرجه البخاري (٢٩٢٦)، ومسلم (٢٩٢٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

تونس؛ لأن لكل بلد خصوصية.

رابعاً: إن التنظيم الذي بدأ داخل فلسطين سنة ١٩٤٨م ونما بعد نكسة سنة ١٩٦٧م أخذ يكبر ويمتد ليغطي جوانب الساحة في العمل الإسلامي الفلسطيني في إطار «حماس» التي استوعبت التنظيمات الفلسطينية في العالم العربي، وحسمت الجدلية القائمة في العمل الفلسطيني حول رفع شعار «فلسطين» وجعلها محور العمل، أم أن العمل في الإطار الإسلامي العام الذي يتحدث عن الخلافة هو الأولى والأحق؟ حسمت «حماس» هذه الجدلية وانخرط الجميع في محورها، وأثبتت بهذا أن ميادين الجهاد والعمل الجاد تقضي على الجدليات النظرية، وبالمناسبة فإن هذه الجدلية هي التي تقع فيها الحركة الإسلامية في أوساط الأكراد اليوم .

خامساً: إن النجاح الجهادي الذي حققته «حماس» في الضفة وغزة جعل للحركة إطارًا أكبر عشرات المرات من حجم التنظيم في الداخل. وهذا النجاح الجهادي الذي حققته حماس ليس جديدًا على الحركة الإسلامية عندما تكون المعركة واضحة معالمها بين الإيمان وبين الكفر البين الذي لا خلاف فيه.

سادساً: إن الحركة الجهادية أظهرت رمزًا إسلاميًا له مرجعية ضاغطة، تعتبر صمام أمان لوحدة وتماسك الصف الداخلي في حماس، وهذا الرمز الإسلامي هو الشيخ: أحمد ياسين.

سابعاً: إن التعايش الطويل والتمازج بين الكيان الحركي الإسلامي الأردني الفلسطيني، أعطى روح الأبوة من السابق إلى اللاحق، أو قل:من الكبير إلى الصغير.

ومن هذه المعطيات السابقة تظهر لنا استحقاقات تفرض نفسها على الساحة، لابد من التعامل معها ونحن نتحدث عن الحركة المستقبلية في الوضع الجديد؛ لأن البداية ستحدد المسارات القادمة وستنهي كثيرًا من الإشكالات التي كثيرًا ما تقع فيها بعض الحركات الإسلامية.وهذه الاستحقاقات التي نستشفّها هي:

الأمر الأول: أن العمل الجهادي والمقاومة السرية لهما بعض الآثار السلبية، التي لابد

من استيعابها والتعامل معها بواقعية، ومن هذه الآثار السلبية خروج البعض من حركة حماس، الذي تمثل في ثلاث صور:

(أ) العملاء الذين سقطوا في حبائل اليهود في السجن، حيث استغلهم اليهود بوسائلهم الخبيثة والخسيسة أعظم استغلال، ولليهود وسائل لا يتصورها إنسان في عملية التجنيد حتى يكون هؤلاء المجندون عينًا ساهرة بل عينًا فاحصة لليهود، مشروطًا تواجدها في إطار الزعيم المفاوض، والباحث في بطانة الرئيس الفلسطيني، يتبين كيف أبعدت قيادات وطنية لتحل محلها عناصر مصنعة.

(ب) القيادات التي يفرزها الاختلاف البشري في معظم الأعمال التنظيمية. وتتخذ مواقف من أشخاص القيادة ثم ينتقل الأمر إلى المؤسسة ومن هؤلاء الأخ: «خضر محجز» الذي كان له خلاف ـ حين كان مع المبعدين في لبنان ـ مع مسؤولهم الأخ: «عبد العزيز الرنتيسي»، ولعل إمكانات الأخ خضر الشرعية والقيادية جعلته يرى أنه لم يأخذ مكانه في قيادة حماس، وقد استطاع عرفات أن يسلمه «شرطة الآداب» من أجل حماية الأخلاق، وتحرك الرجل ومعه ١٠٠ أو أكثر من شباب حماس في إطار مشروع أخلاقي أوجده النظام. ومنهم كذلك الأخ: «عماد الفالوخي»، وكان مسؤولاً لمكتب حماس في غزة، مدة ستة أشهر أو أكثر إلى أن اعتقله اليهود، حيث استطاع عرفات أن يقنعه ـ بعد خروجه من المعتقل ـ بالمشاركة في العمل الوطني الإصلاحي في فلسطين.

(جـ) المجموعة ذات المراجعات الفكرية والحركية التي تظهر لها تصورات ومسارات لا تستطيع أن تنسجم بها مع مجموع القيادة، فتبدأ بالانعزال مع الاحتفاظ بمكانتهم الدينية وعدم التشكيك في نواياهم، ومن هؤلاء «خالد الهندي، إسماعيل هنية، وسعيد النمروطي» وهؤلاء ومن على شاكلتهم أعلنوا تجميد عضويتهم في مجلس الشورى «لحماس» في غزة، وأرادوا أن يلعبوا دور الحكماء بين السلطة وبين حماس، وأخيرًا رشَّحوا أنفسهم في انتخابات الحكم الذاتي بعد تمديد مدة الترشيح في اللحظات الأخيرة.وكانت وجهة نظر هؤلاء أن الاصطدام مع السلطة لا يجدي، خاصة وهي

تطرح مشروعًا وطنيًا وأن المشاركة فيه ستمنع من الاستمرار في التنازل والانهزامية التى لا تتوقف. وقد أوردت صحيفة الوطن في عددها الصادر يوم ٣/ ١/ ٩٦ نبأ سحبهم لترشيحهم وسواء مع هذا الخبر أم لا، فإن العبرة بعموم هذه الشريحة وليس بهذه الأسماء.

وتجميد هؤلاء لعضويتهم في حماس إنما مرجعه لأمرين:

الأول: أن لقاءهم مع مؤسس الحركة الشيخ: «أحمد ياسين» في السجن حدد مسار التعامل بثلاث نقاط:

(أ) أن القيادة المنتخبة هي التي تحسم النزاع.

(ب) أن العنف مع السلطة لا مبرر له.

(جـ) أن قيادة «حماس» تتمثل في الداخل والخارج.

الثاني: أن نتيجة الانتخابات الداخلية لحماس أفرزت ما يسمى بالصقور في التعامل مع السلطة.

الأمر الثاني: ضرورة الاستفادة من المكاسب التي حققتها الحركة من خلال عملها الجهادي، إذ إن الحركة أنضجت الكثير من العناصر البشرية كأفراد دأبهم الإخلاص والتضحية والفداء؛ وذلك لاشتغالهم بالعمل الجهادي وتخففهم من أثقال الأرض وقربهم من الآخرة. كما أنضجت الكثير من المؤسسات الشعبية الإغاثية والتربوية والتي يمكن الاستفادة منها في مشروع الحركة في الواقع الحديث.

الأمر الثالث: الاعتراف الرسمي والشعبي الذي استطاع التواجد الإسلامي أن يحققه. فعلى المستوى الشعبي، فإن الاستجابة الشعبية العارمة للنداءات التي تطلقها حماس للشعب في الضفة وغزة خير دليل على ذلك، أما على المستوى الرسمي فالمفاوضات التي تمت في القاهرة بين ثلاثة عشر عضوًا من السلطة ومثلهم من حماس تثبت ذلك.

وفي ظل هذا العرض الموجز لمسيرة الحركة، فإننا نخلص إلى ضرورة أخذ

الاعتبارات التالية بالحسبان في مسيرة الحركة في المستقبل:

١ ـ إن على الحركة الإسلامية أن تُطَوِّرَ نفسها بآلية سريعة لا تحتاج إلى قرارات تنضج على نار تنظيمية فاترة. فطبيعة الأرض والقضية تتطلب الحركة السريعة والقرار المناسب في وقت الحاجة إليه.

٢ ـ إن الحركة التي نمت في سنوات محدودة بصورة اتسعت لعشرات الآلاف لابد لها اليوم أن تطرح نفسها من خلال حزب سياسي يستفيد من الرصيد الضخم الذي أفرزه العمل الجهادي والإغاثي العام، ولا حرج حينئذ في بقاء التنظيم عند ظهور حركة حماس، فقد استوعبت الحركة الإسلامية في انطلاقتها أن العمل الجهادي يحتاج إلى إشراك جموع المجتمع في مشروع مقاومة المعتدي، ولذلك فقد خرجت من الإطار التنظيمي السري إلى الكيان الجهادي العام الذي أخرج قيادات فذة، صغيرة في سنها، كبيرة في عطائها، حيث استوعب هذا العمل كل الطاقات، بالإضافة إلى أنه فجر طاقات كامنة في عامة أفراد الشعب.

٣ ـ بعد أن تبلورت لدى الحركة مسألة تشكيل الحزب «حيث إنها طرحت نفسها في اسم مبدئي هو حزب «الخلاص الوطني الإسلامي»ـ كما أعلن في كثير من الصحف ـ، فإنه لابد للحركة أن تنقل حركتها الآلية بين الجماهير كما فعلت في «حماس» المقاومة، حتى تستطيع أن تستوعب الشعب بمجمل فئاته في العمل للمشروع الإسلامي في فلسطين. حتى لا يصبح الحزب مجرد تشكيل للجنة سياسية للحركة أو التنظيم، فإنه حينها يخشى أن تكون نهايته ليست بأفضل من جبهة العمل الإسلامي في الأردن والتي ليس لها ـ مع الاحترام للجميع ـ من حقيقة الجبهة إلا الاسم، وحينئذ تكون تسمية الأشياء بأسمائها أدعى إلى التعامل الصحيح المنتج، وأدعى إلى التفاعل والإنتاجية مادام هناك اقتناع بالفكرة والهدف.

٤ ـ لا غنى للحركة عن الثقة برجالها وفكرها ومنهجها، حيث إن النجاحات الكبيرة تعتمد على عنصر الجرأة المبنية على الثقة، ونحن نتصور أن هذا العنصر متوفر في

الحركة الجهادية، وخير دليل على ذلك نجاح المقاومة التي قامت بها حماس وقت الاحتلال، وهذا يتيح لها الانفتاح على الناس دون تردد. وأبرز مثال على ذلك تجربة الحركة الإسلامية في السودان التى بدأت تنظيمها ودخلت في حركة جهادية في جزيرة «أبا» ثم دخلت في جبهة عمل عام مع الإبقاء على الثنائية في الانتماء، ثم انتهت الثنائية في علم جبهويّ أدى إلى وجود مشروع إسلامي من خلال دولة. وما كانت هذه التنقلات المندرجة لولا جرأة العاملين وثقتهم. وليس هذا تقويمًا للعمل على أنه صواب أو خطأ، ولكن أضربه مثلاً للتفكير السياسي المبني على الجرأة والثقة التي تكونت بناء على مبررات واضحة، أفرزت قرارات جريئة لا تقتل في حوارات وجدليات وتخوفات.

٥ ـ لابد أن تستفيد حماس من نزول بعض الإسلاميين المستقلين في انتخابات السلطة الفلسطينية، فكما استفادت السلطة من هذه المشاركة، حيث تخلصت من الحرج الأمريكي الإسرائيلي الذي يضغط عليهم؛ لتكتمل الديمقراطية بتنوع المشاركة ليكتسب التطبيق شرعيته، واستفادت كذلك من إبعاد حماس عن الانتخابات لما يسبب ذلك من إزعاج للسلطة، فإن على حماس أن تستفيد من وجود أناس في السلطة يؤمنون بالمشروع الإسلامي ولا يقبلون غيره مما يناقضه.

٣ــ الواجب والممكن في التطبيق على أرض الواقع:

اتفق الأئمة والفقهاء على وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقًا تامًا كاملاً شاملاً، ما لم يكن هناك حائل يمنع من الأخذ بهذه الصورة من التطبيق، حينئذ يأخذ المسلمون بما هو متاح مستطاع، ويتركون ما لا يستطاع لما فيه من حرج أو مشقة وعنت أو ظهور فتنة، أو وجود منكر أشد، أو غير ذلك مما ينبغي النظر فيه من الأخذ بالمصلحة العامة، في ضوء الموازنات بين المصالح بعضها البعض أو بين المفاسد بعضها البعض أو بين المصالح والمفاسد.

وحين نفعل ذلك نضع أمام بصائرنا دقة فهم الإمام ابن تيمية حين مر على جماعة

من التتار وقد سكروا، وأناس يحاولون أن يوقظوهم من سكرهم، فأمرهم بتركهم، وعلل ذلك أن الخمر حرمت؛ لأنها تلهي الناس عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء التتار حين يسكرون تلهيهم الخمر عن القتل والفساد. فالخمر هي الخمر وحرمتها لا شك فيها، ولكن الإمام ابن تيمية رأى أن المصلحة العامة للمسلمين تتحقق حين يغيب هؤلاء التتار عن وعيهم بسكرهم، فليكن ذلك ليبوء المخالفون بالإثم، وينعم المسلمون ولو قليلاً بالأمن والأمان. وهذا بغير شك إنما كان في وقت غير مستطاع فيه اتقاء شر التتار أو دفع أذاهم.

وكلما عجز المسلمون عن دفع الشر عنهم أو اتقاء الإيذاء الموجه إليهم، كان لهم في مثل هذا الفهم ملاذ ومخرج من الفتن التي تطل عليهم، أو المفاسد التي قد تلحق بحياتهم وخاصة حين تكون قدرة المسلمين غير مكتملة، أو حين يغيب عنهم جانب من جوانب فهم القضايا، أو حين تكون ريح الأعداء أقوى من بأس المسلمين، أو بالأحرى حين تكون مصلحة عامة المسلمين الراجحة تتطلب الأخذ بجانب من الجوانب دون الآخر أو ترجيح رأي على آخر.

وهذا ما قرره معاوية ـ رضى الله عنه ـ حين أعلن على المسلمين عام الجماعة أنه ليس أفضل من يتولى أمور المسلمين، لكن المسلمين تحت إمرته لن يعدموا أن يجدوا فيها خيرًا لهم ونفعًا، قال: «إني لست بخيركم، وإن فيكم من هو خير مني عبد الله ابن عمر، وعبد الله بن عمرو وغيرهما من الأفاضل، ولكني عسيت أن أكون أنكاكم في عدوكم، وأنعمكم لكم ولاية، وأحسنكم خلقًا» (١).

وحين وجد الحسن بن علي ـ رضي الله عنه ـ أن إقامة سلطان الخلافة على الوجه الذي كان عليه أيام الخلفاء الراشدين غير مستطاع؛ لأن النفوس تغيرت، بعد أن جاء جيل ليس له نفس الخصائص والسمات التي كان عليها الصحابة الأولون، حين رأى الحسن ذلك آثر أن يتنازل عن الحكم لمعاوية، في سبيل أن يصلح بين فئتين عظيمتين من

(١)تاريخ الإسلام للذهبي ـ عهد معاوية ـ (١/ ٥٤٧).

المسلمين، وأن يحقن دماء الجميع، حتى لا يقتل مسلم مسلمًا... وقد عبر عن ذلك بنفسه في قوله يخاطب جزءًا من المسلمين: «ما ثنانا عن أهل الشام شكل ولا زيغ، لكنكم كنتم في منتدبكم إلى صفين، ودينكم أمام دنياكم، فأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم».

فحين تغيرت نفوس الناس، ورأى الحسن منهم حرصهم على الدنيا، وعدم تقديم دينهم على دنياهم، فَضَّل ما هو ممكن متاح وهو حقن دماء المسلمين، وتحقيق جماعتهم، ولو تولى الحكم من تولاه، ولم يتمسك الحسن رضي الله عنه برأيه، مع أن الحق معه، وهو أولى بالحكم من غيره لاعتبارات كثيرة، ولكنه أعلن ذلك فيما رواه عنه عبد الرحمن ابن جبير عن أبيه، قال: «قلت للحسن: إنهم يقولون إنك تريد الخلافة»، فقال: «قد كانت جماعة العرب في يدي يحاربون من حاربت ويسالمون من سالمت، تركتها - أي طلب الخلافة - ابتغاء وجه الله، وحقن دماء الأمة». على أن هذا الأمر - أمر النظر إلى مصلحة المسلمين - لم يقف عند هذا الحد، فإن الحسن ومعاوية رضي الله عنه صحابيان، فأين منهما يزيد بن معاوية. ومع هذا حين تولى أمر المسلمين، نظر عقلاء الأمة إلى مصلحة الأمة، وبصرف النظر عن كون مثل يزيد في سيرته هو الذي يتولى أمرها ويسوس شؤونها، ويصرف أمورها، قال حميد بن عبد الرحمن دخلنا على بشير - وكان صحابيًا - حين استخلف يزيد، فقال: «تقولون: إنما يزيد ليس بخير أمة محمد ﷺ، لا أفقه منها فقهًا، ولا أعظمها فيها شرفًا؟ قلنا: نعم، قال: وأنا أقول ذلك، ولكن لأن يجمع الله أمة محمد ﷺ أحب إلي من أن تفترق»[1].

فاجتماع الأمة ولو حكمها يزيد أحق من تفرقها حين يحكمها غيره وإن كان أفضل منه. النظر إذًا إلى أقصى ما هو ممكن متاح الأخذ به في غير مضرة ولا فتنة يخشى منها على الأمة، فاجتماع الأمة على من هو أفضل من يزيد خير وأولى، ولكن: من يضمن ذلك؟ والأمر في عمومه ينظر فيه إلى القدرة، فإذا قدرت الأمة على الوصول إلى أعلى

(١) الطبقات لابن سعد (٧/ ١٤٧)، وتاريخ خليفة بن خياط ص ١٦٤.

المستويات ثم تقاعست عن ذلك فقد ارتكبت إثـمًا، وحملت على كاهلها وزرًا، وإن عجزت عن تحقيق بعض الأمور انتفى عنها الإثـم، إذ الأمر أولاً وأخيرًا مشروط بالقدرة كما قال الإمام ابن تيمية: «إن السلطان نوعان»:

الأول: سلطان الحجة والعلم:

وهو أكثر ما سمي في القرآن سلطانًا، حتى روي عن ابن عباس رضي الله عنه: «أن كل سلطان في القرآن، فهو الحجة».

والثاني: سلطان القدرة:

والعمل الصالح لا يقوم إلا بالسلطانين، فإذا ضعف سلطان الحجة كان الأمر بقدره، وإذا ضعف سلطان القدرة كان الأمر بحسبه، والأمر مشروط بالقدرة على السلطانين، فالإثم ينتفي عن الأمر بالعجز عن كل منهما»[1].

وهذا الذي قرره شيخ الإسلام، هو عين الحكمة، حين تضعف الأمة، وتعجز عن أن تقوم بما يجب أن يكون، فلا أقل أن تقوم بما تستطيع القيام به غير مدخرة وسعًا في سبيل ذلك، أما أن يترك الأمر كله، ويحجم عنه جميعهم، فهذا هو الخطأ بعينه، فمن لم يستطع التطهر بالماء تيمم، ومن لم يستطع الصلاة قائمًا صلَّى كيفما استطاع، ومن عجز عن الجهاد بنفسه جاهد بماله، ومن عجز عن الاثنين فلا جهاد عليه.

وكثير من القواعد الشرعية تسلك هذا المسلك وتسير هذا المسار، والأمر في حاجة إلى رجال فقهاء يرشدون الأمة ويبصرونها ويسلكون بها كل سبيل مستطاع من غير تفريط ولا إفراط، حتى يأتي زمان ورجال يحقق الله بهم كل آمال المسلمين في الأخذ بكل ما يجب، والتمسك بالعزائم الكبرى التي تحيي الأمم، وتأخذ بيدها إلى الرقي والتقدم.

ولا نترك هذا المجال حتى نسجل ما قاله معاوية رضي الله عنه حين دخل المدينة بعد عام الجماعة، وعلا المنبر، فحمد الله، وقال: «أما بعد، فإني – والله – وليت أمركم حين

(١) مجموع الفتاوى (١٩ / ١٢٥)، دار الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض.

وليته وأنا أعلم أنكم لا تسرون بولايتي ولا تحبونها، وإني لعالم بها في نفوسكم، ولكن خالستكم بسيفي هذا مخالسة، ولقد رمت نفسي على عمل أبي بكر وعمر، فلم أجدها تقوم بذلك، وأردتها على عمل عمر فكانت عنه أشد نفورًا، وحاولتها على مثل سنيات عثمان، فأبت عليَّ، وأين مثل هؤلاء هيهات أن يدرك فضلهم أحد من بعدهم؟، غير أني سلكت طريقًا لي فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكن فيه مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة ما استقامت السيرة، وحسنت الطاعة، فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه، فقد جعلته دبر أذني، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله، فارضوا بعضه، فإنها ليست بقائبة قوبها[1]. [ومعنى ذلك: أن انفصال المسؤولين عن الشعب أمر صعب لا يمكن قبوله]، وأن السيل إن جاء تترى، وإن قل أغنى، وإياكم والفتنة، فلا تهموا بها فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة، وتورث الاستئصال، وأستغفر الله لي ولكم، ثم نزل[2].

*****

(١)أي تخلصت بيضة من فرخ، يضرب لمن انفصل عن صاحبه ـ القاموس المحيط باب الباء فصل القاف.
(٢)تاريخ الإسلام ٤/ ٣١٢.

رابعـــــــاً:
قراءة في تاريخ الدعوة القديم والحديث

١ - استمرارية الدعوة في الخارج والداخل:

أ- تنمية العمل الإسلامي:

لا يختلف عاقلان على ضرورة استمرار العمل الدعوي في البلاد غير الإسلامية، سواء كثر فيها المسلمون أم قلوا، على ألا يقتصر هذا العمل - ما أمكن - على المسلمين وحدهم، بل يمتد - في حدود الاستطاعة - إلى غير المسلمين، إذ إن تبليغهم دعوة الله التي لم تشبها شوائب التحريف أو التبديل والتغيير هدف في ذاته، يسعى إليه المسلمون في أي أرض.

ولسنا متجاوزين الحق حين نعلن في وضوح أن العمل الدعوي واجب حتى في البلاد الإسلامية ذاتها وبين المسلمين أنفسهم، لأن هذا هو منهج الإسلام، وإلا ففيم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ وفيم الدين النصيحة؟ وفيم أوجب الإسلام خطبة الجمعة على المسلمين، وهي تذكير بمبادئه وقيمه، وبيان لفضائله وأخلاقه وأحكامه وآدابه، ورد لأباطيل وأضاليل الناكبين عنه، المدعين عليه ما لم يقل به؟

إنَّ العمل الدعوي ضرورة في البلاد الإسلامية وغيرها، ولسنا - الآن - بصدد الحديث عن العمل الدعوي في البلاد الإسلامية «أمة الإجابة» وإنما نحن نتحدث عن العمل الدعوي في البلاد غير الإسلامية «أمة الدعوة» التي يجب أن يستمر فيها هذا العمل وأن يمتد، حتى وإن كلفنا ذلك من الجهود الكثير، ليكون هذا معذرة إلى الله، ولنكون سائرين على منهج رسول الله ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ (1) ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ

---

(١) النساء: ١٦٥.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[1]، بعد أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

فلا يكفي أن يدخل الناس في دين الله وحداناً أو زرافات، بل لابد من متابعتهم وتعليمهم أسس هذا الدين، وهذا يستلزم بقاء الدعاة العاملين، ليتموا ما بدؤوه، ويكملوا بناء ما أسسوه، وأن يظلوا وسط العقبات والمعوقات التي تحدثنا عن بعضها في المقالة الماضية، مما يجعل دعمهم ومساندتهم أمراً لا مجال فيه لحديث ولا موضع فيه لأخذ ورد.

ولست أعني هنا دعمًا ماديًا، فذلك آخر ما يتجه إليه العاملون في الدعوة الذين يدخرون حسابهم عند ربهم، وإنما أعني الدعم الروحي والمعنوي والتواصل الأخوي، المبني على التقدير لهؤلاء الرواد من الدعاة، الذين يعملون في ظروف غير مهيأة ويواجهون تيارات مادية خطيرة ليس من السهل التغلب عليها، ويكفي هؤلاء ما يلقون من عنت ومشقة في المجتمعات التي يعيشون فيها، ولذا فإن محاولة الوصاية عليهم من الجهات التي تحتضنهم في البلاد الإسلامية مرفوضة شكلاً وموضوعاً، إذ ينبغي أن يكون عملهم منبعثاً عن الدوافع الذاتية، التي يبغي أصحابها رضا الله وطلب مثوبته، دون أن يصدهم أو يثنيهم عن هذه الغاية ضغط من هنا أو من هناك.

وواجب أبناء المشروع الإسلامي في بلاد المسلمين أن ينموا في إخوانهم ـ في غير البلاد الإسلامية ـ الدوافع الذاتية نحو العمل الإسلامي، لا أن يقفوا منهم موقف الرقيب، الذي يثيب إن رضي، ويعاقب إن سخط أو غضب، فلو ارتبط العمل الدعوي بمثل هذه الأمور لكان مرتبطاً بالأهواء والرغبات، ولأمسى أقرب إلى العمل الحزبي منه إلى العمل الإسلامي، وإنه من الواجب علينا أن نساند إخواننا الذين خلفوا من ورائهم أرضهم وربما أموالهم، واتجهوا إلى تلك البلاد عاملين داعين، وقد نرضى عن كثير مما يعملون، ولا نقبل بعض ما يعملون دون أن يؤثر ذلك على الإطلاق في حبنا

(١) آل عمران: ١٦١ .

لهم، وتقديرنا لدورهم ومساندتنا لحقوقهم، ودفع كل ما يعيق حركتهم ـ إن استطعنا ـ ولو بالدعاء، فذلك واجب علينا نحوهم، وإن لم نقم به كنا نحن المقصرين في إيجاد كيان مؤيد للحركة الإسلامية في البلاد البعيدة، إذ لا أحد ينكر دور الكيانات ـ ولو كانت صغيرة ـ في تلك البلاد.

ويكفي أن نذكر بالدور اليهودي في أي بلد من البلاد الغربية التي لا يمثل اليهود فيها نسبة عددية تذكر، ولكنهم يمثلون ضغطاً هائلاً لصالح إسرائيل في تلك البلاد.
فلماذا نقوم ـ نحن ـ بعكس ذلك، حين نمثل ضغطا هائلا على العاملين للإسلام هناك بدلاً من أن نكون لهم سنداً ونصيراً، ليمثلوا هم ـ بأنفسهم ـ هذا الضغط لصالح المسلمين في البلاد التي يعيشون فيها، وبخاصة أن الممثلين لهذه الدعوة الإسلامية ـ إن صدقوا ـ اتجهت إليهم النفوس، ومالت نحوهم القلوب، لما يفرضه عليهم الدين من إيثار وأمانة ووفاء وصدق، وغير ذلك من أخلاق الإسلام التي تجعل من تشربها قلبه وتمكنت من نفسه إنساناً يحبه الآخرون أو على الأقل يحترمونه، وإن لم يحبوه، ويقدرونه وإن لم يتبعوه؟

إن محاولة الهيمنة في صورها المتعددة التي ترد على الحركة الإسلامية في بلاد الغرب، تصيب العاملين هناك بشيء من الإحباط، فتفتر هممهم، ويقل عزمهم، ويضعف إنتاجهم، ويشعرون أنهم يعملون في حقل الدعوة من أجل فلان أو فلان، أو هذه الجهة أو تلك من التي لها صوت أو صدى في الساحة الإسلامية، وإذا وصل العمل الدعوي في أي مكان إلى هذه المرحلة، فإنه يصبح مهددا بالتوقف في أي لحظة، لغياب الدافع الذاتي، ولتغيير الهدف من أن يكون في سبيل الله وحده، إلى أن يكون من أجل خواطر هيئات أو مؤسسات، فيفقد العمل روحه ويظل يضمر إلى أن يموت.

فمن يتحمل ـ أمام الله ـ هذا الوزر؟

إننا نطلب من إخواننا العاملين هناك أن يكون عملهم في سبيل الله وحده، ونطلب من إخواننا العاملين هنا أن يكون تأييدهم وسندهم لعمل هؤلاء هو كذلك في سبيل

الله وحده، ولنترك لهم حرية اختيار الطريق المناسب للبلاغ الدعوي، فأهل مكة أدرى بشعابها، وليكن رأينا رأياً استشارياً لا يحمل صفة الإلزام وإلا ضاع هباء وعاد سراباً.

ب ـ منطقة متوترة:

لم تكن الأزمة التي مرت بالخليج في الأيام والأسابيع الماضية هي الأولى من نوعها، وأحسب أنها لن تكون الأخيرة، لما تتمتع به المنطقة من نعم أفاضها الله عليها، نعم جعلت أبناء هذه المنطقة من المتمتعين بمكان بارز بين الدول التي تعد من بين أصحاب الدخول العالية، مما جعل لعاب بعض الناس يتحلب وشفاههم تتلمظ للحصول على بعض هذه النعم بطريق أو بآخر، فكان كيدهم وكان تدبيرهم إلى جانب الحسد من بعض الأقربين في الجوار، والجهل من بعض المسئولين في المنطقة بما يدبر لها، ويحاك في الخفاء لتكبيلها، والاستيلاء على بعض خيراتها.. إلى غير ذلك من الأسباب التي جعلت من هذا الخليج منطقة ملتهبة منذ قرابة عقدين من الزمان، ما تكاد النيران فيه تهدأ حتى تشب من جديد، دون أن يخمد أوارها، أو ينطفئ جمرها.

من هنا نظن ـ وبعض الظن إثم ـ أن هذا التوتر مقصود، وأن الشد والجذب والتلويح بالأمل في خلع الطاغية صدام، والتخويف من الألم الذي صاحب مرحلة التوتر الماضية وما تحدثه الأسلحة الكيماوية والبيولوجية والجرثومية وغيرها من الأسماء التي تحدث آلاما نفسية، وتثير زوابع معنوية، كل هذا أمر مقصود، ليكون بمثابة مقدمة تؤدي إلى نتيجتها المرتقبة في غير غضب ولا نفور.. فما هذه النتيجة؟

إن النتيجة المعلنة هي تدمير أسلحة الدمار الشامل، والسماح لمفتشي الأمم المتحدة بالوصول لأي مكان في العراق لتفتيشه، فأين إزالة الباغي من هذه النتيجة المعلنة؟ إنها ليست في الحسبان، فأولبرايت صرحت أن إزالة نظام صدام ليس هو المراد، وإنما المراد احتواؤه!!!

وكارتر أحد رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية السابقين صرح بأن الضربة ـ التي كانت متوقعة في حالة فشل مهمة عنان ـ لن تزيل صدام، بل إنها ستقويه وتدعمه.

وخبراء الاستراتيجية والعسكرية قرروا أن الضربات الجوية لا تقضي على جميع أسلحة الدمار الشامل، مما يجعلنا نتساءل: فيم كان التوتر الذي ساد المنطقة من بضعة أسابيع؟ وما جدواه إن لم يكن مقدمة لأمر قادم بعد شهور أو بعد سنين؟ ومن الكاسب من وراء هذا التوتر ومن الخاسر؟

جـ ـ تهمة عالقة بالجائرين:

والمستقبل كفيل بكشف الستار، ولن يتحقق هذا الكشف إلا بعد أن تختلف الآراء، وتتحكم الأهواء، ويضيع بين الرغبة والرهبة الحق والوفاء، ويشتجر الناس ويختلفون، ويتبادلون التهم ويزايدون حول استدعاء النصارى إلى الخليج، وإعطائهم فيه حق الوجود، ورفع رايتهم فوق مياهه، بحيث لا يمر شخص أو شيء أو عمل إلا من تحت هذه الراية، فإذا استقر الأمر على هذا النحو هدأت الأحوال، ولكن بعد أن تتدفق في جيوب الآخرين الأموال.

ونحن لا ننكر وجود الآخرين في الخليج، ولكننا نتساءل مع المتسائلين: ومن الذي استدعاهم؟ أهم الخليجيون أم العفلقيون؟ هل قرأتم أن الجيش الكويتي استولى على بغداد وشرد أهلها واختطف أبناءها، واغتصب نساءها، وسرق أموالها، وحرق آبار النفط فيها، وأبى إلا أن يعلن أن العراق جزء من الكويت تابع له، وأن الأرض يجب ألا يكون فيها دولة اسمها العراق؟ هل قرأتم أو سمعتم وشاهدتم هذا أو قرأتم وسمعتم وشاهدتم أن الجيش العراقي سنة ١٩٩٠م استولى على الكويت، وأزال اسمها من فوق الأرض، ولم يترك فيها صغيرة ولا كبيرة إلا ادعاها لنفسه، بعد أن شرد أبناءها، واختطف بعض شبابها، ونهب أموالها، واغتصب حرماتها، وأبى أن يخرج من فوق أرضها، أو يتزحزح عن كيانها، مدعيًا أنها جزء من العراق عاد إلى كله، وفرع عاد إلى أصله، فالتأم به الشمل، يا من تزايدون ألم تشاهدوا هذا؟ ألم تقرؤوه؟ ألم تسمعوه؟ ألم يعشه بعضكم؟ فماذا يفعل الكويتيون؟ وإلى أي وجهة يتجهون؟ وهم لم يتركوا بابا إلا طرقوه، ولا مسعى إلا سلكوه، لكي يعيدوا حقهم، ويسترجعوا بلدهم، ويحافظوا

على بعض ما في أيديهم..فكانت القوة الوحيدة القادرة على إرجاع هذا الحق إليهم هي قوة هؤلاء النصارى..أينكر أحد شيئا من ذلك؟ أتلومون الكويتيين على ما فعلوا وأنتم لم تذوقوا ما ذاقوه، ولم تكابدوا ما كابدوه؟ أليس جار السوء الذي ستدور عليه الدائرة يوما ما هو باعتدائه الآثم وفجوره الباغي وتجبره الذي أبى التراجع هو الذي دفع إلى ذلك، وماذا يفعل الذي اشتعلت النيران في بيته وأمسكت بثيابه إلا أن يمسك أقرب يد امتدت إليه، لينجو من النار؟ ماذا يفعل الغريق المستغيث إلا أن يتعلق بأقرب شيء فيه حياته؟ أم أنكم لا ترون غير هذه القشة التي قصمت ظهر البعير، دون أن تروا البعير تثقله الأعباء الجسام حتى كلَّ وأعيا فجاءت القشة التي قصمت ظهره؟

إننا غير منكرين وجودهم، ولكننا ننكر على غيرنا ألا يعرف حجتنا، وألا يقبل منطقنا، وهو منطق المستصرخ الذي لم يجد من يصرخه إلا هؤلاء، أفلو عادت لنا بلدنا وديارنا وبعض خيراتنا على أيديهم نقول: لا ونأبى، في الوقت الذي لا نجد عند غيرنا من إخواننا مأوى ولا نجد من بين البشر ناصرا ولا معينا؟ فلماذا التجني على الحق والتحامل على الصدق؟ ولماذا لا نسمي الأشياء بأسمائها، ونرى الحقائق بذاتها ثم نحكم لها أو عليها؟

د ـ مهمة التاريخ التي أضعناها:

إن التاريخ ـ في الحقبة الحاضرة ـ يعيد نفسه دون أن نستفيد من هذه الإعادة عبرة ولا عظة، ودون أن نأخذ لأنفسنا منه عظيم فائدة ولا جليل عائدة، كما يقول الإمام أبو شامة المقدسي في كتابه: الروضتين في أخبار النورية والصلاحية، ثم يردف ذلك بقوله: «وفي كتاب الله ـ تعالى ـ وسنة رسوله ﷺ من أخبار الأمم السالفة، وأنباء القرون الخالفة، ما فيه عبر لذوي البصائر، واستعداد ليوم تبلى السرائر، قال الله ـ عز وجل ـ وهو أصدق القائلين: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾[(١)]». ويستطرد: «وقد اختار الله ـ سبحانه ـ لنا أن

(١) هود:١٢ .

نكون آخر الأمم، وأطلعنا على أنباء من تقدم لنتعظ بما جرى على القرون الخالية، وتعيها أذن واعية، فهل ترى لهم من باقية، ولنقتدي بمن تقدمنا من الأنبياء، والأئمة الصلحاء، ونرجو بتوفيق الله ـ عز وجل ـ أن نجتمع بمن يدخل الجنة منهم، ونذاكرهم بما نقل إلينا عنهم، والمرء مع من أحب.. وإن الجاهل بالتاريخ راكب ظهر عمياء، خابط خبط عشواء، ينسب إلى من تقدم أخبار من تأخر، ويعكس ذلك ولا يتدبر، وإن رُدَّ عليه وهمه لا يتأثر، وإذا ذُكِّر فلجهله لا يتذكر»[(١)].

وأهمية التدبر في التاريخ وأخذ العبرة منه والعظة التي ذكرها أبو شامة أكدها وأصلها رائد علم الاجتماع ابن خلدون بقوله عن التاريخ في المقدمة: «فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا»[(٢)].

فهل استفدنا من التاريخ في حياتنا المعاصرة أو أننا نكرر أخطاء السابقين فيظلم بعضنا نحن ـ المسلمين ـ بعضا، ويغزو بعضنا بعضا، حتى نضطر للاستنجاد بغير المسلمين، فيأخذون بعض ما في أيدينا، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ[(٣)].

ألم يحدث ذلك مع مسلمي الأندلس إبان ملوك الطوائف؟ ألم يحدث ذلك مع المسلمين في الشام ومصر إبان الحروب الصليبية؟ يعتدي بعض المسلمين على جيران مسلمين فيستنجد هؤلاء بالنصارى لرد العدوان ومنع الطغيان، ثم ما لبث التاريخ أن

---

(١) انظر: الروضتين في أخبار النورية والصلاحية ص٢١،٢٠.

(٢) ابن خلدون في المقدمة .

(٣) في حديث أخرجه ابن ماجة (٤٠١٩) والبيهقي في الشعب (٣٣١٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « يا معشر المهاجرين، خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم، أعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التى لم تكن في أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم ». وإسناده حسن .

طوى الجميع في الأندلس، ونسأل الله أن يسلم وجه الأرض في الشرق العربي الإسلامي من أن يحدث فيه ذلك، فلا يستعين المسلمون فيه باليهود ولا يحتمون بهم ولا يوادعونهم ولا يتخذونهم أولياء.

هـ ـ صفحة من التاريخ:

إن ما حدث في الأندلس فيه الغناء لقوم يعتبرون لو كانت العقول مفكرة، والقلوب متدبرة، لقد كانت بلادهم ـ حتى بعد أن تقسمت دولا ـ ترفل في النعمة، فدب بينهم الحسد، واعتدى بعضهم على الآخر، فاستنصر بالنصارى فأعانوه.. لا لوجه الحق ولكن لوجه النفع، وظل المسلمون لا يتعظون ولا يعتبرون رغم القوارع التي تصيبهم أو تحل قريبا من دارهم حتى بادوا جميعا، وأصبحوا أثرا بعد عين، وصدق فيهم قول الشاعر الأندلسي:

النَّفْسُ تَفْزَعُ بَعْدَ ٱلْعَيْنِ بِٱلأَثَرِ   فَمَا ٱلْبُكَاءُ عَلَى ٱلأَشْبَاحِ وَالصُّوَرِ؟

وإليك ـ أخي ـ هذه الصفحة من تاريخ الأندلس:

«استولى بنو زيري على مالقة وقضوا على بني حمود عام ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م، ثم استطاع بنو عباد الاستيلاء منهم على جيان عام ٤٦٦هـ / ١٠٧٤م، فاضطر أمير غرناطة للاستعانة بقوات الفونش السادس ملك قشتالة، لكن المعتمد بن عباد أرسل وزيره أبا بكر بن عمار إلى الفونش السادس وعقد معه حلفا ضد غرناطة نظير خمسين ألف دينار، وكان ابن ذي النون أمير طليطلة قد توسط لدى الفونش حتى يرضى بمحالفة غرناطة، ويتمكن هو من الاستيلاء على قرطبة، وقد أراد الفونش أن يصعد الخلاف ويكرس العداوة بين المسلمين فحالف غرناطة، وترك ابن ذي النون يستولي على قرطبة عام ٤٦٢هـ، وكانت قرطبة في الواقع تحت سيطرة بني عباد».

ولما أسرع بنو عباد لإنقاذ قرطبة من يد ابن ذي النون، وكان كلاهما يستعين بالنصارى المرتزقة، أدرك الأخير صعوبة بقائه على حصار قرطبة وعاد إلى طليطلة، وانتهز بنو عباد الفرصة واستولوا على قرطبة من يد حلفائهم بني جهور، وإن كان ابن

عذاري يقول: إن ذلك تم باتفاق أهلها مع بني عباد، بسبب سوء سيرة عبد الرحمن الذي كان أبوه أبو الوليد بن جهور قد تنازل له عن حكم المدينة، وتم القبض على بني جهور، أما شيخهم أبو الوليد فقد اختبأ في مقصورة هو وبناته ونساؤه فاقتحمها عليه قوم من النصارى وجردوهم مما معهم، وتم نفيهم إلى جزيرة شلطيش، وهكذا انتهى ملك بني جهور في قرطبة على يد بني عباد عام ٤٦٧هـ.

وكانت علاقة أشبيلية بجيرانها من بني الأفطس حكام بطليوس سيئة أيضا، بسبب الصراع على مدينة لبلة التي تقع بينهما، وقامت الحروب بسبب ذلك، واستعان بنو الأفطس بحكام قرمونة، ولكن الهزيمة كانت من نصيبهم عام ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م، وقتل أمير قرمونة كما قتل عبيد الله الخراز صاحب بابرة وابن عم حاكم بطليوس، ونجا ابن الأفطس نفسه بصعوبة بالغة، وبلغ عدد قتلاه ما لا يقل عن ثلاثة آلاف، وكانت الخسارة كبيرة لدرجة أن بطليوس بقيت مدة من الزمن خالية من سكانها إلا من الشيوخ والأطفال والنساء.

وانتقم ابن الأفطس لنفسه من بني عباد بطريقة غير شرعية، لكنها تدل على روح العصر وعلى ما ساده من صراع لا يحكمه أي مبدأ من مبادئ الأخلاق، ذلك أنه في عام ٤٢٥هـ/ ١٠٣٤م سمح عبد الله بن الأفطس أمير بطليوس لجيش بني عباد أن يمر عبر أراضيه لقتال مملكة ليون، وأثناء عودته هاجمه ابن الأفطس بغتة، وقتل من جنود أشبيلية عددا كبيرا، وفر إسماعيل بن عباد ونجا من الموت بصعوبة، ومنذ ذلك الحين تأصلت العداوة والبغضاء بين بني عباد وبني الأفطس.

وكان هناك صراع بين بني ذي النون حكام طليطلة، وبين بني هود الجذاميين العرب حكام سرقسطة، ودانية (بعد أن استولوا عليها من علي بن مجاهد العامري) وطرطوشة (بعد أن مات صاحبها لبيب ثم مقاتل الفتى العامري)، وكان الصراع بين بني ذي النون وبني هود بسبب تنافسهم على امتلاك مدينة وادي الحجارة، ولما استولى عليها سليمان بن هود قامت قيامة المأمون بن ذي النون، واستعان بنصارى الشمال،

ودعته الضرورة أيضا إلى محالفة المعتضد بن عباد والدخول في دعوته لخلف الحصري المشبه بهشام عام ٤٣٦هـ.

إزاء ذلك استعان ابن هود بملك آخر من نصارى الشمال، واستطاع أن يعيث في طليطلة وأعمالها، وأن يدمر زرعها، فأرسل إليه أهلها يطلبون الصلح، فتظاهر ابن هود بموافقتهم إلى ما طلبوا، ثم لم يلبث أن سار هو وحلفاؤه من النصارى، واحتلوا مدينة سالم التابعة لبني ذي النون، وساعده على ذلك عبد الرحمن بن إسماعيل بن ذي النون الذي كان ينازع أخاه يحيى صاحب طليطلة في حكمها، ودامت الفتنة بين ابن هود وابن ذي النون من عام ٤٣٥هـ إلى آخر عام ٤٣٨هـ ولم تنته إلا بوفاة سليمان بن هود، ولما زال خطر سرقسطة عن طليطلة، بدأ أميرها يستعد لمنازعة ابن الأفطس صاحب بطليوس وبني جهور أصحاب قرطبة.

وما إن أحس بنو جهور بذلك حتى عقدوا حلفا مع أمراء بطليوس وأشبيلية ضد بني ذي النون أمراء طليطلة، وتحالف هؤلاء بدورهم مع بلنسية ومع قشتالة النصراني، واستطاعوا أن يوقعوا بقوات قرطبة، لكن العباديين أنقذوها واستولوا عليها حسبما تقدم، وعاد الطليطليون مهزومين عام ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م» [(١)].

وصفحة أخرى من التاريخ:

فإذا ما انتهينا من هذه الصفحة بحلوها ومرها وعدم أخذ العبرة من أحداثها انتقلنا إلى صفحة أخرى من المشرق (بلاد الشام ومصر) حيث نجد نفس الأحداث تقريبا مع اختلاف الشخصيات، «كان من أهم أسباب نجاح الصليبيين في احتلالهم للبلاد الشامية ما كان عليه المجتمع الإسلامي ورؤساؤه من التدابر، فقد كان النزاع سائدا في مجموع المشرق الإسلامي، إذ كان فاقدا للزعيم الذي يقوده لصد أي عدو يهاجمه، وقد سجلت المصادر الأدبية والتاريخية صورا محزنة من التدابر والتخاذل كان يتخبط فيها

(١) العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف – د.رجب محمد عبد الحليم .

المشرق الإسلامي، بينما العدو ينتزع المدينة بعد الأخرى، ولهذا نرى كثيرا من مؤرخي تلك العصور يشيرون إلى تلك الحالة بين حين وآخر بمثل هذه الفقرات:

١ـ بينما الإفرنج يحاصرون ويحتلون القدس كان محمد بن ملكشاه يحارب أخاه لأبيه بركياروق.

٢ـ ملك الإفرنج عكا من واليها.... هذا وملوك الشام مشتغلون بقتال بعضهم بعضا.

٣ـ توجه فخر الملك أبو علي بن عمار من طرابلس إلى بغداد مستنفرا لما حل بطرابلس وبالشام من الإفرنج، واجتمع بالخليفة المستظهر وبالسلطان محمود، فلم يحصل منهما على غرض.. وتم للإفرنج الاستيلاء عليها.

٤ــ ووصل المستنفرون إلى بغداد في رمضان، فاجتمع أهل بغداد في الجوامع واستغاثوا وبكوا، حتى إنهم أفطروا من عظم ما جرى عليهم، ووقع الخلاف بين السلاطين السلجوقية فتمكن الفرنج من البلاد.

«وهذه النقول مأخوذة من كتب المؤرخين الثقات: ابن الأثير ـ أبي الفداء ـ ابن الوردي»[1].

٢ ـ الاستعانة:

فإذا لم نستفد نحن ـ المعاصرين ـ من هذه الأحداث التي مر بها أسلافنا في تاريخهم فلماذا نقرأ التاريخ ولماذا نقرره في مدارسنا؟

وأولى الدروس بالاعتبار وأقواها عند الاستبصار، هو الركون إلى العدل والصدق، وتحقيق قول الله: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [2] وقوله سبحانه: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [3] وقولــــــه: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ

(١) انظر : الحروب الصلبية في المشرق والمغرب / محمد العروسي المطوي .
(٢) الحجرات: ٦.
(٣) النساء :١٣٥.

بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ [1] وهل من العدل أن يغتصب مسلمون أموال المسلمين وديارهم، وأن ينتهكوا حرماتهم؟ وهل من العدل حين يجد هؤلاء المظلومون من يعيد لهم بعض حقوقهم أن نقول لهم: كفوا أيديكم ولا تستعينوا بغير المسلمين..؟ ألا يسأل هؤلاء أنفسهم ـ لو كانوا منصفين ـ لماذا استعنا بغير المسلمين؟ وعلى أي شيء استعنا بهم؟ أما لماذا استعنا بهم فقد بيناه فيما تقدم، والأمر كله معروف مشهود معاش، أما على أي شيء كانت هذه الاستعانة فإني أقول: إنها لم تكن لانتزاع الأرض من دولة مجاورة، ولا للاعتداء على الأقربين، ولا للاستيلاء على أموال الآخرين، ولا رغبة منا في استباحة ديار المسلمين، ولا حبا في التمكين للآخرين، فلم تغب عن أذهاننا عبر التاريخ، ولكن.. ما الحيلة؟

إن المضطر يأكل الميتة ويأثم إن علم أن بقاء حياته في الأكل منها ثم امتنع، والجائع الذي لا يجد الطعام الذي يقوته، ويمسك عليه حياته، أبيح له أن يأخذ من أموال الآخرين ما يقيم أوده، ويمسك رمقه، فهل كنا مضطرين حين استعنا بالآخرين أو كنا مختارين؟ وهل نحن استعنا بهؤلاء وحدهم أو استعنا بالناس أجمعين، فأعاننا ـ بحمد الله ومنته ـ مسلمون وغير مسلمين.

٣ـ مناصرة شعب العراق:

وهؤلاء الذين أعانونا لم يعينونا ـ بحمد الله ـ على ظلم أحد، ولا على منع حق أحد، ولا على الجور على أحد، فنحن ـ بحمد الله ـ لا نرتضي الظلم ولا نقبل الجور، بل ونتجاوز نطاق الواجب المفروض ـ في معاملاتنا مع الآخرين ـ إلى نطاق المستحبات والنوافل والمندوبات، إننا لا نرضى أن يصيب الشعب العراقي مكروه، أو ضررٌ؛ إننا نحزن لما يصيب هذا الشعب على يد الطاغية المتجبر صدام، ولما يعرضه له من اعتداء أو جوع أو حرمان، إن المسئولين في الكويت لا يزالون يمدون أيديهم بالعطاء للمشردين العراقيين الذين يعيشون في العراء.

---

(١) المائدة :٨ .

وقد نبهت الصحف على لسان بعض المسئولين أن الكويت ليست طرفا في الأزمة التي قامت بين العراق وبين الأمم المتحدة، ولعل ذلك كان ردا على كُتّاب الزوايا والأعمدة في الصحف اليومية، الذين حاولوا بتعليقاتهم وكتاباتهم أن يجعلوا الكويت طرفا في الأزمة، ولربما كان ذلك بدافع من غيرتهم على وطنهم، ولما يشعرون به من غصة في حلوقهم تجاه ما فعله صدام، ولما تكنه القلوب له من بغض وكراهية، حتى لتتمنى زواله وزوال نظامه العفلقي في أقرب فرصة ممكنة.. ومع هؤلاء الكتاب الحق فيما يشعرون.. ولكن الموضوعية والواقعية تجعلنا نبين أن الكويت ليست طرفا في الأزمة، وفرق بين الأمنيات التي تعبر عن المشاعر، وبين الأحداث المتعاقبة التي تعبر عنها الوقائع مما استدعى التنبيه إلى مثل هذا الأمر.. ولقد صرح المسئولون في الدول الخليجية أنهم غير موافقين على الضربة العسكرية، وأنهم متمسكون بوحدة الأراضي العراقية كما جاء في تصريح الأمير سلطان بن عبد العزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام في المملكة العربية السعودية أثناء زيارته لأسبانيا، وأنهم يتمنون الانفراج القريب كما صرح بذلك النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية في دولة الكويت الشيخ صباح الأحمد في ١٧/ ٢/ ٩٨ أثناء حدة الأزمة واشتدادها، بل ورحب المسئولون في دول مجلس التعاون الخليجي بالاتفاق الذي تم أخيرا، لأن خسائر الضربة العسكرية في حال حدوثها خسائر عامة، ولأن أمثال هذه الضربة ـ في نظرنا ـ تضعف النظام ولا تزيله، بل تبقيه ليشاغب عند اللزوم، ويقوم بحركاته في أوقات معلومة لأغراض مفهومة، يساق هو إليها فهم أم لم يفهم.

إن العداء ليس بين الكويت والشعب العراقي، وإنما العداء مع هذا النظام الظالم الباغي الذي اعتدى على الكويت وحاول ابتلاعها وهضمها والقضاء عليها، ثم تراجع عنها قسرا وقهرا، وما زال يعلن تمسكه بموقفه منها، ويظهر حبه للهيمنة عليها، فماذا يكون موقفنا تجاه هذا النظام؟ لا شيء غير العداء، ورفع الأكف إلى الله بالدعاء أن

يهلك الظالمين، وأن يقطع دابر المعتدين، وحينها يكون لكل حادث حديث.

ولكننا لا نترك القلم حتى نذكر بعض ما يتصل بالأزمة الماضية:

أ ـ ماذا بعد الرعد؟

انتهت عاصفة الصحراء بما انتهت إليه، ومر ما أطلق عليه «رعد الصحراء» بالاتفاق الذي تم، فكيف سيكون المطر القادم بعد ذلك؟ ومتى يأتي هذا الماء الذي نرجو أن يكون ماء رحمة، تزول به أدران المنطقة؟

وحتى يكون المطر القادم ماء ينتفع به البشر لا عذابا مهلكا لهم ولمساكنهم، لا بد أن يكون الشعب مهيأ ومستعدا، للانتفاع بالماء، ولن يتم هذا التهيؤ وذاك الاستعداد إلا إذا أحسن الناس الانتماء إلى عقيدتهم، وعاشوا في ظل شريعتهم التي جاء بها محمد بن عبدالله ﷺ، وأخلصوا انتماءهم إلى الله دون غيره، فلا يعنينا في شيء أن ينتمي الناس لهذا الحزب أو ذاك، أو لهذه الجماعة أو تلك، وإنما يعنينا ويسعدنا ويقر عيوننا أن ينتمي الناس إلى ربهم، وأن يحسنوا صلتهم بخالقهم، وأن يشكروا نعم الله عليهم ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[(١)] فهذا وحده طريق النجاة، ولا طريق غيره، إن النجاة في الدنيا والآخرة قائمة على الاستمساك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ والجهاد في سبيلهما، هذا هو حبل الله الذي أمرنا بالاعتصام به: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[(٢)]، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١)﴾[(٣)]، ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾[(٤)].

هذا هو طريق النجاة، فلا ينبغي أن نحيد عنه، وهذا حبل الله فلا نتخلى عن الاستمساك به، ولنذكر أن قوم صالح أهلكهم الله لأن واحدا من بينهم عقر الناقة، ولنحذر الفتنة فإنها مهلكة للناس أجمعين، ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ

(١)إبراهيم: ٧.
(٢)آل عمران: ١٠٣.
(٣)آل عمران: ١٠١.
(٤)الأحزاب: ١٧.

خَآصَّةً ﴾[١].

فليكن هذا المنهج عصمتنا حين يأتي المطر أو الماء بعد عاصفة الصحراء ورعد الصحراء.

ب ـ استفاد الجميع من الأزمة إلا أهل الكويت:

هذا ما أثبتته الأزمة، فقد استفاد الجميع غير أهل الكويت.. فأمريكا أثبتت أنها ما زالت ـ رغم المعارضين ـ قطب النظام الموحد، وأنها قادرة بمفردها ـ إن لزم الأمر ـ أن تفعل ما تريد، سواء في الأمم المتحدة باستخدام حق الفيتو، أو غير الأمم المتحدة، بتسيير بعض قطع الأساطيل البحرية، والطائرات الجوية، والإعلان عن إنزال ضربة ببعض الدول حتى ولو كانت هناك معارضات شعبية أو رسمية لهذه الضربة.. وأثبتت بذلك أنها قادرة على تحقيق الاستراتيجية الأمريكية المطلوبة، التي تعمل من أجلها وفي ظلالها، وأنها صاحبة أكبر المغانم والمكاسب في السلم أو في الحرب، وأن تأثيرها في معظم الأحوال باق وقائم، ابتداء من موقفها من القدس الإسلامية وإسرائيل الصهيونية إلى إدارة الأزمة الحالية والاشتراك في صنعها.

واستفاد صدام بنظامه الآثم بأن استطاع شق الصف الخليجي على نحو من الأنحاء وبصورة من الصور، بحيث لم نستطع ستر هذا الأمر أو إخفاءه، واستمال واكتسب عطف الشعوب العربية فخرجت مظاهرات مؤيدة له في بعض العواصم العربية.. وبهذا الاتفاق الذي تم مع عنان، اكتسب جولة دبلوماسية ودعاية إعلامية لو كان أنفق عليها الملايين ما كانت تحقق له مثل هذا المكسب، واستفاد قبل الاتفاق بساعات تعديل صيغة (النفط مقابل الغذاء) فسمح له ببيع أكثر من ضعفي ما كان يبيع من قبل.. وتنادت الصحف الأجنبية ـ ثاني يوم إعلان الاتفاق ـ بأنه قد آن الأوان للالتفات لرفع المعاناة عن الشعب العراقي.

ونحن ـ في الكويت ـ لم نستفد شيئا، فلم يسقط نظام صدام الجاثم على صدر الشعب

---

(١) الأنفال: ٢٥.

العراقي، والمثير للفزع والضيق عند الشعب الكويتي، مما يجعل جريمته التي ارتكبها ماثلة أمام الأبصار، عالقة في الفؤاد، فتسبب الأحزان والآلام، ونظل غير مطمئنين لجواره، متوقعين منه الخيانة كل آن.

ولم يستفد إعلامنا شيئا في التعامل مع هذه الأزمة من حيث السبق والتفرد، فلم تكن قضية الأسرى عالقة في أذهان الناس خارج الكويت، بينما علقت في أذهانهم صور الأطفال العراقيين، وقرؤوا عن معاناتهم، وبعض مآسيهم، واستطاع الإعلام العراقي أن يجعل الكويت طرفا في القضية، بينما لم يستطع الإعلام الكويتي ألا يجعل من الكويت طرفا فيها حتى أعلن بعض المسئولين ذلك للناس.

ولم تستطع الكويت خاصة ودول الخليج عامة أن تكون شبكة بث عالمية، تخاطب الشعوب التي لها تأثير في حكوماتها، لتبني قضية مثل قضية الأسرى، وتحافظ على الحق الكويتي.

جـ- وانتصرت الكويت:

ولعلك تسأل: كيف يتحقق لنا نصر ونحن لم نستفد من الأزمة؟ ونقول: إن الكويت انتصرت بتمسكها بمبادئها وقيمها الثابتة، وبتعاملها الراقي؛حيث فرقت بين النظام الطاغوتي في العراق، والشعب المستكين المغلوب على أمره هناك.. وحيث كان تعاملها مع الأمة الإسلامية تعاملا راقيا في الحرص على الأخوة الإسلامية والعاطفة العربية، وتجلى ذلك في الخطابات والبيانات والاتصالات الكويتية بالدول الإسلامية والعربية الأخرى.

وانتصرت الكويت في هذه الأزمة بتوحيد التعامل بين الحكومة والمجلس، بحيث كان عمل الجميع عمل فريق واحد متماسك حريص على مصلحة البلد، محقق لأعلى قدر من التوافق والتعاون في العمل لخير البلاد، وحفظ وحدتها وتماسكها وهذا ما نريد استمراره.

انتصرت الكويت حين تعاملت مع الأزمة بروح حضارية في الشارع الكويتي، فلم

يتجاوز رجال الأمن في تعاملهم مع المواطنين أو الوافدين الظروف العادية، بل كانوا يتعاملون بروح الوفاء والمودة والأخوة مع الجميع.

انتصرت الكويت بثبات أبنائها فلم يغادرها أحد بسبب الأزمة، ولم يحدث خلل في البنوك ولم يتقافز الناس على السلع، بحيث تختفي من الأسواق، بل ظل الأمر هادئا، والعمل مستمرا، والناس غير فزعين، وإن كانوا حذرين.

وظل أهل الخير ينفقون ويبذلون، وهم يحملون في قلوبهم أمنا وسكينة، حتى ليعجب القادمون من الخارج من حالة الناس في الداخل، وتعاملهم مع الأزمة بروح الصبر والعمل والاحتساب.

وكل هذه جوانب إيجابية تحسب لأهل الكويت في ميزان النصر على النفس وعلى الشدائد.

ونسأل الله أن يحفظ الكويت وأهلها والبلاد الإسلامية جميعها من كل مكروه.

*****

خامساً:
العقل والمنطق في التعاملات الفكرية

١ ـ الحق هو المقياس والأساس:

قول مأثور يعتبر فيصلا بين الناس، وذلك لأن الحق له الاعتبار الأول والأوحد عند العادلين المصلحين، فمن استمسك به رشد، ومن انحرف عنه ضل وغوى، لذا كان هو أساس كل الدعوات الإصلاحية التي قاومت الشر والمنكر والفساد، ولكن الذين يبغونها عوجا لخلل في تربيتهم، وانحراف في مفاهيمهم، لا يعرفون الرجال بالحق، بل يعرفون الحق بالرجال، فما قرره الكبراء والملأ الذين استكبروا في الأرض بغير الحق، هو الذي يتبع، سواء أوافق الحق أم خالفه، فقد صار لمقررات هؤلاء وجاهة وقبول مستمدان من وجاهة القائلين، ومكانة المتجبرين في دنيا الناس وليس هذا الذي نرى بعض مظاهره حولنا جديدا على البشر، طارئا في حياتهم، وإنما هو قديم، قرره القرآن الكريم في قصة نبي الله شعيب مع قومه مدين حين أرسل إليهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وإحسان معاملة الناس بإيفاء الكيل والميزان والتنزه عن نقصانهما، وترك الفساد في الأرض، وإعطاء الناس حقهم فكان ردهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ..﴾ [(١)] فهم يرددون مقولة اليوم: ما دخل الصلاة بالمعاملات المالية؟ إن الصلاة عبادة والمعاملات المالية أمور دنيوية فما الذي جمعهما في هذه الدعوة وغيرها من الدعوات؟ أتريد أن تفرض على الناس حجرا في معاملتهم باسم الدين أم تريد أن تجعل لنفسك في الأرض سلطانا؟ ألا تعرف من أنت؟ إنك فينا ضعيف ولولا أننا نراعي مشاعر أهلك وعشيرتك لأسأنا إليك أبلغ الإساءة، لأنك لا كرامة لك عندنا لضعفك..﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا

(١)هود: ٨٧.

لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾[١].

إنه منطق البشر الذين يربطون قبول الحق بموازين الرجال من حيث مكانتهم الاجتماعية وسطوتهم المالية، ومدى تلاؤمهم مع أعراف المجتمع وتقاليده، ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ﴾، فهم ربطوا الحق بشخصه ولم يربطوا شخصه بالحق الذي يدعو إليه، ويطبقه على نفسه قبل أن يدعو إليه غيره، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ...﴾[٢]، ولكنهم لا يرون فيه إلا أنه ضعيف يود أن تستقيم أمورهم المالية في صفقات أيديهم، بعد أن تستقيم قلوبهم في الصلاة بذكر الله، وهم يستنكرون أن يجمع عليهم في دعوته حسن الصلة بالله بالصلاة، وحسن الصلة بالناس بإحسان التعامل.. إنهم يفصلون في حياتهم فيجعلون شيئا لله ويجعلون أشياء لأنفسهم، لا دخل لله بها ولا صلة لشرعه بتقنينها، وبيان حرمتها أو حلها، وخاصة حين ينادي بها رجل من بينهم ليس من ملئهم ولا من المتكبرين فيهم.. إنها نفس النظرة العلمانية السائدة اليوم التي ترى أن الإنسان كيان مستقل بذاته لا يخضع لغير نفسه وما يقرره، ومعيار كل شيء عنده يقاس برؤيته لمصلحته ومنافعه وإشباع حاجاته، لأنه ـ كما تقرر الفلسفة العلمانية ـ مركز الكون، الأمر الذي يضعف ـ بدوره ـ دور الغيب والدين في المجتمع ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾[٣]!!

إن الخير والشر ـ عند العلمانيين ـ هما وصفان لسلوك بعض الناس.. وهما ما اتفقت الجماعة على تصنيفه؛بحيث تصبح الأخلاق مسألة اتفاق شائع وعرف سائد، وتغدو القيم الأخلاقية نسبية، بل إنها تصبح قيما مادية مثل: المنفعة والبقاء والإشباع واللذة والتطور... إلخ[٤].

---

(١)هود: ٩١.

(٢)هود: ٨٨.

(٣)هود: ٨٧.

(٤)انظر: قراءة أخرى لفضيحة البيت الأبيض، الوطن ١٠ / ٢ / ٩٨.

هذه الأسس الفلسفية العلمانية هي بذاتها التي واجهت شعيبا عليه السلام حين دعا قومه إلى الإصلاح فأعلنوا في وجهه النكير والنذير، واستكبروا في الأرض بغير الحق، وكان تصرفهم مبنيا على أن مرد الأمر كله إلى الأقوياء وإن كان فعلهم جائرا، وعملهم بائرا، فأي حق يمنعهم من بخس الناس أشياءهم؟ وأي حق يمنعهم من أن يعيثوا في الأرض فسادا؟ ومن الذي يمنعهم من أن ينقصوا الكيل والميزان؟ وعلى هذا المنوال ينسج العلمانيون المعاصرون حين يدعون ـ زورا وبهتانا ـ أن الدين لا شأن له بالحياة، ولا مجال فيه للاقتصاد أو السياسة أو الاجتماع، وأنه صلة بين العبد وربه، فمن أراد الصلاة فأمامه المساجد ومن أراد غير ذلك فأمامه الحياة، يأخذ منها ما شاء وهكذا يقولون.. ثم لا يكتفون، بل يتعدون ذلك في كثير من الأحيان ساخرين بالدعاة وأقوالهم.. ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾ [1] إنها دعوة قديمة جديدة بان زيفها وظهر كذبها، وانتقم الله من أتباعها الذين فرقوا بين الدين وحركة الحياة ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥﴾ [2].

وفي هذا عبرة لكل من يتذكر ويتدبر ويعتبر.

٢ ــ الوسطية هي الطريق:

يجرى في الأمم والجماعات ما يجري على الأفراد، فهؤلاء يتفاوتون في أفهامهم وأعمالهم، أو في تشددهم وتساهلهم، أو فى ترخصهم أو أخذهم بالعزائم فى أمور الدين والدنيا، وأولئك (الجماعات والأمم) يحدث لهم ما يحدث بين الأفراد، فتجد في الجماعة الواحدة هذا التفاوت داخل التيارات الموجودة على الساحة.

والجماعة الواعية، والأمة المتدبرة هي التي تمزج عناصر الخير والقوة، المستمدة من جميع التيارات أو من بعضها لتأخذ بهذا المزيج نفسها، وتضعه أمام غيرها، فتكون

(١) هود:٨٧.

(٢) هود:٩٤،٩٥ .

بذلك قد استمسكت بالوسطية بين التساهل والتشدد، أو بين الإفراط والتفريط، وهذه الوسطية تمد في عمر الجماعة أو الدولة، وتعطيها شيئا من المرونة فلا تكون متصلبة فتكسر، ولا لينة فتعصر، وهذا ما أوصى به أبو جعفر المنصور الإمام مالك بن أنس حين أراد أن يؤلف كتابه «الموطأ» فقد قال القاضي عياض في كتابه ترتيب المدارك: «إن أبا جعفر المنصور قال لمالك: ضم هذا العلم يا أبا عبد الله، ودونه كتبا، وتجنب فيه شدائد عبد الله بن عمر، ورخص ابن عباس، وشواذ ابن مسعود، واقصد أوسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة» [1].

وهذه وصية رجل الدولة الذي يريد أن يجمع الأمة ولا يفرقها، فهو لا يميل إلى أحد الأطراف، وإنما هو يعمل على الوصول إلى أوسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة، حتى يظل هذا المحور هو القطب الذي يدور من حوله المتشددون أو المتساهلون، لأنك لن تستطيع أن تجعل كل الناس على وتيرة واحدة، ولا على نمط واحد بعيدا عن الوسط الذي يميل إليه كثير من الناس.

وطالما بقي هذا التوجه (الوسطية) قائما فلا ضير إن تشدد أحيانا بعض الناس في بعض الأمور، أو تساهل أحيانا بعض الناس في أمور أخرى، لأن الأغلبية تمزج بين هذا اللين وتلك الشدة، والضرر كل الضرر في أن تميل الجماعة أو الدولة إلى أحد الطرفين، فيختل الميزان ويتأخر البناء والعمران (المادي والمعنوي) وبعض الدول المعاصرة حين تشددت في أقوالها وبعض أعمالها، اكتسبت عداوة بعض من كانوا لها محبين، ولنجاحها طالبين مستبشرين، فلما عادت إلى الوسطية والاعتدال مالت الكفة إليها، وسعت الدول نحوها، والأمل قريب في صلاح العلاقات بينها وبين غيرها.

والحركات الإسلامية الموجودة اليوم على الساحة يأخذ بعضها نفسه بتغليب الجانب السياسي على فقه الفروع، ويأخذ بعضها الآخر بتغليب فقه الفروع على غيره، وغير هذين الفصيلين قد يأخذ نفسه بمبدأ يتشدد فيه أو رأي يتعصب له، ومن ثم تظل هذه

(١) موطأ الإمام مالك برواية القعنبي تحقيق : عبد الحفيظ منصور ، المقدمة ص٩ نقلا عن ترتيب المدارك للقاضي عياض ١/ ١٩٣ .

الحركات قائمة على أرض الإسلام، وكأنها جزر منفصلة لا يصل بينها غير الماء الذي لا يثبت إلا إذا تجمد، وتظل الفرقة بينها كاملة، وهذا الموقف ضرره أعظم من نفعه وغيه أكبر من رشده، لا يرضى به الحريصون على وحدة أبناء الإسلام، فلماذا لا يتم المزج بين هذه الآراء الفكرية بما تقوم عليه من أصول دينية، بحيث تؤدي في النهاية إلى نوع من الوسطية، يختار الناس من بينها ما يشاؤون، بحيث لا يعوقهم عن الوحدة - ولو في الاتجاه وحده - عائق، ولا يمنعهم من الأخذ ببعض المبادئ المستخلصة مانع، مع المحافظة على الوحدة في الأمة أو في الجماعة، بحيث لا يشذ أحد عن الطريق التي تتسع للمسرعين وللمتباطئين، طالما أن الناس فيها يسيرون في اتجاه واحد، أما إن تعاكس اتجاههم فإنك لا تأمن أن يكون بينهم صدام قد يؤدي إلى التعثر والتأخر، وعدم المضي في الطريق.

والمحاولات التي ترد الناس إلى منهج الوسطية بحيث يبتعدون عن التشددات والتساهلات كثيرة وقديمة في تراثنا، وقد قرأنا من قبل جزءًا من وصية أبي جعفر المنصور للإمام مالك بن أنس، فلنقرأ أيضا جزءًا مما حرص على بيانه الإمام الأوزاعي، يقول: «يجتنب من قول أهل الحجاز خمس، ومن قول أهل العراق خمس».

من قول أهل الحجاز:

١ـ استماع الملاهي.

٢ـ المتعة.

٣ـ ......

٤ـ ......

٥ـ الجمع بين الصلاتين بغير عذر.

ومن أقوال أهل العراق:

١ـ شرب النبيذ.

٢ ـ تأخير العصر حتى يكون ظل الشيء أربعة أمثاله.

٣ـ الفرار من الزحف.

٤ - ....

٥ - ....

وروى عبد الرزاق عن معمر قوله: «لو أن رجلا أخذ بقول أهل المدينة في استماع الغناء وبقول أهل مكة في المتعة والصرف، وبقول أهل الكوفة في المسكر كان شر عباد الله»[(١)].

ونعود لنؤكد أن وسطية المنهج هي الطريق القويم وأن وحدة الاتجاه والهدف ينبغي أن تجمع المتفرقين، وتؤلف بين المختلفين، حفاظا على القوة من التبدد وعلى العمل من التبعثر وعلى الجهد من الضياع.

٣ ــ تبعات الدعوة والدعاة:

إن الفتن لا تهجم فجأة، ولكنها تنسل إلى الأفراد والمجتمعات كتسلل الشيطان «إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم»[(٢)] فتبدأ بكلمة لتنتهي بانفجار مروع يهز الأمة، وتاريخنا شاهد على ذلك. ولذلك حذرنا ﷺ من التهاون وعدم الالتفات إلى زحف الفتن واستصغارها عند بدايتها حيث قال ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عودا عودا، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»[(٣)] وبيان هذه الأمور خطوة في البداية، فميدان العمل فيه سعة لمن شحذ همته، وبذل نصحه، ونسأل الله أن نخلص النية وألا نطيل بمكرر لعل ما

---

(١) التخليص الحبير لابن حجر (٣/ ٣٩٨) دار الكتب العلمية .

(٢)أخرجه البخاري (١٩٣٠)، ومسلم (٢١٧٥) عن علي بن الحسين عن صفية رضي الله عنها.

(٣)أخرجه مسلم (١٤٤)، وأحمد (٥/ ٤٠٥)، والبغوي في شرح السنة (٤٢١٨) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٧٢) عن حذيفة رضي الله عنه. قوله: «أشربها»: اعتادها بعد أن اختلطت وامتزجت به. «نكتت»: ظهرت فيه علامة. «مربدًا»: مائلاً لونه إلى الغبرة. وفي المصباح: لون يختلط سواده بكدرة.

فيه يثلج الصدر، ويبرد الوحر ويطمئن له القلب ممن له طلب مليح وقصد صحيح، وتوضيحنا لبعض ما نراه سبباً لحصول فتنة كبرت أم صغرت ليس تقليلاً من قدرة العاملين في الحقل الإسلامي على معرفة الأمور، بل كما قال ابن رشد: ما من مسألة وإن كانت جلية في ظاهرها إلا وهي مفتقرة إلى الكلام على ما يخفي من باطنها، وقد يتكلم الشخص على ما يظنه مشكلاً وهو غير مشكل على الكثير من الناس، وقد يشكل عليهم ما يظنه هو جلياً..

لاَ تَحْقِرَنَّ صَغِيرًا فِي مُخَاطَبَةٍ ... إِنَّ البَعُــوضَـةَ تُدْمِي مُقْلَةَ الْأَسَدِ
وَلِلشَّــرَارةِ حَـقْرٌ حِينَ تَنْظُرُهَا ... وَرُبَّمَـا أَضْـرَمَـتْ نَـارًا عَلَـى بَلَدِ

وحتى لا تكون فتنة وسط الجماعات الإسلامية لابد من:

أ ـ علاج الهواجس والخطرات:

لا بد من رصد وعلاج الهواجس والخطرات والإرادات في أي تجمع، من قبل أن تصير عزمات فحركات فعادات يصعب التعامل معها وقد استقرت كأعراف، ينشأ عليها الجدد فيصعب علاجها..

وَلَا تَحْقِرَنْ كَيْدَ الضَّعِيــفِ فَرُبَّمَا ... تَمُــوتُ الْأَفَاعِي مِنْ سُمُـــومِ ٱلْعَقَارِبِ
فقَدْ هَدَّ قِدْماً عَرشَ بِلقِيـسَ هُدْهُدٌ ... وَخَـرَّبَ فَــأرٌ قَبْـلَ ذَا سَــدَّ مَــأرِبِ

كان نصر بن يسار يحذر الأمويين من دعوة العباسيين التي تنتشر شيئاً فشيئاً، وكانوا لا يعبأون بذلك حتى استفحل الأمر، فأرسل إليهم بهذه الأبيات:

أَرَى خَلَـلَ الرَّمَـادِ وَمِيـضَ نَارٍ ... فَيُوشِكُ أَنْ يَكُـونَ لَـهَا ضِـرَامُ
فَـإِنَّ النَّـارَ بِالعُـوَدْيـنِ تُـذْكَى ... وإِنَّ الْـحَرْبَ أَوَّلُـهَـا الكَــلاَمُ
فَـإِنْ لَـمْ يُطْفِـهَا عُقَـلاَءُ قَـوْمٍ ... يَكُونُ وَقُـوُدهـا جُثَـثٌ وَهَـــامُ
فَقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شِعْرِي ... أَأَيْـقَــاظٌ أُمَـيَّةُ أَمْ نِـيَّـــامُ
فَـإِنْ كَانُـوا لِحِينِهـمُ نِيـــاماً ... فَـقُلْ قُومُوا فَقَـدْ حَـاَنَ ٱلقِيــامُ

فَـفِرِّي عَـنْ رِحَـالِكِ ثُمَّ قُولِي   عَلَـى الإِسْـلاَمِ وَالْعـرَبِ السَّلاَمُ

ب ـ استفادة مرجوة:

لا بد من المحافظة على كل مكسب ولو كان عقال بعير كان يؤدي لهذه الدعوة المباركة، فالدعوة سلسلة متصلة من الإنجازات، وهذا لا يعني عدم مراجعة مكونات المسار الدعوي وحلقاته، لمعرفة صلاحيات الوسائل والطرق، من أجل الاستفادة من كل التراكمات والخبرات والتجارب والخطط ليتآلف هذا كله فيؤدي عملية بعث جديد ودورة من دورات التجديد.

جـ ـ احتراز وواجب:

لا بد من رصد لاتجاهات الرأي العام داخل هياكل الجماعات لمعرفة أماكن الخلل ومواطن الصواب في المناهج وطرائق التفكير مع فتح باب الحوار وحلقات الرأي، حتى يقطع التشرذم والتشبع الحركي الداخلي، وحتى لا تتلوث البيئة الداخلية وينفرط رباط المحبة والإخاء، ونظن أننا بهذه المنهجية سنطرد باب التأويل المفتوح على النوايا واتهامها، ونتقبل الرأي المقابل في فهم النصوص الدعوية وتفسيرها وتنفيذها، فليست هناك أي مصادرة لحقوق الغير في أن يحوز الصواب أو بعضاً منه.

لاَ تَحْقِرَنَّ الرَّأيَ وَهْوَ مُوَافِـقٌ   رَأيَ الصَّوَابِ إِذَا أَتَى مِنْ نَاقِصِ

وَالـدُّرُّ وَهْـوَ أَعَزُّ شَيْءٍ يُقْتَنَى   مَا حـَطَّ قِيمَـتَهُ هَـوَانُ الْغَائِصِ

د ـ النظرة الموضوعية:

لا بد عند معالجة مشاكل الدعوة من الالتزام بالنظرة الموضوعية المؤسسة على معطيات محددة بعيداً عن الاستغراق في العموميات وذلك في محاولة للإجابة على منظومة الأسئلة الأساسية، ولرسم التوجهات في المسارات الحركية المختلفة لوضع مجموعة بدائل متصورة للمرحلة المرتقبة، وهذه المنهجية تستلزم أن تكون لنا أذان صاغية وعقول واعية وصدور رحبة لكل إضافة منهجية موضوعية تكمل سلسلة المعاني الدعوية الكبيرة، إذن لا بد من السماع للرأي الآخر حتى لا تكون الفرقة

والاختلاف.

قال بشار بن برد:

إِذَا بَلَغَ الـرَّأْيُ الْـمَشُورَةَ فَاسْتَعِنْ   بِرَأْيِ نَصِيحٍ أَوْ نَصِيحَةِ حَـازِم

وَلاَ تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً   فَـإِنَّ الخَـوَافِي قُـوَّةٌ لِلْقَـوَادِمِ

وَمَا خَيْرُ كَفّ أَمْسَكَ ٱلغِلُّ أُخْتَـهَا   وَمَا خَيْرُ سَيْفٍ لَمْ يُؤَيَّـدْ بِـقَائِم

وقال آخر:

مَنِ اسْتَشَارَ فَبَابُ النُّجْحِ مُنْفَتِــحٌ   لَدَيْــهِ مَا يَبْتغِيــهِ غَيْرُ مَرْدُودِ

هـ - رأي القاعدة:

لا بد من عمل استفتاءات لمعرفة الرأي العام الداخلي بغية التعرف على اتجاهاته، وأن تؤخذ نتائج الاستفتاء في الخطط والاستراتيجيات ورسم السياسات والأهداف العامة والخاصة القريبة والبعيدة، وهذا كله حتى لا تحدث هناك حالة انفصام منهجي بحديث الطرشان.

قال امرؤ القيس:

أَلِمَّا عَلَى الرَّبْعِ القَدِيمِ بِعَسْعَسَا   كَأَنِّي أُنَـادِي أَوْ أُكَـلِّمُ أَخْـرَسَا

وقال آخر:

إِنَّ اللَّبِيبَ إِذَا تَفَـرَّقَ أَمْـرُهُ   فَتَـقَ الأُمُورَ مُنَـاظِراً وَمُشَاوِرَا

وَأَخُو الجَهَـالَةِ يَسْتبِدُّ بِـرَأْيِه   فَتَرَاهُ يَعْتَسِفُ الْأُمُـورَ مُخَـاطِرَا

وقال آخر:

خَلِيَلَيَّ لَيْسَ الرَّأْيُ فِي صَدْرِ وَاحِدٍ   أَشِيـرَا عَلَـيَّ اليَـوْمَ مَا تَـرَيَـانِ

و - مواجهة جريئة:

لا بد من مواجهة التحديات بشيء من الجدية والواقعية والعلمية. وهذا ما يقوله الإمام البنا رحمه الله تعالى عن حال الإخوان في عملهم الدعوي: (فهم يواجهون جملة

من التحديات لا يسعهم تجاوزها بدون فقه واع ذي خصائص متميزة، الربانية بابه الجامع، والفعالية والجدية والواقعية والمثالية والكفاءة فصوله، والهموم الفطرية المحلية وقضاياها المعيشية اليومية والتأثيرات الإقليمية والعالمية مسائله التي يحكم عليها، كل هذا لكيلا يحدث الفتور ويدب الضعف ويظهر الوهن ويحل الموت..).

ز ـ تصحيح المفاهيم:

لا بد من تصحيح منهج فهم النصوص وتطبيقها وتنفيذها، فمنهج الفهم يعتمد على العلاقة بين العقل وقوة آلته، ووضوح النصوص ودقة دلالتها، كما أن منهج التطبيق يعتمد على طبيعة العلاقة بين العقل والواقع والقدرة على تفهم ملابسات الحدث الذي يتأثر بالأعراف والأحوال والزمان، ومعرفة الحالة مسألة بينها الإمام ابن القيم في إعلام الموقعين في موضوع تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان.

قال المتنبي:

وَكَمْ مِنْ عَائِب قَوْلاً صَحِيحًا وَآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقِيم

وَلكِنْ تَأْخُذُ ٱلآذَانُ مِنْهُ عَلَى حَسَبِ ٱلقَرَائِحِ وَالفُهُومِ

حـ ـ بين الأقوال والأعمال:

لا بد من تجديد عهد الأخوة والمحبة بين العاملين في الحقل الإسلامي حتى لا يكون هناك انفصام بين الشعارات التي نحملها ومقتضيات هذه الشعارات في واقع حياتنا وعلاقتنا فتحدث الفتنة فيتسور علينا الشيطان، ويدس أنفه ويبث أراجيفه.

وقد يكثر الإخوان في السراء ولكنهم يقلون في الضراء، وفي ذلك المعنى جاء قول الشاعر:

فَمَا أَكْثَرَ الإِخْوَان حِينَ تَعُدُّهُمْ وَلكِنَّهُمْ فِي النَّائِبَاتِ قَلِيلُ

وقال الآخر:

إِنَّ أَخَاكَ ٱلحَقَّ مَنْ يَسْعَى مَعَكْ وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكْ

وَمَنْ إِذَا رَيْبُ الزَّمَانِ صَدَعَكْ شَتَّتَ فِيكَ شَمْلَهُ لِيَنْفَعَكْ

وقال آخر:

وَمَا المَـرْءُ إلاَّ بـإِخْـوَانـهِ كَمَا يُقْبـضُ الْكَـفُّ بِالْمِعْـــصَمِ
ولاَ خَيْرَ فِـي الْكَـفِّ مَقْطُوعَةً وَلاَ خَيْـــرَ فِـي السَّـــاعِدِ الأَجْذَمِ

ط ـ الإقدام المبني على الحقائق:

لا بد من وقفة جادة في محاكمة الأمور ومراجعتها واتخاذ القرارات العلمية الجادة، ذات الأثر في مسار العمل وإنتاجيته بدلا من الاختباء خلف عبارة «الأحوط» والتوقف عن إصدار الحكم بالخطأ أو الصحة على أي تصرف أو موقف، وقد قيل إن التوقف عند غير موارد الشبهات مذلة للعقل، مفسدة للرأي مضيعة للحزم.

قال الشاعر:

فَقِسَا لِيَزدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلْيَقِسْ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

ى ـ القوة الغلابة:

لا بد من بث روح التحفز والتحرش بالواقع مراغمة ومغالبة لأعداء صناعة الحديث، وطرح البدائل وسرعة الاستجابة لمتطلبات الواقع حتى لا يدب إلينا الوهن.

قال بشار بن برد:

وخَلِّ الهُوَيْنَا لِلضَّعِيفِ وَلاَ تَكُنْ نَؤُومًا فَإِنَّ الْحَزم لَيْسَ بِنَائِمِ
وَحَارِبْ إِذَا لَمْ تُعْطَ إِلاَّ ظُلاَمَةً شَبَا الحرب خَيْرٌ مِنْ قَبُولِ المَظَالِمِ

وقال آخر:

إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلاَّ الأَسِنَّةَ مَرْكَبٌ فَلَمْ يَبْقَ لِلْمُضْطَرِ إِلاَّ رُكُوبها

ك ـ معالجة الخلل:

لا بد من تحديد المنهجية في معالجة الأمور المعتادة والمتكررة في قاموس الدعاة اليومي والكيفية التي نقوم بتحليلها وسبر غورها ومعرفة أسبابها، فعلى سبيل المثال للأمور المتكررة: الفتور، ضعف الالتزام بالتوجيهات، أو التخلف عن التبرع والمساهمة

المالية الدورية، وكذلك التخلف عن حضور اللقاءات، أو غير ذلك من قائمة العلل والأدواء التي يعاني منها الصف في بعض الأحيان.

ونحن حين نذكر هذه العيوب لا يعني أنها متفشية في الجماعات الإسلامية ولكنها بلا شك موجودة بدرجات متفاوتة، وهي في الغالب فردية، ولكن لا بد من الاعتراف بوجودها لأن ذلك أول مراحل العلاج والتنبيه عليها نوع من التربية العلاجية تمنع الحدوث ابتداء أو على الأقل منع تفشيها والعمل على حصرها بإطار ضيق، وأما السكوت عنها دون علاجها أو التنبيه عليها يجعل انتشارها وسط الأجيال الجديدة شيئاً طبيعياً، بل وجود هذه الأمور في وسط الجيل الأول يجعل الجيل الجديد ينظر إليها على أنها أمور طبيعية وليست ظاهرة مرضية.

ل ـ البغي المهلك:

لا بد من الابتعاد عن البغي والتطفيف، وبخس الناس أشياءهم وإلحاق الأذى بهم، فإن انتشار (عدم الإنصاف، وشيوع فقه الحيل والمخارج الشرعية، وأكل الحقوق، وغياب فقه المقاصد وميزان الاعتدال)، يؤدي إلى ظهور التفرق وانتشار التعصب والغلو وفقدان ميزان العدل، وهنا يغيب الحق ويظهر الهوى..

قال زهير:

وَلكِنَّ ٱلْفَتَى حِمْلَ بْنِ بَدرٍ بَغَى والْبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَخِيمُ

وقال آخر:

كَذَاكَ الَّذِي يَبْغِي عَلَى النَّاسِ ظَالِماً تُصِبْهُ عَلَى رُغْمٍ عَوَاقِبُ مَا صَنَعْ

وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول: لو بغى جبل على جبل لدك الباغي.

وكان الخليفة المأمون يتمثل بهذين البيتين:

يا صَاحِبَ البَغْيِ إِنَّ البَغْيَ مَصْرَعة فَارْبَعْ فَخَيْرُ فِعَالِ المَرْءِ أَعْدَلُهُ

فَلَوْ بَغَى جَبَل يَوْمًا عَلَى جَبَلٍ لانْدَكَّ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ

م ـ دعائم التوازن:

حتى لا تنتشر مشاكل عدم التوازن بين النظرة المثالية الواقعية والجانب العاطفي، وبين البعد العقلاني المنطقي ومداراة الظروف والوقائع وحتى لا يضيع الصواب في زحام القضايا والهموم وطغيان عموميات الابتداء، وحتى لا نصل إلى عدم الاكتراث بمفهوم الحركة والزمن، ويغيب عنا التوازن بين البعد العالمي والبعد المحلي للدعوة إلى الله ـ حتى لا تنتشر هذه الأمور كلها لا بد عند مناقشة القضايا الدعوية من إطار يلتزم بـ:

١ـ التقدير للموقف المراد مناقشته.

٢ـ رسم دقيق لحدود الإمكانات المتاحة للحركة عند المناقشة.

٣ـ طرح البدائل المتنوعة للتفاعل مع الواقع وتغييره حتى لا نحصر العلاقات في نمطية واحدة جامدة.

٤ـ دراسة الواقع بكل تعقيداته وتشابكه ومداخلاته المختلفة.

ن ـ التدبر في أوقات العافية:

لا بد من معالجة الأمور في وقت العافية، فهذا أفضل من النظر إليها في وقت المشاكل والفتن، فإنه يحدث في وقت الفتن وتدخل العوام ما لا يحدث في أيام العافية. فمعالجة الأمور وقت الفتن قد يؤدي إلى التشرذم والتفسخ، فتكون كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً..

قال الناظم:

لَقْطُ شُرُوْطِ الشُّحِّ فِي الرَّخَاءِ   وَفِي الأَوَانِ طَلَـبُ الأَشْـيَاءِ

س ـ حسم الأمور في أوقاتها:

لا بد من الانتباه إلى عدم التعويل الكثير على الوقت كعلاج، أو الانتظار حتى تأتي فرصة خارقة للعادة، فإن الحلول لا تقدم على طبق من فضة والداعية متكئ على أريكته.

فَلاَ يَغُرَّنْكَ مَا مَنَّتْ وَمَا وَعَدَتْ إِنَّ ٱلأَمَانِيَّ وَٱلأَحْلاَمَ تَضْلِيلُ

ع ـ اليقظة والتنبه:

لا بد من عدم الغفلة عن الحقيقة الاجتماعية التي تنص على أن الإنسان نتاج لبيئته، فإذا سرى في بيته خلق معين أو سلوك محدد فهو لا محالة متأثر به، بل الأخطر من ذلك أن إلف الأوضاع غير المستقيمة والتعود عليها يكون في معظم الأحيان مدعاة لرفض الإصلاح والتقويم، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ..﴾ [(١)] لذلك لا بد من الاعتراف بأثر البيئة والمجتمع على التكوين التربوي للدعاة وحصول التأثير البيئي على نفس المسلم وتفكيره، وهذا واضح في جعل أجر السابقين إلى الإسلام يفضل أجر اللاحقين أضعافاً، وما ذاك إلا أن السابقين تنكبوا صعاب مخالفة بيئتهم، وتحرروا من سلطان الإيلاف على تفكيرهم ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ..﴾ [(٢)]، وكذلك أجر المجددين وتميزهم لنفس السبب والعلة التي فضلت السابقين، وهذا الاعتراف بأثر البيئة من أجل أن لا يحدث الصراع النفسي داخل الداعية.

وقال الشاعر:

وَلاَ تَقُلْ جَرَتْ بِذَا ا العَوَائِدُ وَهْيَ مُحَكَّمَةٌ إِذْ تَطَّرِدُ

وَالْعُرْفُ إِنْ خَالَفَ أَمْرَ البَارِي وَجَبَ أَنْ يُنْبَذَ فِي البَرَارِي

وقال ثالث:

وَآفَةُ ٱلْعَقْلِ الهَوَى فَمَنْ عَلاَ عَلَى هَوَاهُ عَقْلُهُ فَقَدْ نَجَا

ف ـ التفاعل مع المستجدات:

لا بد من تفعيل كامل لكل مكونات الدعاة في الحركة الإسلامية حتى لا ينحصر دور الفرد في الإدلاء بصوته في الانتخابات أو دفع ما يستوجب عليه من رسوم، أو

---

(١) البقرة: ١٧٠.

(٢) الحديد: ١٠.

تنفيذ ما يأتيه من أوامر، وهذه الحالة تتكون عندما يعزف الدعاة عن التفاعل الحقيقي مع مستجدات العمل، وعندما تهيأ تربة خصبة لقلة من الأفراد تنفرد بالرأي والقرار، ولا ترى في الآخرين إلا هياكل تنتظر أن تحركها الأوامر والنواهي، وتلوح بين الحين والآخر بعصا التنظيم، ولهذا لا بد أن ترافق كلمة الطاعة كلمة السمع التي تعني التفهم والإدراك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[1] وهذا وإن كان موجوداً في أدبيات الدعاة إلا أن الممارسات اليومية والقيادية في بعض الأحيان تحيد عنها.

أخي الكريم:

هذه مسائل نرجو أن تثلج الصدر، وتبرد الوحر، ويطمئن لها قلب من له طلب مليح وقصد صحيح.

وفي الأخير نقول لإخواننا: أي النفوس نحن معاشر الدعاة حينما نمدح أو نذم وحين يسكت عن خطئنا أو يشار إليه في معرض النصح والبيان.

وإليك أخي الكريم مقياس من تاريخ نفس متجردة وأخرى مستعلية ثم خذ بعد ذلك ما تشاء لقدوتك:

أولاً: نفس متجردة وهي التي تستشعر دائماً أنها ستقف بين يدي الله وسيسألها عن انتصارها للحق والوقوف عنده: عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدخل يوماً على ملأ من الصحابة في مسجد الرسول ﷺ فيصعد المنبر فيقول: لقد رأيتني من قبل أرعى لخالات لي من بني مخزوم، وأستعذب لهن الماء فيفيضنني القبضة من التمر والزبيب، وهنا يسأله ابن عوف رضي الله عنه: ماذا أردت بهذا يا أمير المؤمنين؟ فيقول: ويحك يا ابن عوف خلوت إلى نفسي فقالت لي: أنت أمير المؤمنين، وليس بينك وبين الله أحد فمن أحسن منك؟ فأردت أن أعرفها قدرها!

ثانياً: نفس مستعلية تتقاصر عن هذا الصلاح والرقي وتضعف أمام الرغبات

---

(١)ق: ٣٧.

والشهوات ونماذجها كثيرة، منها ما روي عن أحد خلفاء بني أمية أنه أجاز للأخطل الشاعر أن يركب ظهر جرير الشاعر كما يركب الرجل البعير، وهذا ليس انتصاراً للحق أو دفعاً للباطل، إنما لأبيات من الشعر مدحه بها الأخطل لامست لبه، وأنعشت فؤاده، فأمر له بجائزة وزاده بأن يتخذ من ظهر جرير مركباً!!

هذه زوايا من رواق جميل يستظل به نفر كثير.

٤ ـــ تحاسد العلماء:

حَسَدُوا الفَتَى إِذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ فَالقَـوْمُ أَعْـدَاءٌ لَـهُ وَخُصُـــومُ

ومرد حسد العلماء إلى تفاضلهم في الاجتهاد، وتفاوتهم في الاستعداد لبذل الجهد، وتحمل المشاق والصبر على المكاره، وغير ذلك مما يستحيل أن يتم التساوي فيه بين الناس؛لأن الله سبحانه اقتضت حكمته أن يتفاضل الناس فيما أعطاهم من شؤون الحياة، والسعيد من يرضى بما قسم الله له بعد أن يأخذ بالأسباب المادية المهيأة له لتحقيق ما يريد، ولذا جاء في الحديث: «وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس»[(١)] والحاسد لم يرض بما قسم الله له، ولا بما قسم لغيره، ولذا فهو لا يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، لأنه يحب لنفسه الصدارة والسبق والتقدم ولا يحب لغيره من إخوانه ذلك، مما يدل على مخالفته لحديث رسول الله ﷺ: «وأحب لأخيك ما تحب لنفسك تكن مؤمناً»[(٢)] .

والحسد دليل على ضعف الإيمان وتغلب الهوى على الإنسان وتملك الأثرة من نفسه، بحيث تغلبه في كل مجال ينبغي أن يكون فيه للإيثار نصيب الله مقسم الأرزاق هو الذي نهى عن الحسد، وأمر بالاستعاذة من الحاسدين فقال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾[(٣)] . وأظهرت آيات القرآن العجب ممن يحسدون الناس على ما آتاهم الله

(١)أخرجه الترمذى (٢٣٠٥) وقال: «غريب»، وأحمد (٢/ ٣١٠)، وأبو يعلى (٦١١٠)، وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٩٣٠).

(٢)حديث صحيح سبق تخريجه.

(٣)الفلق: ٦.

من فضله، فقال سبحانه: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾[١].

وما كان الدافع وراء قتل هابيل على يد أخيه قابيل إلا الحسد، وما كانت المعاناة التي عاناها يوسف عليه السلام في غربته وسجنه وفراق والده وبيعه بثمن بخس، وحزن أبيه حتى ابيضت عيناه، وحتى اشتكى إلى الله بثه وحزنه، ما كان ذلك كله إلا بسبب الحسد والغيرة: ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾[٢] إن نار الحسد تظل مؤججة السعير في قلوب الحاسدين، لا ينطفئ أوارها إلا بزوال النعمة عن المحسود:

كُلُّ العَدَاوَاتِ قَدْ تُرْجَى إِمَاتَتُهَا ... إِلاَّ عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدِ

وينبغي للعلماء وقد حملوا صفة العلم أن يتخلوا عن هذه الصفة الذميمة، التي تقدح في علمهم، وتقلل من شأنهم، وتفرق شملهم، وتثير كوامن البغضاء بينهم، فإن وقعوا في ذلك ولم يحترسوا منه فإلى أي دعوة يدعون، وبأي حق يتمسكون؟

إن الدعاة العاملين يتكاملون ولا يتناقضون، ويعملون لا يتجادلون، ويدعون إلى الله بالحسنى ولا يتحاسدون، ويرى أحدهم نجم أخيه يبزغ في سماء الدعوة إلى الله فيفرح بعضو جديد ينضم إلى العاملين، ويعاضد الداعين، ويعمل على إظهار الحق المبين، أما أن يحزن إنسان لظهور داعية جديد، ويفرح لكبوة داعية قديم، فليس ذلك من فعل المؤمنين الصادقين، إذ من قديم تقرر: «أن الكبير من أئمة العلم إذا كثر صوابه، وعلم تحريه للحق، واتسع علمه وظهر ذكاؤه، وعرف صلاحه واتباعه نغفر له زلته ولا نضلله ونطرحه وننسى محاسنه»[٣].

وقد بين ابن سيرين رضي الله عنه الله عنه ما يجب على العلماء نحو هذه الآفة الخطيرة

---

(١)النساء: ٥٤.

(٢)يوسف: ٨.

(٣)انظر: كتاب إنصاف أهل السنة والجماعة، لمحمد بن صالح العلي ص ٢٨.

(الحسد) بقوله: «ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا، لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة؟ وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار؟».

وينبغي أن يكون طابع العلماء العاملين - وإن بعدت ديارهم - الإحساس بالأخوة والتواد والاعتراف بذوي الفضل وإعطاؤهم حقهم من التقدير والتكريم، وإظهار فضلهم بين الناس، فذلك أجدى من الحسد، وأحق بالاستصبار والاعتبار.

٥ - الحاجة إلى التفاهم:

«إذا كنت ترغب في إيجاد تواصل مثمر وجيد، يعود عليك وعلى الآخرين بالنفع، فيجب أن يأتي فهمك للآخرين قبل كل شيء».

ونحن - الإسلاميين - نود أن تتصل حبال الود بيننا وبين كل الناس في المجتمع الإسلامي أولاً، وفي المجتمع الإنساني ثانياً، بحيث يفهمون فهماً صحيحاً واضحاً ما نحمله إليهم من رسالة الإسلام، التي جاء بها محمد بن عبد الله ﷺ للناس كافة، ولهم بعد ذلك أن يختاروا ما يريدون.

ولن يكون هذا التواصل - إن تم وتحقق - مثمراً إلا إذا بني على أساس من الفهم للآخرين، فهم النفسيات بعد معرفة الأهداف والبواعث التي تحرك هذه النفسيات، وفهم علاقات الترابط بين بعضها البعض، ومدى متانة هذا الترابط أو وهنه، وفهم العوامل المادية المؤثرة في حياة فرد أو حزب أو جماعة أو مؤسسة، وفهم العوائق التي تقف أمام الناس مانعة إياهم من قبول الانخراط في سلك الحركة الإسلامية، خوفًا على مكتسباتهم المالية وعوائدهم المادية من أن تمس أو تتوقف أو تتأثر.

إن المجتمعات الإسلامية فيها تيارات متضاربة متناقضة أحياناً، وفيها تيارات متوازية لا تتناقض، ولكنها لا تتلاقى أحياناً أخرى، وفهم الحركات لهذا التيار أو ذاك بكل ما يتصل به ويدور حوله أمر ضروري، إن أردنا الوصول معه إلى أرضية مشتركة يقف الجميع فوقها، دون تراشق بالتهم أو بالسباب والتشهير.

إن الفهم الصحيح الواضح لمواقف الآخرين هو الأساس الأول لكل تحرك دعوي، تنتظر منه ثمرة صحيحة ناضجة، وإن سوء التقدير لمواقف الآخرين قد يجر على الدعوة بلاء هي في غنى عنه.

وهنا لتوضيح الصورة نذكر قصة اجتماعية يذكرها أخصائي غربي في علاجه لمشكلة بين زوجين فيقول ما خلاصته: إنه عالج قصة زوجين قضيا معاً العشر سنوات الأولى من زواجهما في حالة من الإحباط والخلاف بشأن حالتهما المادية، فلم يكن الزوج يدري سر احتفاظ زوجته بأي مبلغ زهيد يصل إلى يدها، ولم تكن الزوجة تدري سبب الحرص على إنفاق كل مبلغ يصل إلى يد الزوج، وقد ضاع أي تفكير عقلاني بينهما في غمار شعورهما بالإحباط. ولم يكن أي من الزوجين يشعر بتفهم الطرف الآخر له، لأن كليهما كان يتصرف على هواه من غير أن ينصت باهتمام إلى الطرف الآخر، فانقطع التفاهم بينهما بخصوص هذه المشكلة، فلما حاول إقامة تفاهم بينهما تبين أن الزوجة تخشى من الإفلاس الذي وقع فيه أبوها من قبل، وهي تدخر كل ما يصل إلى يدها حتى تجنب زوجها المشكلات، وتبين أن الزوج يريد أن يعوض زوجته بعض الشيء عن الفترة التي قضتها في بيت أهلها بعد إفلاسه، فلما مدت جسور التفاهم والتواصل بينهما عاشا سعيدين، وأظن أن هذا التفاهم بين الحركة الإسلامية والمؤسسات الأخرى أمر مطلوب، بل هو أمر لا مفر منه إن أردنا إنهاء حالة الصراع أو حالة التحفز للصراع الموجودة الآن.

وليس السعي للفهم بابا لمعرفة أخطاء الآخرين والتنديد بهم، ونشر ما وقعوا فيه من أخطاء بين الناس، فذلك ليس مقصوداً ولا يؤدي إلى نتيجة طيبة، بل قد يؤدي إلى تفاقم الاختلاف، وزيادة شقة البعد والانفصال، وبالتالي استمرار التمزقات التي لا تنتهي إلا حين يأكل بعضها بعضاً.

وإنما السعي للفهم الصحيح هو الذي يؤدي إلى إقامة تواصل فعال، مبني على الاستعداد لسماع حجة الآخرين وإنصافهم، وتقدير مواقفهم وتصرفاتهم، والاتفاق

على الوصول إلى أحسن الطرق المؤدية لصالح الفرد والجماعة.

لقد كان الفهم الصحيح للأفراد والجماعات دأب رسول الله ﷺ حيث عامل أبا سفيان يوم الفتح معاملة من يفهم نفسية الآخرين ويحقق لهم ما يرغبون بدون أن يكون في ذلك شيء على حساب الدين فقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[1]، وعامل عبد الله بن أبي ـ رأس النفاق ـ معاملة حسنة رغم مواقفه السيئة من الدعوة والداعية، وأبى أن يقبل رأياً بقتله وقال: «لا يتحدث أن محمداً يقتل أصحابه»[2] وعاش مع المنافقين في المدينة دون أن يفضحهم بأسمائهم، أو يسيء معاملتهم رغم كيدهم المستمر له ولدعوته. وسالم وحارب وعاهد وعاقد، بناء على فهمه لطبائع الأفراد والجماعة، ولمعرفة الدوافع والأهداف لديهم، وكان دائماً على استعداد لتوقع ما يحدث منهم بناء على فهمه لهم ومعرفته بهم، وكان دائماً مستعداً للتصرف معهم بناء على تصرفاتهم التي يتوقعها منهم فلا يفاجأ بها عند حدوثها، ولا يستغربها في وقتها.

ولهذا فمن واجب الحركة الإسلامية أن تفهم الأفراد من حولها، وأن تفهم الأحزاب والمؤسسات الرسمية أو غير الرسمية، وتمد جسوراً للتفاهم معها لعلها تحقق بذلك بعض ما تريد.

٦ ـ الدرس النظري والتطبيق العملي:

لا بأس من مراجعة مواقفك تجاه العملية الدراسية، وتأكد أنك لم تدخر وسعا في سبيل الوصول إلى مبتغاك، وأن لديك من البواعث ما يجعلك تواظب على مسعاك حثيثاً، فكر في عائلتك، في مستقبلك، في مكانتك بين أقرانك وأمام أساتذتك، فلا تدع حجة لأحد منهم يؤاخذك بها على تقصيرك، حاسب نفسك قبل أن يحاسبك الآخرون، لا تدخر جهداً، فكل خطوة تخطوها تقرب إليك المنى، وتقربك من الفوز المنشود .

هذه وصية أحد رجال التربية لدارسي علوم الحياة، وحري بها أن تكون موجهة

(١)أخرجه مسلم (١٧٨٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢)أخرجه البخاري (٣٥١٨) ومسلم (٢٥٨٤).

للعاملين في مجال الدعوة الإسلامية، الذين عليهم أن يراجعوا مواقفهم وأعمالهم ووسائلهم، التي يتخذونها مسلكاً للوصول إلى إقامة شرع الله في الأرض، وتعبيد الناس لله، لأن المواقف والأعمال والوسائل قد تتغير، وقد تصبح في وقت من الأوقات غير مناسبة لتطورات الحياة، أو قد تتغير تبعاً لتغير نظرة العاملين، وسعة مداركهم وانفساح المجال أمامهم.

وأخذ كل حالة بما يناسبها والتصرف في كل أمر بما يقتضيه من بدهيات العمل الإسلامي، الذي قرره عمر بن الخطاب حين كتب إلى أبي موسى الأشعري كتابه الشهير في القضاء، وفيه يقول: «لا يمنعنك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه إلى الحق، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل»، ومراجعة العاملين للأساليب والوسائل التي سارت عليها الدعوة منذ عشرينيات القرن العشرين حتى الآن سيكشف للمهتمين بعض أوجه القصور، التي جعلت كثيراً من الآلام تصيب رجال الدعوة، وربما كان من الممكن لبعضهم على الأقل أن ينجوا منها دون أن يفرط في دينه أو يخسر في دنياه.

المراجعة إذن ضرورة لا غنى عنها، فقد تكشف ـ كذلك ـ عن أسباب بعض العلل التي تصيب العاملين في بعض الفترات فيتجمدون في مواقعهم، أو يبتعدون عن المسار والهدف قليلاً أو كثيراً، ومن الذي لا يشكو من فتور بعض العاملين، أو ضعف همتهم، أو كسلهم وعجزهم أو بخلهم وترددهم وتسويفهم؟

إن غاية الإسلاميين هي إعلاء كلمة الله، وفي سبيل هذه الغاية عليهم ألا يدخروا وسعا. فهل بذلوا كل ما يستطيعون وخاصة أن باعثهم على هذا البذل هو أقوى البواعث وأعلاها وأشرفها؟

إنه رضوان الله وطلب مثوبته، والفوز بجنته، وهذه سلعة غالية الثمن تشترى بالأنفس والأموال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[1].

---

(١)التوبة: ١١١.

ولئن كان دارسو الحياة يفكرون في مستقبلهم وعائلاتهم ومكانتهم بين زملائهم فإن العاملين للإسلام يفكرون في موقفهم أمام ربهم، وفي محاسبة الله لهم على ما قدموه لأنفسهم من خير أو شر، وهو حساب عادل، لا يفر منه أحد، ولا تفريط فيه لكبيرة أو صغيرة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[1].

﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[2].

إن وقفة جادة مع النفس قد تكشف عن طاقة كامنة في الإنسان لم تستغل، أو قوة وقدرة في أحد مجالات الحياة لم تستعمل، أو تصرف قد يبعد بعض الأضرار، أو كلمة قد تبعد الغفلة عن بعض الناس، أو غير ذلك مما له أثر في نشر الدعوة الصحيحة بين الآخرين.

ولا يتم ذلك إلا بالتصميم على المضي في الطريق، والعزم والاستمرار فيه، واتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، والتخلي عن الأماني الغرورة، واختيار أيسر السبل وأسلسها للوصول وأقربها لتحقيق المراد من اتخاذ القرار.

وإذا راجع كل أحد نفسه وراقب تصرفاته، وعمل بجد وإخلاص، من غير أن يحيد عن هدفه أو ينحرف عن طريقه، وحاسب نفسه على ما قدمه للدعوة، بعد أن تخلص من أشواك الطريق، وعرف كفاءته فعمل بها، وقدرته فاستغلها، فإنه بذلك يقترب من الأمل المنشود وهو إظهار دين الله على الدين كله، وإن كره ذلك غير المؤمنين، والحمد لله رب العالمين.

٧ ـ الهروب:

الجماعات الإسلامية تحمل على عاتقها راية المناداة بإقامة المشروع الإسلامي الذي يسع المسلمين أجمعين، بل يسع الناس جميعاً، وهي بذلك ترتاد الطريق الذي سلكه

---

(١) الزلزلة: ٧، ٨.

(٢) الكهف: ٤٩.

أتباع الأنبياء من قبل، وتواجه بعض الصعوبات التي اعترضت طريق المرسلين والصديقين على امتداد دعوة الإسلام منذ نوح إلى اليوم، لأن رسالة الأنبياء كلهم واحدة في أصولها، إن اختلف بعض فروعها من رسالة إلى أخرى، والرسالة الخاتمة كانت مسك الختام للرسالات السماوية، وكان أصحابها هم المتمسكون بالحق، السائرون على الجادة، تستقيم لهم النفوس والظروف بقدر استقامتهم على الإيمان، فبقدر قربهم من الدين تعلو منزلتهم وتتآلف قلوبهم، وبقدر بعدهم عن الدين تهبط مكانتهم وتتنافر منهم القلوب، وإذا تنافرت القلوب صعب التئامها وجبر كسرها .

إِنَّ القُلُـوبَ إِذَا تَنَـافَرَ وِدُّهَـا ... مِثْلُ الزُّجَاجَةِ كَسْرُهَا لاَ يُجْبَرُ

وإذا زاد هذا التنافر أصبح أحد أسباب خروج بعض العناصر بعيداً عن الصف، لا لضعف إيماني من هذه العناصر ولا لهوى أرضي أو مغنم مادي أو مكسب سياسي، وإنما لغياب معلومات أو اختلاف في وجهات النظر، أو لأن الجماعة ذات منهج لا يستوعب في تفاصيله آمال كل الأفراد، أو لأنها ذات قيادات لا تفتح المغاليق أمامهم، أو لأنها وقفت من بعض الأحداث موقفاً لم تكن له جذور شرعية واضحة، أو لأنها تباطأت في اتخاذ قرار حتى فاتت فرصته فعادت تبحث في كيفية علاج موقفها منه، أو غير ذلك من الأسباب، التي تكون دافعاً لخروج البعض من الصف الإسلامي .

وهؤلاء الخارجون قد يكونون خارجين بالفعل أو بالقوة ـ كما يقول المناطقة ـ أما الخارجون بالقوة، فهم الذين يكتفون ببعض المشاركات، ويساهمون مع جماعتهم ببعض المساعدات، ثم هم بعد ذلك لا يسند إليهم عمل، ولا يحمل عليهم عبء، إنهم يعملون أعمالاً صغيرة مقابل أن يظلوا مستمرين في ظلال الدعوة والحركة، أما أن يعملوا بكامل طاقتهم وكل قوتهم في سبيل دفع الحركة إلى الأمام فذلك بينهم وبينه بعد شاسع وبون بعيد، فكأنهم خارج الحركة وإن كانوا في داخلها، إنهم خارجون بالقوة لا بالفعل، لأنهم أرادوا ذلك لأنفسهم .

أما الخارجون بالفعل فهم أحد هؤلاء : خارج يريد أن يكفي نفسه مؤنة العمل مع

أى جماعة، وهذا يقضي وقته بعد الخروج كما يعيش بقية المسلمين في المجتمع، لا يشارك في شيء، ولا يعنيه أمر من أمور الدعوة أو الحركة الإسلامية .

وخارج آخر لا ينضم إلى جماعة أخرى من الجماعات، ولكنه لا يكتفي بالرؤية ومشاهدة المجتمع حوله، بل يشارك بالرأي في قضاياه كاتباً أو محاضراً أو محاوراً، دون أن يتعرض للجماعة التي فارقها بغمز أو لمز، ولا بنصرة أو تأييد .

وثالث:خرج ليكون مشروعاً إسلامياً جديداً يعبر عن وجهة نظره التي تخالف وجهة نظر جماعته، ويرى أن وجهة النظر التي يتبناها هي الأصوب والأحسن والأنسب لمواجهة الأحداث الجارية، وروح العصر القائمة مع حرص هؤلاء جميعاً على عدم المساس بجماعتهم التي خرجوا منها وعدم توجيه التهم إليها أو محاربتها والسعي في الكيد لها.

والرابع:شخص أو أشخاص من الخارجين ليس همهم غير الطعن واللمز في جماعتهم وفي جماعات غيرها، وأصبح ذلك كل عملهم، فقد كانوا يقربون الناس من الدين، فصاروا بالطعن والتجريح في الآخرين من إخوانهم ينفرون الناس من الانضمام لأي جماعة دينية .

ومحصلة الأمر أن الجماعة عليها أن تراجع موقفها، وأن تحاسب نفسها، لتعلم سبب خروج هؤلاء الخارجين فتعالجه معالجة حكيمة، كي يبقى صفها ملتئماً إن لم يكن كالبنيان المرصوص، وأن تمد أيديها لهؤلاء:تعين العاملين، وتظل لها علاقة بغير العاملين تقوم على المودة والألفة، فلا تنقطع خيوط الاتصال بينها وبينهم، ولعلهم يعودون للصف إن أصلحت الجماعة ما كان سبباً في خروجهم ولو كان شيئاً هيناً يسيرا، ولقد كان عمر بن الخطاب حريصاً كل الحرص على نفوس المسلمين، فلا يزج بهم في ميدان الجهاد إلا وقد أعد للنصر عدته واتخذ له أسبابه، وكان يقول :«وددت لو كان بيننا وبين هؤلاء ـ يقصد المشركين ـ جبل من نار فلا يصلون إلينا ولا نصل إليهم» وكان ذلك منه حرصاً على سلامة الأنفس. والجماعة الإسلامية لا ينبغي أن يقل

حرصها على سلامة صفها ومتانة بنائه من الأفراد عن هذا الحرص العمري، ولذلك فمعالجة حالات الخروج هذه بحسب ما تقتضيه كل حالة يؤدي في النهاية إلى ثبات الصفوف وإلى زيادة نموها، ومنع التسرب والخلل بينها، أو الخروج منها بالفعل أو بالقوة .

ذلك لأن دور الحركة الجادة محاولة الاستفادة من كل طاقة موجودة في إطارها، وليس الخروج من الإطار التنظيمي للحركة جريمة في حقها أو دليلاً على ضعف إيمان صاحبه، أو اعوجاج مسلكه، أو رغبته في حب الدنيا، وليس للخروج من الجماعة صورة واحدة، ففي النظرة الواقعية قد نجد من هم خارج الصف يخدمون المشروع الإسلامي خدمات كبيرة، وقد نجد من داخله من يَضِنُّون بجهودهم وعملهم وسعيهم .

ويبقى على الجماعة أن تستفيد من كل القدرات والطاقات وأن تأخذ بمبدأ «كل ميسر لما خلق له».

٨ ـ إلى السائرين في الطريق:

لنكن أدلاء: تعالوا إلى كلمة سواء، تعالوا إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، تعالوا إلى حيث المحجة الواضحة ليلها كنهارها، تعالوا فكتاب الله يناديكم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾[1] تعالوا نقم في الأرض منهج الحق، ونعل فيها ذكر الله، ونرفع راية القرآن الكريم، لتلتف من حوله القلوب، وتعمل به الجوارح، وتعيش في إطار هدايته البصائر والأبصار.

تعالوا نسر خلف رسول الله ﷺ وصحابته، فيسعنا ما وسعهم، ويجمعنا ما جمعهم، ونحن أحوج منهم إلى هذا الاجتماع الذي به حياة الأمة وقوتها، وبغيره موتها أو ضعفها، وتأخر نمائها.

تعالوا نجعل علمنا أنموذجاً يحتذى، وقدوة تتخذ، لتسير على هدي منه فصائل

(١) النساء: ١٧٤.

المجتمع وشرائحه الأخرى، التي تبحث عن البديل، ولا تجد الدليل، فلنكن - نحن - بعملنا أدلاء على الطريق، دون منّ أو أذى، ولن نكون كذلك ونحن نتناحر، أو نتعارض، أو لا يأخذ بعضنا بيد بعض، فلا يكون لنا بنيان مرصوص أو غير مرصوص، إن اللبنات المبعثرة لا تسمى بيتاً، وإن الحيطان المتشققة، لا تحجب ستراً، وإن الجماعات المتضاربة لن تكون مؤسسة سوية، يرضى بها الآخرون.

وما لم نلمّ شعثنا، ونزل فرقتنا، وتتوحد الجهود في الاتجاه الصحيح، فلن تتغير الأحوال، وسوف يبقى سيرنا على المنوال نفسه، الذي تكثر فيه الأحاديث وتقل الأعمال.

فلنلتق في ضوء الحق، ولنعمل معاً على إصلاح سفينة النجاة قبل مجيء الطوفان.

أ- نداء إلى الذين تركوا الصف الإسلامي:

أيها الأحباب الكرام، لقد كنتم يوماً ما عموداً من أعمدة الصف الإسلامي، تحملون بعض عبئه، وتبذلون جهودكم لنصرته، وبيان محاسنه للأمة كي تأخذ بمبادئ الإسلام، فتخفف عنها إصرها والأغلال، ويوم تخليتم عن الصف - راضين أو كارهين - بقي مكانكم شاغراً ينتظر عودتكم وينتظرها كذلك إخوان لكم، يحبونكم ويودون أن تكونوا لهم عوناً وردءا، وأن تكونوا معهم من العاملين المخلصين، وأن تمدوا أيديهم الممدودة، وأن تلتقي السواعد على العمل من أجل هذه الدعوة المباركة، التي لا ينهض بها إلا من اتقى وصبر: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾[1]، وأمر الدعوة بعد الأنبياء والمرسلين، ليس موكولا إلى الأفراد، وإنما هو موكول إلى الجماعة يقوم به من أبنائها من يجد في نفسه غيرة على الدين، وحرصاً لإظهار نور الله على العالمين.

وأنتم - بحمد الله - قد عرفتم الطريق، وذللتم بعض صعوباته، وذقتم فيه حلاوة الإيمان، حين عملتم على السبق في حب الله ورسوله، وأحببتم إخوانكم في الصف حباً

(١) يوسف: ٩٠.

لله وفي الله، وكرهتم أن ترجعوا عن معتقدكم كراهة من سيلقى في النار، ولذا فالعودة إلى الركب واجبة، والعمل على إصلاح خرق السفينة واجب، وعودة اللبنات إلى مكانها في الصف إعلاء للبناء وقربة إلى الله، فهيا إلى الصف من جديد، وإنا لمنتظرون.

ب ـ ونداء إلى الذين يختلفون معنا في أساليب الدعوة وحركتها:

لو سألنا أي جمعية أو حركة منتمية للإسلام عن أهم أهدافها وأغلى أمانيها، لما اختلفت الإجابة كثيراً، لأن أهم الأهداف وأغلاها هو العمل للإسلام، ولكن سبيل الوصول إلى هذا الهدف الموحد متعرجة أحياناً ومتداخلة أحياناً، ومتباينة أحياناً أخرى، ولكل جماعة سبيل وطريق تؤمن به وتسير على دربه، ولا بأس من ذلك إن لم يعق بعضنا بعضاً، وإن لم يهاجم بعضنا بعضاً بالكلام، وقد يصل الهجوم في بعض الأحيان إلى الإيذاء بالأيدي، مما يجعلنا عرضة لقول القائل:

وفِيمَ يَكِيدُ بَعْضُكُمُ لِبَعْضٍ وَتُبْدُونَ اَلْعَدَاوَةَ وَالخِصَامَا؟!

فأين هذا من قول الله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[(١)] وأين هذا من الدعوة للمسلمين بظهر الغيب، لترد الملائكة على صاحبها «ولك بمثل» وأين هذا من حب الخير للمسلمين، انطلاقاً من قول الرسول ﷺ: «وأحب لأخيك ما تحب لنفسك تكن مؤمناً»[(٢)]؟

وأين هذا من قول الله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[(٣)] فهل التقاطع والتدابر والمكايد داخلة في النهي أم لا؟!!

إن الجهود القليلة حين تلتقي تصير كثيرة مثمرة، والجهود الكثيرة حين تتبعثر يضيع صداها، فهل تلتقي جهودنا وجهود إخواننا من العاملين في ساحة الإسلام العظيم؟

٩ ــ الدعاة والتعاقب:

الأجناس والأنواع والأشياء يتعاقب عليها الخير والشر، وما يسوء وما يسر، وما

(١) الحشر: ١٠.

(٢) حديث صحيح، تقدم تخريجه.

(٣) المائدة: ٢.

ينفع وما يضر، وهذا التغير والتبدل يؤثر فيها نوعاً من التأثير، قد يصل إلى درجة التوقف، والاندثار والفناء، وقد لايؤثر فيها إلا كما تؤثر الرياح في الصم الصلاب، وقد لاحظ الشاعر الجاهلي امرؤ القيس ذلك في بقايا الدمن والأطلال التي وقف عليها ليذكر أهلها، وبين أنها ثابتة باقية لأن رياح الجنوب التي تسفي عليها الرمال، تعقبها رياح الشمال التي تزيح هذه الرمال عنها فتبقى الآثار شاهدة على أهلها أطول مدة ممكنة، قال قصيدته :قفا نبك:

فَتُوضِحَ فَالْمِقْرَاةِ لَمْ يَعفُ رَسْمُهَا ... لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ

والإنسان يعتريه التغيير، ويتقلب على حياته العسر واليسر، ويمتحن ويبتلى بالشدة والرخاء، والغنى والفقر، فمنهم من يسقط بالاختبار، ولا عرف أن التعاقب سنة الأحياء والأشياء ومنهم من يتماسك، وإن اشتد اختباره وزاد بلاؤه واصطباره.

والدعاة إلى الله هم أشد الناس احتياجاً لفهم مثل هذه السنن، والتعامل معها بالرضا والأمل، مدركين أن مع العسر يسرا، فقد يحاربون في أرزاقهم أو يصيبهم طول الطريق بشيء من الفتور، أو يصيبهم ضعف الهمة، أو غير ذلك من عوامل التثبيط، فلا ينبغي أن يستسلموا لها، لأن هذه الحالات لا تبقى ولا تطول عند إنسان إلا إذا أراد صحبتها وأراد بقاءها، فسنة التعاقب التي أوجدها الله في كونه قد تأتي بالغنى بعد الفقر، وبالفرج بعد الشدة، وقد تبعث فيمن أصابه الفتور الهمة من جديد، فيكون له على الدعوة إقبال ما عليه من مزيد، والرسولﷺ أشار إلى شيء من ذلك حين قال: «يبتلى الرجل على حسب دينه»[1].

وما على الدعاة خاصة، والناس عامة إلا الصبر ومدافعة أسباب الضعف بالطرق المشروعة، وفي مقدمتها الالتجاء إلى الله والضراعة إليه، والامتثال لأوامره، والرضا

(١)أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وأحمد (١/ ١٧٤) وابن حبان (٢٩٠١)، والحاكم (١/ ٤١) عن سعد بن مالك رضي الله عنه، وصححه ابن حبان والحاكم، ولفظه: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الناس على حسب دينهم... وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشي في الناس ما عليه خطيئة».

بقدره، مع الإحساس بتماسك النفس حتى لا تطير شعاعاً أمام النازلات، بل لا بد لها من التجلد الذي يعصم من الزلل، ويحمي من السقوط.

وكثيراً ما كان معاوية يتجلد حين تنزل به التنازلات، ويتصبر أمام الملمات، ويتمثل ببيت أبي ذؤيب الهذلي:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهُمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ

وكان لموقفه المتجلد هذا أثر في تحقيق ما يصبو إليه وما يريده.

ولا ننسى في ذلك أن نقرر أن الاستحياء من تناول النافع المفيد والأخذ به يضر بصاحبه في بعض المواقف، ويشين تصرفه في مواقف أخرى، لأن الحياء يمنع الإنسان من ارتكاب القبيح، فإذا منع من ارتكاب الجميل فقد أضر بصاحبه، ومنع عنه الخير الكثير، وسهل الشدائد أن تتغلب عليه، وأن تأخذ بخناقه.

وسيرة السلف الصالح فيها نماذج كثيرة دالة على أن الحياء يحول بينهم وبين تحقيق الخير حتى ولو بصورة لم يألفها الناس.

وهذا أحمد بن أم مكتوم، أحد الفضلاء العلماء، يجلس وهو متقدم في السن، مقدم لدى الناس، يجلس لسماع الحديث من الشيوخ المحدثين، ويعيبه قوم لذلك فيدفع تهمتهم بشعر جيد جميل يقول فيه:

وَعَابَ سَمَاعِي لِلْحَدِيثِ بُعَيْدَ مَا ... كَبِرْتُ، أُنَاسٌ هُمْ إِلَى الجَهْلِ أَقْرَبُ

وَقَالُوا: إِمَامٌ فِي عُلُومٍ كَثِيرَةٍ ... يَرُوحُ وَيَغْدُو جَاهِداً يَتَطَلَّبُ

فَقُلْتُ مجِيبًا عَنْ مَقَالَتِهِمْ، وَقَدْ ... غَدَوْتُ لِجَهْلٍ مِنْهُمُ أَتَعَجَّبُ

إِذَا اسْتَدْرَكَ الإِنْسَانُ مَا فَاتَ مِنْ عُلا ... إِلَى العِلْمِ يُعْزَى، لاَ إِلَى الجَهْلِ يُنْسَبُ

وهذا الإمام البيروني أحد العلماء الأعلام، يدخل عليه بعض الفقهاء يعودونه في مرض وفاته، فإذا به يعتدل ويسأل مسألة في علم الفرائض أشكلت عليه، ويريدون أن يؤجلوا الإجابة عنها والنقاش حولها لأن صحته لا تتحمل، فيقول لهم : لأن ألقى الله وأنا عالم بها أحب من أن ألقاه جاهلاً بها.

بهذا التجلد، وبهذه الهمم، وبهذا الحرص على العلم والحق ولو لم يألفه الناس يتم التعاقب، فتزول الشدائد والعسر، ويعود الرخاء واليسر، وتستمر الحياة على الخير والهدى والفلاح.

*****

الفصل الثاني
تأملات في
المشروع السياسي الإسلامي

أولاً:
حكم الصلح مع اليهود

إن الصراع المعاصر بين المسلمين واليهود من أعظم ما مرت به الأمة المسلمة من المحن في تاريخها الطويل؛حيث جاء هذا الصراع والأمة المسلمة تعيش ضعفًا وتفرقًا لم يسبق لهما مثيل في تاريخها، واليهود ينعمون بقوة وهيمنة عالمية لم يسبق لهم أن نعموا بمثلها.والمقام ليس مقامًا تفصيليًا لأسباب ومظاهر ضعف المسلمين ولا مقام بيان وإيضاح لأسباب وصور قوة اليهود، وإنما أحببت أن أشير إلى ذلك حتى يوضع هذا الصلح في سياقه الطبيعي من الأحداث، وأحب أن أشير هنا في هذه المقدمة المقتضبة إلى أمرين:

الأول : أن الحديث عن حكم الصلح مع اليهود لا يراد به النيل من أحد أو التقليل من شأن رأي آخر. لكن الدافع الرئيسي لذلك هو أداء أمانة التبليغ عن الله ورسوله وبيان الحق الذي أخذ الله على أهل العلم بيانه والتحرج من كتمانه في قضية تعتبر من أهم قضايا الأمة المعاصرة.

ومن المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القائل يقول من الأقوال مهما كان فضله وعلمه لا يلزم الآخرين الأخذ بقوله ما لم تقم عليه الدلائل الواضحة من كتاب الله وسنة رسوله؛ إذ إليهما المرجع عند الإختلاف ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[١] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومسائل الاجتهاد لا يسوغ فيه الإنكار إلا ببيان الحجة وإيضاح الحجة لا الإنكار المجرد المستند إلى محض التقليد، فإن هذا فعل أهل الجهل والأهواء»[٢] .

---

(١)النساء: ٥٩.

(٢)الفتاوى (٣٥/ ٢١٢).

الثاني: أن الظروف المعاصرة إسلاميًا وعالميًا قد تبدلت وتغيرت تبدلاً كبيرًا عن الظروف التي اجتهد الفقهاء فيها لبيان أحكام الحوادث والنوازل؛ لذلك يجد الباحث من الصعوبة بمكان البحث في هذا الأمر. ولولا أهمية الأمر وحاجة الناس وغلبة الظن أن الباحث فيه سيسهم بإذن الله تعالى في بيان حكم الله في هذه النازلة بل في هذه الفاقرة لما كان الحديث ولا المشاركة.

وقبل الحديث عن حكم الصلح مع اليهود لابد من ذكر أقسامه لينجلي الأمر ويكون أكثر وضوحًا إن شاء الله.

١ ـــ أقسام الصلح:

أ ـ الصلح الدائم: والمراد به:

إنهاء القتال والعداوة بين المسلمين وغيرهم من الكفار وإحلال علاقة السلام والوئام والتعاون مكان علاقة الحرب والصراع والعداوة للأبد. وهذا القسم يتصور له عدة صور منها:

الصورة الأولى: أن يهاجم المسلمون ديار الكفار ويضيقون عليهم، فيطلب الكفار من المسلمين الصلح ويسلمون لهم البلاد على أن يوقف المسلمون القتال كفتح بيت المقدس ودمشق في زمن عمر رضي الله عنه ويدفعون للمسلمين الجزية ويخضعون لسلطان الإسلام في الجملة ولا ينالون من المسلمين ولا يبغونهم غائلة، وهذا جائز بنص القرآن ما استقام الكفار على شروطه ولم ينقضوا شيئًا من بنوده والتي منها: دفع الجزية، والنصح للمسلمين، وعدم السعي لتحويل المسلمين عن دينهم، والسماح للدعوة بالانتشار بينهم. قال ابن القيم: «الكفار إما أهل حرب، وإما أهل عهد، وأهل العهد ثلاثة أصناف: أهل ذمة، أهل هدنة، أهل أمان، ولفظ الذمة والعهد يتناول هؤلاء كلهم في الأصل وكذلك لفظ الصلح»[1].

الصورة الثانية: أن يهاجم المسلمون الكفار ويغزوهم في ديارهم ثم يطلب الكفار

(١)أحكام أهل الذمة (٢ / ٤٧٥).

من المسلمين الصلح الدائم، على أن يبقى الكفار في أرضهم وعلى كفرهم والمسلمون في أرضهم وعلى إسلامهم ولا يلتزم الكفار شيئًا من الأحكام التي في الصورة السابقة. وهذا الصلح باطل لا يجوز، لأمور منها: أنه عطل فريضة الجهاد التي أخبر الرسول ﷺ أنها باقية إلى يوم القيامة. ومنها: أنه خالف أمر الله الذي أوجب القتال حتى يسلم الكفار أو يدفعوا الجزية، وهو ما لم يتحقق في هذه الصورة. ومنها: أنه عطل فريضة الدعوة التي أوجبها الله على الرسول والأمة من بعده. ومنها: أنه أقر الكفر وأهله على باطلهم وسلطانهم في الأرض. قال ابن تيمية: «إن النبي ﷺ قبل نزول براءة وآية الجزية كان الكفار من المشركين وأهل الكتاب تارة يقاتلهم وتارة يعاهدهم فلا يقاتلهم ولا يسلمون، فلما أنزل الله براءة وأمره فيها بنبذ العهد إلى الكفار وأمره أن يقاتل أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون صار حينئذ مأمورًا بأن يدعو الناس إلى قتال من لابد من قتالهم أو إسلامهم وإذا قاتلهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية لم يكن له حينئذ أن يعاهدهم بلا جزية كما كان يعاهد الكفار من المشركين وأهل الكتاب كما عاهد أهل الحديبية»[1].

الصورة الثالثة: أن يهاجم الكفار ديار المسلمين ويقتطعوا جزءًا منها ويقتلوا أو يسبوا أو يشردوا ويحولوا الأرض من دار إسلام إلى دار كفر ويستوطنونها كما فعل اليهود في فلسطين، ثم يطلبون من المسلمين الصلح والسلام الدائم على أن يقروا على حالهم وفي الأرض التي استولوا عليها. وهذا الصلح الدائم لا شك أنه حرام وباطل؛ للأسباب التي ذكرت في الصورة الثانية بل هي هنا أولى وأيضًا لأسباب أخرى منها: إقراره أي الصلح لولاية الكفار على المسلمين وهو محرم بالإجماع، ولذلك حرم الشرع زواج المسلمة من الكافر؛ لما للزوج على زوجته من ولاية، وكذلك حرم تملك الكافر للرقيق المسلم، بل نزع من الكافر ولاية تزويج قريبته المسلمة فكيف يتصور صحة عقد صلح يؤدي إلى دخول المسلمين تحت ولاية الكفار المطلقة.

---

(١)منهاج السنة النبوية (٨/ ٥١٢،٥١١).

وكذلك من أسباب بطلان هذا الصلح إقراره ولاية الكفار وسلطانهم على أرض وديار كانت بأيدي المسلمين، ذلك أن الإجماع قائم على أن الكفار إذا استولوا على بلد إسلامي وجب على المسلمين إخراجهم منها عند القدرة. وهذا الواجب يبتدئ بأهل البلد ثم الأقرب فالأقرب حتى يشمل جميع المسلمين فإن لم يفعلوا أثموا جميعًا.

قال الماوردي: «القسم الثالث أن يدخل العدو بلاد الإسلام ويطأها، فيتعين فرض قتاله على أهل البلاد التى وطئها ودخلها، فإن لم يكن بأهلها قدرة على دفعه تعين فرض القتال على كافة المسلمين حتى ينكشف العدو عنهم إلى بلادهم وإن كانت بهم قدرة على دفعه لم يسقط بهم فرض الكفاية عن كافة المسلمين ما كان العدو باقيًا في دارهم»[(١)]. ونقل القرطبي: الإجماع على وجوب جهاد الدفع[(٢)].

وقال ابن تيمية: «أما قتال الدفع فهو أشد أنواع دفع الصائل عن الحرمة والدين ولا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه ولا يشترط له شرط بل يدفع حسب الإمكان... ولو ضاق المال عن إطعام الجياع والجهاد الذي يتضرر بتركه قدمنا الجهاد وإن مات الجياع...» [(٣)].

وعلى هذا فالقول بجواز الصلح الدائم مع الكفار مطلقاً قول مردود.

ب ـ الصلح المؤقت:

ينقسم الصلح المؤقت إلى قسمين:

القسم الأول: صلح تحدد مدته في عقده، أي يذكر في عقد الصلح أن مدته عشر سنين أو خمس سنين أو أكثر من ذلك أو أقل، وهذا الصلح جائز عند جمهور علماء الأمة بشروط سنذكرها بعد قليل إن شاء الله. وقد اختلف العلماء في أقصى مدة يمكن أن تكون لهذا القسم من الصلح إذا توافرت شروطه، فمن أهل العلم من قال: إن هذا الصلح لا يجوز أن تزيد مدته على عشر سنين؛ لأن الصلح مع الكفار أمر طارئ على

---

(١)الحاوي (١٤/ ١٤٤).

(٢)الجامع لأحكام القرآن (٨ / ١٥١).

(٣)الاختيارات ص ٣٠٩.

خلاف الأصل، ولحاجة أو ضرورة، فلا يتوسع فيه أكثر مما أثر عن النبي ﷺ وهو عشر سنين في صلح الحديبية. قال الماوردي: «الهدنة أن يوادع أهل الحرب في دارهم على ترك القتل مدة أكثرها عشر سنين»[١]. وقال ابن قدامة: ولا يجوز عقد الهدنة إلا على مدة مقدرة معلومة، وظاهر كلام أحمد: أنها لا تجوز أكثر من عشر سنين، وهو اختيار أبي بكر ومذهب الشافعي؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾[٢] عام خص منه مدة العشر؛ لمصالحة النبي ﷺ قريشًا يوم الحديبية عشرًا فلما زاد يبقى على مقتضى العموم. وقال القرطبي: «قال الشافعي: لا تجوز مهادنة المشركين أكثر من عشر سنين، فإن هودن المشركون أكثر من ذلك، فهي منتقضة؛ لأن الأصل فرض قتال المشركين حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية»[٣].

ومن أهل العلم من قال: إنه يجوز حتى في أكثر من عشر سنين إذا كان في ذلك مصلحة، وهو قول أبي حنيفة، ورواية عن أحمد وقال بها بعض أصحابه منهم أبو الخطاب.

القسم الثاني: صلح مؤقت مطلق، أي لا تحدد له مدة معلومة، بل يقال فيه: متى شئنا نقضنا هذا الصلح بعد يوم أو بعد عام أو بعد ذلك، أو أن يقال في عقد الصلح متى شاء أي من الفريقين نقض الصلح على أن يعلم الآخر وينبذ إليه ولا يغدر به. وهذا القسم من أقسام الصلح المؤقت هو الذي سماه بعض الفقهاء: الصلح المطلق فوهم بعض الناس وظنه الصلح الدائم المؤبد، وَفَرْقٌ كبير بين الأمرين. وممن سماه الصلح المطلق: ابن القيم في أحكام أهل الذمة. وقد رد على هؤلاء الواهمين فقال: «وأصحاب هذا القول كأنهم ظنوا أنها إذا كانت ـ أي الهدنة ـ مطلقة تكون الأزمة مؤبدة كالذمة فلا تجوز بالاتفاق»[٤]. وهذا النوع من الصلح لأهل العلم فيه قولان: فمنهم

---

(١) الحاوي (١ / ٢٦٩).

(٢) التوبة: ٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٨ / ٤١).

(٤) المصدر السابق: ٢ / ٤٧٧ .

من منعه، وهم الجمهور. ومنهم من أجازه، وهو ما رجحه ابن القيم في «أحكام أهل الذمة» مع اتفاقهم جميعًا على عدم صحة الصلح الدائم المؤبد وأنه باطل، إلا إذا دخل الكفار به في حكم المسلمين وذمتهم. قال ابن القيم: «والقول الثاني وهو الصواب أنه يجوز عقدها مطلقة، وإذا كانت مطلقة لم يمكن أن تكون لازمة التأبيد بل متى شاء نقضها... فإنه إذا عقد عقدًا إلى مدة طويلة فقط تكون مصلحة المسلمين في محاربتهم قبل تلك المدة»[1].

٢ ــ شروط صحة الصلح بين المسلمين والكفار:

١ـ أن يكون هذا الصلح مؤقتًا غير مؤبد دائم، وهذا الشرط بإجماع علماء الأمة، كما تبين فيما مضى، وإنما الخلاف هل هذا الصلح المؤقت يجوز أن يكون مطلقًا كما قال بعض أهل العلم أو لابد أن يكون محددًا كما هو رأي الجمهور.

٢ـ أن يكون في هذا الصلح مصلحة متحققة للمسلمين فإن لم يكن فيه مصلحة لهم أو كان فيه مضرة عليهم، فهو صلح باطل.

٣ـ أن يعقد هذا الصلح مع الكفار ويبرمه الإمام الشرعي أو من ينيبه الإمام لهذا الأمر فإن تولاه غيره فعقده باطل.

٤ـ ألا يكون هذا الصلح مؤديًا إلى أن يكون للكفار على المسلمين ولاية وسلطان فإن أدى إلى ذلك، فهو باطل.

٥ ـ ألا يؤدي هذا الصلح إلى تحويل شيء من دار الإسلام إلى دار الكفر مع إقرار المسلمين بذلك وتنازلهم عن هذه الدار للكفار.

وهذا الأمر بالذات هو الذي دفع كثيرًا من علماء المسلمين إلى الفتوى بتحريم التنازل عن أي شيء من فلسطين وحرمة الصلح مع اليهود، ومن تلك الفتاوى فتوى علماء فلسطين في ٢٠/ ١٠/ ١٣٤٣هـ الموافق ٢٦/ ١/ ١٩٣٥م وفتوى علماء الأزهر في ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧م وكان منهم: محمد مأمون الشناوي شيخ الأزهر، ومحمد حسنين

---

(١)أحكام أهل الذمة: ٢ / ٢٤٢ .

مخلوف مفتي مصر، وعبد المجيد سليم مفتي مصر الأسبق، وغيرهم. وفتوى لجنة الفتوى في الأزهر في ١/ ١٩٥٦م وكان منهم محمد حسنين مخلوف، ومحمد شلتوت، وعبد اللطيف السبكي، ومنها فتوى شيخ الأزهر ٢٥/ ٥/ ١٣٧٥ هـ ومنها فتوى علماء المؤتمر الدولي الإسلامي في باكستان وعلماء الباكستان سنة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م، ومنها الفتوى الصادرة في ١٤٠٩ هـ الموافق ١٩٨٩م عن ستين عالماً من أبرز علماء المسلمين في ثمانية عشر بلدًا إسلاميًا.

*****

ثانياً:
أوباما وسقوط الممالك

إن أمريكا نظام ديمقراطي توصل، واستقر على أنه يحكم حزبان: ديمقراطى ليبرالي، وجمهوري محافظ. وهذه نماذج لأحزاب أوروبية حاكمة ونماذج لطبيعة الأنظمة في المجتمعات المدنية ككل.

إن سقوط حزب ونجاح آخر لا يعني تغييراً كبيراً في أمريكا والدول الغربية، وإن كان له أثر بصورة أو بأخرى، باعتبار أن لكل حزب أجندته الخاصة به، لكن كلا الحزبين عندهما أجندة مشتركة تلتقي عليها كل فئات وتقسيمات الأحزاب الحاكمة.

وبلا شك حتى تصل أمريكا وأوروبا إلى هذا الوضع خاضت تجارب كثيرة وتغيرات في البنى السياسية والاجتماعية والعسكرية ودفعت في سبيل ذلك دماء وأموالاً كثيرة.

ومن ثم فهذه الدول عندما تتغير الزعامات الفردية فيها لا تعني انقلاباً في الحكم كما في عالمنا العربي الإسلامي وكما في دول أفريقيا السوداء، فالمؤسسات الدستورية ومراكز البحث الاستراتيجية التي تصنع وتوجه القرار آلات موجودة للدولة وليست للحزب الحاكم.

فلا يتوقع أن تكون هناك تغيرات جوهرية في السياسة الأمريكية المتعلقة بالعالم الإسلامي والعربي، لكن قد تختلف الأولويات في تعامل الإدارة الجديدة مع العالم العربي والإسلامي في طريقة أسلوب التعامل؛ لكن تظل الكليات قائمة؛لأن العالم العربي الإسلامي هو مصدر الطاقة بالنسبة للغرب وأمريكا فلا بد من الحفاظ عليه في إطار الفلك الأمريكي.

فالعالمان يمثلان حضارة تنبع من دين سماوي ساد العالم في فترات قد تطول أو تقصر.

إن الثقافة الإسلامية والعربية تختلف من حيث التجذير والتأصيل والتقعيد عن الثقافة الغربية والأمريكية، فهذه مسلمات عند صانع القرار الأمريكي.

والذي يهمنا ليس التفصيل فيما ذكرنا فله مكانه، لكن الذي يهمنا في موضوعنا اليوم ـ وهو سقوط الأمم أو بقاؤها أو زوالها ـ **المعاني الآتية:**

١ـ الدروس والمعاني المستوحاة من نجاح وسقوط الأحزاب:

المعنى الأول: إن العالم اليوم من الثورة الإعلامية والسماع لكل صوت أصبح التأثير فيه متذبذباً ومتغيراً والتحكم بوسائل كثيرة ليس المال فقط.

المعنى الثاني: إن الحزب الجمهوري كان يخاطب تراثاً وأمجاداً قديمة وحاضرة، أما الديمقراطي فكان يخاطب المستقبل مع فهمه لأرضية الواقع والحاضر.

المعنى الثالث: إن القوة المؤثرة في صناديق الاقتراع لم تعد الزعامات التاريخية ولا الشركات الكبرى المالية، بل قوة الشباب التغيرية، بصرف النظر عن إمكانيتها المادية وإمكانياتها الوجهية، فهي اليوم في النظام الديمقراطي تمثل رقماً كبقية الأرقام.

المعنى الرابع: رغبة الشعوب في التغيير، وحتى لو لم يكن هناك نتيجة واضحة لمن سيغير ولمن سيأتي.

٢ ـ حتمية التغيير وضرورته كحل:

ومن الطبيعي والبديهي أن القديم الذي لا يغير نفسه ولا يقبل التطوير ولا يفكر جدياً في أن يتقدم إلى الأمام تفكيراً وعملاً، من الطبيعي أن يأخذ مكانه في سلة التاريخ، ولا يعني القدم قدم سنوات عدة ولكن قدم جمود وعدم مواكبة للتغيرات المتتابعة والتطورات المتلاحقة؛ فعملية التغيير في حياة الشعوب لا بد منها عبر أشكال مختلفة طبقاً لطبيعة كل عصر، لكن الشيء الثابت والعامل المشترك فيها جميعاً هو النهوض الذاتي وبفعل الإصلاح الداخلي من خلال التمسك بالأصول والثوابت والبناء عليها والانطلاق منها، وما تخلت أمة أو تراجعت عن تراثها إلا وجنت التراجع والخراب والدمار.

المعنى الخامس: طبيعة الدول ـ كما ذكر ابن خلدون في مقدمته الشهيرة (طبعة المكتبة العصرية بيروت) ـ أنه كما للأشخاص عمر طبيعي كذلك للدول أيضاً عمر طبيعي محدد، وعمر الدولة بمثابة عمر الشخص من التزيد إلى سن الوقوف ثم إلى سن الرجوع.

فالدول إذن تمر بأطوار طفولة وشباب وقوة ثم موت، والذكاء من قيادات الدول يكون في كيف تستطيع أن تعيد الكهولة إلى حالة الشباب، وهذا في عالم الماديات موجود قد وصل إليه الناس، فهذه الممثلة والمغنية تجاوزت الـ ٨٠ عاماً من عمرها لكنها بفضل عمليات التجميل تظهر كأنها ثلاثينية.

فإذن القدرة على التجديد ميزة من ميزات القيادات الجماعية والمؤسسية التي رأت بداية الكهولة تدب في أمريكا من خلال استطلاعات الرأي الداخلية والخارجية، فكان لا بد من حركة تغير من أجل الدولة لا من أجل الحزب، ولا بد أن يكون التغيير تغييراً صارخاً ملفتاً للنظر، فنرى أن في داخل الحزب الديمقراطي كانت هناك زوجة كلينتون وهي: تاريخ + امرأة + بياض + سنتور نيويورك + زوج رئيس واضح في معالمه وبصماته، ومع ذلك اختار الحزب رجلاً سنتوراً في ولاية مغمورة أسود اللون ليس له تاريخ أو مال أو جاه ليظهر مدى الرغبة في عملية التغيير.

وما حدث في أمريكا جعلنا نفكر في سقوط الأمم، صحيح أنه لم تسقط أمريكا لا في أيدي الشيوعية ولا في أيدي الرأسمالية لكن في يد الحزب الديمقراطي، ولقد سقطت سقوطاً ملفتاً للنظر وفارق الأصوات لم يكن في يوم من الأيام في مثل هذه الصورة، لكن في الانتخابات الأخيرة أعيد الفرز اليدوي لينجح بوش بأصوات معينة.

فسقوط الحزب الجمهوري ونجاح الديمقراطي جاء لأسباب معينة منها:

السبب الأول: تململ الشعوب من السياسات الهوجاء التي جرتها الأحزاب الحاكمة عليها؛فإن الشعوب تعيش الفقر، والجوع، والمرض، والخوف.. والتخلف الحضاري والفساد الاقتصادي.. فهي مهمومة ومشغولة على مدار الوقت بكيفية تأمين لقمة

عيشها وعيش من تعول، وهذا وغيره كبت لمشاعر الشعوب وعواطفها ومحاصرة لحرياتها في أن تعيش كيفما تشاء وبالطريقة التي تشاء، وقديما قالوا: الكبت يولد الانفجار.

وقد يدفعها ذلك إلى التغيير والمطالبة به من خلال الثورات سواء في أرض المعركة الداخلية أو عند صناديق الاقتراع.

السبب الثاني: حب ممارسة الحرية على أوسع نطاق ممكن. ومن الحرية تغيير السياسات من خلال تغيير القيادات، وهذا ما كان من خلال نظرة سريعة في الانتخابات الأمريكية.

فبعد هذه الملاحظات يكون من المناسب جداً أن نبدأ بالتفكير مع النظر في واقع الأمم السابقة كالممالك الإسلامية وغيرها، وليس ذلك سرداً تاريخياً ولا قراءة لحوادث الزمن الغابر، وإنما المراد وضع سنن البقاء للدول للاستفادة منها وبيان لسنن انتهاء الأمم لتلافيها.

ورجوعاً إلى الدراسات القديمة التي قامت حول سقوط الأمم وانهيار القيادات في العصر الغابر ـ على سبيل المثال الدولتين الفارسية والرومانية ـ نجدها أرجعت ذلك إلى عوامل عدة منها:

أولا: الاختلال الداخلي وتضعضع الأحوال الداخلية للبلاد، فقد كانت تلك الأحوال في الإمبراطورتين سيئة للغاية، وكان التناحر والصراع عنواناً واضحاً للحالة السياسية التي تحياها البلاد، وكان النزاع على السلطة على أشده مما جعل البلاد لا تفيق من صخب انقلاب حتى يغشاها آخر، ناهيك عن الشعب الذي كان ضحية لذلك الصراع بين أبناء أسرة كسرى الحاكمة.

ثانياً: الظلم الذي كان يسلكه الأكاسرة والقياصرة في سياسة شعوبهم ولا أسرع من الظلم في تقويض أركان الممالك، وهو في ذلك أسرع من النار في الهشيم، قال ابن تيمية في فتاواه في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: (وأمور الناس إنما تستقيم مع

العدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وذلك أن العدل نظام كل شيء؛ فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة. اهـ[1].

ويقول ابن خلدون في مقدمته:

«اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها، وإن كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبته، والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين، فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران، وانتقضت الأحوال وابذعر الناس فى الآفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها، فخف ساكن القطر، وخلت دياره، وخربت أمصاره، واختل باختلاله حال الدولة والسلطان، لما أنها صورة للعمران تفسد بإفساد مادتها ضرورة» اهـ[2].

وكم أحال الظلم أناساً من حال إلى حال، من يسر إلى عسر، وعز إلى ذل، وتلك نتيجة حتمية وواقعة لا محالة.

فهذا خالد بن برمك وولده لما حبسا قال: يا أبت بعد العز صرنا في القيد والحبس؟!

(١)فتاوى ابن تيمية (٢٨/ ١٤٦).

(٢)المقدمة ص ٢٦٢، ط: المكتبة العصرية - بيروت.

فقال: يا بني دعوة المظلوم سرت بليل، غفلنا عنها ولم يغفل الله عنها.

وكان يزيد بن حكيم يقول: ما هبت أحداً قط هيبتي رجلاً ظلمته وأنا أعلم أنه لا ناصر له إلا الله يقول لي:حسبي الله، الله بيني وبينك.

ثالثاً: قيام مجتمعات تلك الامبراطوريات على النظام الطبقي الذي يميز بين فئات الشعب وطبقاته تمييزاً سيئاً ويفاضل بينها مفاضلة واضحة.وعلى سبيل المثال كان المجتمع الفارسي قائماً على سبع طبقات هى:

١ ـ الملوك. ٢ ـ العائلات النبيلة.

٣ ـ رجال الدين. ٤ ـ الأساورة الفرسان.

٥ ـ كتاب الدواوين. ٦ ـ الدهاقين (رؤساء القرى)

٧ ـ عموم الشعب[١].

والتمييز الطبقي السافر والتفرقة المجحفة بحق الشعب عامل هدم كبير للمجتمعات وسبب عظيم في هدم الحكومات وتقويضها، وما انهارت المملكة الفرنسية إلا بعد أن استشرى التمييز الظالم بين شرائح المجتمع الفرنسي، فكانت هناك طبقتان:طبقة الأغنياء (النبلاء) وطبقة الفقراء.

ولا نعني بالتمييز والتفريق الطبقي ذلك التمييز العادي الذي وجد كأمر طبيعي بين الناس، فهناك التاجر والعامل، وهناك العالم والجاهل وهناك النابه والغافل وغير ذلك من صور التفاوت وهي أمر عادي وشيء موجود بين الناس ومعهود قال تعالى: ﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ ﴾[٢] فكان هذا التمييز سيفاً قاطعاً في حال الأمتين الفارسية والرومانية، وكان مبعث كراهية بين المتفاضلين، مما عجل بذهاب دولتهم واندثار ملكهم واستقبالهم للجند الوافدين المسلمين على أنهم أرحم بهم من بني جلدتهم.

---

(١)كتاب فتوح الشرق بعد القادسية لأحمد عادل كمال ص ٣٩٢.

(٢)الزخرف: ٣٢.

يروي الطبري في تاريخه فيقول: قال علي أخبرنا كليب بن خلف عن طفيل بن مرداس قال:كتب عمر بن عبد العزيز إلى سليمان بن أبي السري أن اعمل خانات في بلادك، فمن مر بك من المسلمين فاقروهم يوما وليلة وتعهدوا دوابهم، فمن كانت به علة فاقروه يومين وليلتين، فإن كان منقطعاً به فقووه بما يصل به إلى بلده.

فلما أتاه كتاب عمر قال أهل سمرقند لسليمان:إن قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا، وقد أظهر الله العدل والإنصاف، فائذن لنا فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا، فإن كان لنا حق أعطيناه فإن لنا إلى ذلك حاجة، فأذن لهم، فوجهوا منهم قوماً فقدموا على عمر فكتب لهم عمر إلى سليمان بن أبي السري يقول رضي الله عنه:

إن أهل سمرقند قد شكوا إلي ظلماً أصابهم وتحاملاً من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم، فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم، فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة.

قال: فأجلس لهم سليمان جُميع بن حاضر القاضي الناجي، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء، فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة.فقال أهل السغد بل نرضى بما كان ولا نجدد حرباً، وتراضوا بذلك.فقال أهل الرأي قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم، فإن حكم لنا عدنا إلى الحرب ولا ندري لمن يكون الظفر وإن لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوة في المنازعة فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا[١].

ولما فتح المسلمون الشام، واستولوا على حمص ودمشق، وفرضوا الجزية على أهل حمص وعلى أهل دمشق، سمع القائد أبو عبيدة أن الروم قد جمعوا جيشاً جراراً لينقض على الجيش الإسلامي انقضاضاً ساحقاً، فما كان من قادة المسلمين إلا أن ذهبوا إلى أهل دمشق وحمص ليخبروهم بأنهم لن يستطيعوا أن يدافعوا عنهم مقابل الجزية، فردوا الجزية كلها إلى أهل حمص ودمشق، فخرجوا جميعاً ـ مع أنهم كانوا يدينون لدين

(١)تاريخ الطبري، الطبعة السابقة ٤/ ٦٩.

النصارى من الروم ـ يقولون: نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، لعدلكم أيها المسلمون أحب إلينا من جور الروم وظلمهم، وإن كنا على مثل دينهم. وفي رواية تاريخية أخرى، فقالوا لهم: «ردكم الله إلينا، ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم، ولكن والله لو كانوا هم علينا ما ردوا علينا، ولكن غصبونا، وأخذوا ما قدروا عليه من أموالنا، لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغُشم»[١].

ويرحم الله الشاعر ابن الصيفي إذ يقول:

ملكنا فكان العفــو منا سجية فلما ملكتم سال بالـــدم أبطح

وحللتم دم الأســارى وطالما غدونا على الأسرى نمن ونصفح

فحسبكم هذا التفــاوت بيننا وكـــل إناء بالــذي فيه ينضح

يتضح لنا بعد كل ما قدمناه وسردناه وبعد أن نسقط هذه الدراسة السريعة على واقعنا اليوم كأمة وعلى الحركات الإسلامية أن لا بد من عملية التغيير والتجديد والتفكير لبناء مستقبل أفضل للأمم والشعوب ومن لا يغير سيغير وستجبره رياح التجديد التي تجتاح العالم أجمع على أن يجدد راغماً إن لم يكن راغباً.

ومن هذا المنطلق أيضاً نجد لزاماً على الحركات الإسلامية أن تقوم بمراجعات بين فترة وأخرى لسياستها الدعوية والفكرية، وأن توجد تغييراً لسياستها بعد أن تقتنع تماماً بسياسة التغيير، وعليها أن تنتهز أسباب الفشل النسبي للحركات الأخرى وإخفاقها في وضع أسس سليمة لنظام سياسي يتناسب مع مشروعها وفكرها التجديدي، وعليها أن تفرض نفسها بديلا مناسباً للمشاريع الإصلاحية الأخرى التي بدأت فرصتها تتضاءل في تحقيق نتائج عملية[٢].

****

---

(١)أصل القصة، مروي في كتاب فتوح البلدان للبلاذري ١/ ١٦٢.

(٢)التغيرات السياسية من منظور حركات الإسلام السياسي ـ حماس نموذجاً (عوض الرجوب بتصرف).

ثالثاً:
انتخابات الرئاسة الأمريكية
ومستقبل الملفات الخارجية

تأتي الانتخابات الأمريكية الحالية في فترة ازدحام للملفات الخارجية فيما يتعلق بالملف الفلسطيني وملف الحرب على الإرهاب بما يتضمن الملف العراقي والملف الأفغاني، وكذلك الأزمات التي تمر بها الإدارة الأمريكية الحالية والتي أبرزها الأزمة المالية الأخيرة.

فالقضايا الخارجية وحدها تمثل جانباً كبيراً من برامج المرشحين، ويحاول كل من الجمهوري «جون ماكين» والديمقراطي «باراك أوباما» استغلال هذه الملفات الاستغلال الأمثل للفوز بثقة الناخبين.

غير أن حظوظ المرشح الديمقراطي أوباما في استغلال الملفات تبدو أوفر؛ وذلك لأن الإدارة الأمريكية الحالية والتي تجهز أمتعتها للرحيل والتي ينتمي إليها المرشح الجمهوري ماكين هي التي عملت على فتح هذه الملفات وعملت كذلك على تعقيدها، حتى تبدو الإدارة الأمريكية الآيلة للسقوط فى «حوسة» شديدة ختمت بأزمة اقتصادية لم تشهدها البلاد من قبل، وأثرت بالسلب على الاقتصاد العالمي.

١ ـ الملف الفلسطيني:

فلسطين هي أم القضايا العربية والإسلامية، وهي قضية الصراع الأقدم في العالم، وليس غريباً أن الملف الفلسطيني وطريقة تناوله هي التي تحدد من سيكون الرئيس القادم للولايات المتحدة الأمريكية، لذا لن يتعجب المشاهد العربي وهو يتابع الانتخابات الأمريكية الحالية أن يسمع اسم فلسطين وحماس وإسرائيل في كل خطاب لأي من المرشحين القادمين؛ ماكين أو أوباما، فضلاً عن أسلافهم من قبل.

٢ ـ الخطاب البوشي في الكنيست:

بمناسبة الذكرى الستين لقيام الكيان الصهيوني ألقى الرئيس الأمريكي بوش خطاباً يعد هو الأكثر إثارة للجدل عن أي خطاب آخر، حتى إن المحللين السياسيين وصفوا هذا الخطاب بالخطاب « التوراتي» الذي يعكس رؤية الإدارة الأمريكية للصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي، وهي الرؤية التي تعبر عن الانحياز السافر تجاه إسرائيل، والتي وصفها في خطابه بأنها «شعب الله المختار» في تجاهل تام لكافة الحقوق السياسية والإنسانية للشعب الفلسطيني وليس عجيباً لصحيفة مثل «واشنطن بوست» أن تصنف خطاب بوش على موقعها الالكتروني ضمن قسم «العقيدة».

ونقلت صحيفة «كريستيان ساينس» الأمريكية عن محللين أمريكيين قولهم: إن خطاب الرئيس الأمريكي بوش كان محملاً بتشبيهات دينية، راسماً صورة روحية وأيديولوجية لعلاقة وثيقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل بدت غير مسبوقة في أي خطاب لأي رئيس أمريكي.

إذن فالعلاقة الأمريكية الإسرائيلية علاقة روحية ذات بعد أيديولوجي كبير، ومستقبل أي رئيس أمريكي يحدد من خلال فهم ذلك الرئيس لهذه العلاقة وهذا الذي جعل بوش يحمل هجوماً شنيعاً على أوباما في خطابه سالف الذكر، مدعياً أن الديمقراطيين يرغبون في التفاوض مع الإرهابيين.

٣ ـ عندما فهم أوباما اللعبة:

في فترة الانتخابات التمهيدية لمن سيمثل الحزب الديمقراطي «باراك أوباما» أو «هيلاري كلينتون» كانت لغة أوباما تحمل كثيراً من التفاؤل الذي جعل الأوساط العربية والإسلامية تستبشر خيراً بمقدمه، حتى أظهرت حماس تفضيلها لانتخابه رئيساً جديداً لأمريكا، لكن عندما فهم أوباما اللعبة تغيرت لغته وتفاجأت الأوساط السياسية في العالم بهذا التغيير بعدما قام بزيارة لإسرائيل وصورته عدسات الكاميرا وهو واقف عند حائط المبكى يرتدي قبعة اليهود المعروفة، وبعدما صرح فى أحد

خطاباته بأن إسرائيل حليف استراتيجي لأمريكا وتحدث عن مضاعفة المعونات العسكرية لها.

هذه اللغة لا شك حسمت الأمر وجعلته المرشح الديمقراطي في انتخابات الرئاسة، لكن اللافت للنظر أنه وفي ظل هذه الرؤية الأمريكية للقضية الفلسطينية وفي ظل الدعم المطلق لإسرائيل في مقابل عبارات وعيد وتهديد بحق حماس كانت هناك أصوات تنطلق من داخل إسرائيل نفسها تطالب بالدعوة لإجراء اتصالات مع حماس التي تسيطر على غزة للتوصل للتهدئة، وهذه الدعوة جاءت من خلال عريضة وقع عليها مسئولون سابقون في الجيش وأجهزة الأمن الإسرائيلية، أكدوا فيها أنه يجب الاعتراف بأن إنهاء نظام حماس في غزة ليس هدفاً واقعياً وبأن إعادة فتح إلى السلطة بفضل العصا الإسرائيلية أمر غير مرغوب فيه.

فهل ستستمر السياسة الأمريكية في ثوبها الجديد القادم على نفس النهج أم أن الواقع سيشهد تغيرات؟

من خلال المعطيات السابقة فالوضع قد يشهد شيئاً من التغيير كأمر طبيعي لجدول أي سياسة جديدة، ثم سرعان ما يعود كل شيء كما كان بل ربما نفس السياسة السابقة ولكن بلون آخر.

استطلاعات الرأي تشير إلى تقدم المرشح الديمقراطي باراك أوباما على الجمهوري جون ماكين، كما أن الساحة السياسية الإسرائيلية تشهد أيضاً تغيراً في الرؤوس القائدة بعد الفضيحة المالية التي تورط فيها رئيس الحكومة «أولمرت» والتي فتحت الباب أمام «تسيبي ليفني» وزيرة الخارجية السابقة ورئيسة الحكومة الجديدة.

إذن فالمرحلة القادمة تشهد تغيراً في الإدارات الأمريكية والإسرائيلية مما ينبئ بتغيرات سياسية. فهل القيادات الفلسطينية على مستوى هذه المتغيرات؟!

٤ ـ حماس ولغة المفاوضات:

يبدو أن معالم السياسة الأمريكية الإسرائيلية ضد شعب فلسطين ـ وحماس منه على

الخصوص ـ قد بدأت بالفعل، حيث طرح الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي فكرة إرسال قوات إلى غزة وذلك حسب تصريحات حماس ـ بإيعاز من إسرائيل ـ غير أن حماس رفضت ذلك وبصورة حاسمة، فقد صرح أحمد يوسف المستشار السياسي لرئيس حكومة حماس أن الفكرة مرفوضة من حيث المبدأ.

فهل هذا المقترح يعد شكلا من أشكال الضغط على حماس كي تبادر إلى تغيير منظومة مواقفها على الصعيد التكتيكي، وربما الاستراتيجي؟

أم هو محاولة لتجاوز هذا المأزق رفك الحصار تضمن بقاء الضغوط على حماس؟!

الفصل الثالث

تأمـــــــــــــلات

إيمانية وفكرية وتربوية

أولاً:
معادلات إيمانية

تعالوا - أيها الأحباب القراء - نستروح اليوم نسمات الإيمان، ونستنشق عبير اليقين والتقوى، بعيدًا عن ملاحقة الأحداث العالمية والمشاكل اليومية في عالمنا الراهن، الذي تأتيه المشاكل زرافات ووحدانا، بصنع أبنائه، وصدهم عن سبيل الله، وتقصير المسلمين منهم في تعاليم دينهم وبغي الفاجرين والفاسقين، ومعاندة الجاحدين الكافرين، والبحث عن المطامع المادية، والجري وراء المصالح الذاتية، وإشعال نيران الحروب، وإثارة النزعات القومية، والبغضاء العنصرية، والحزازات الحدودية، وغير ذلك من المشاكل التي تكد الذهن وتتعب النفس، وتخلق الأسى والألم في نفوس الذين يألمون لما يصيب الإنسان في أي مكان.

هيَّا بنا نبتعد عن المواقع الساخنة في العالم، ونعرض عنها مؤقتًا لننظر في واقعنا كمجتمع - من بعض جوانبه - وواقعنا في أنفسنا في ضوء نفحات الإيمان، وعلامات اليقين، التي تظهر في بعض الملامح والوجوه، والتي تنقش في قلوب أصحابها آيات من الرضا والسكينة.

١ ــ اللهم فكَّ قيد أسرانا :

دعاء يتردد في أرض الكويت منذ تسع سنوات يضرع به إلى الله الغني والفقير والصغير والكبير والرجل والمرأة والمواطن والمقيم، ويعلو سماعه كل يوم جمعة في مساجد الكويت على لسان أئمة المساجد وتأمين أولئك المصلين، ويتردد صداه في الجو، ولا تخلو منه مناسبة من المناسبات أو احتفال من الاحتفالات، ومع هذا فما يزال هؤلاء المرتهنون تضمهم أسوار المعتقلات في جوانحها، وتغيب أخبارهم في حناياها، لم يقرّ بوجودهم نظام بغداد، ولم تتدخل الأمم المتحدة لفك أسرهم، وإطلاق سراحهم.

فلماذا لم يفك أسرهم رغم كل هذا الدعاء؟

أقول هذا وأنا على علم بقول رسول الله ﷺ المروي عن أبي هريرة رضي الله عنهم: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: قد دعوت ربي فلم يستجب لي»[(١)].

ولست ـ بحمد الله ـ عجلا في الدعاء، لكني أود أن نصحح هذا الدعاء ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، وأن نستمر في هذا الدعاء كذلك ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

والدعاء يتردد وسيظل، والإجابة مربوطة بالمعادلات الإيمانية، التي ـ إن قمنا بها على أحسن وجه ـ فإن الله يحقق لنا الرجاء ويستجيب ـ بفضله ـ للدعاء ـ إن شاء الله ـ والمعادلة الإيمانية التي أعنيها هي التي ذكرها الله في كتابه في قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[(٢)]. فإن استجبنا لله بطاعته، وتنفيذ أوامره، وتطبيق شرعه، والانقياد لحكمه، استجاب لنا ـ برحمته وفضله ـ وأزال كربنا بمِنّته، وأنزل على قلوبنا السكينة والطمأنينة، إن خلصت هذه القلوب في توجهها إليه، وصدقت فيما عزمت عليه من التمسك بشرعه، ولنا مثل في السابقين الذين أنزل الله عليهم قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾[(٣)]، وقد جربنا ذلك بعد الغزو الأثيم، فحين صدقت القلوب في التوجه إلى الله، ولهجت الألسنة بذكره، وخضع الجميع لأمره، وتعاهدوا على إقامة شرعه حقق الله الرجاء الكبير بعودة الكويت كلها محررة، وعودة أبنائها إليها يعيشون في أمان، فما الذي حدث بعد ذلك؟ لم نُوَفِّ بالعهود والمواثيق التي قطعناها على أنفسنا، وقصر البعض فيما يجب عليه نحو ربه ونحو دينه، بل تطاول البعض ـ على صفحات الصحف ـ على الرسول الكريم ﷺ، وسمحنا لكتب فيها إفك وبهتان وزور على دين الله ورسوله أن تباع على أرضنا، وأن تجد من ينصر بيعها ويؤيد

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥)،وأبو داود (١٤٨٤) والترمذي (٣٣٨٧)، وابن ماجة (٣٨٥٣).

(٢) البقرة: ١٨٦.

(٣) الفتح: ١٨.

أصحابها من بيننا (كما حدث مع مشكلة الكتب الممنوعة) وأقمنا الحفلات الغنائية، وجلبنا لها كل من هبَّ ودبَّ، ونشرنا ما يسمى بالخيام الرمضانية، وما هي برمضانية ولا تَمتُّ إلى رمضان بصلة، وغير ذلك كثير فعلناه، رغم أنه مخالف لشرع الله، بل قد يكون فيه - أحيانًا - هدم لشرع الله. ثم بعد ذلك نقول: لماذا لم يستجب الله لنا؟» والإجابة قل «هو من عند أنفسكم».

وإلى أن نفعل ذلك ونأمل أن يكون قريبًا، فإننا لا ننسى زوجات هؤلاء المرتهنين، الصابرات المحتسبات، اللائي عشن دهرًا ينتظرن على أحر من الجمر عودة الزوج الغائب، وما تزلن منتظرات، غير مفرطات في أمانة تجاه نفسها أو تجاه أولادها، فهي تحفظ زوجها في نفسه وماله وولده؛ لأنها تعلم أن ما أصيبت به ابتلاء من الله سبحانه، تدخر ثواب ذلك في جلد وثبات وصبر ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾[١]. إن الثواب الكبير الذي وعد الله به عباده المبتلين في الدنيا، زاد لهذه المرأة على طريق الثبات حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً؛ لأن ما حدث من ابتلاء لها ولأبنائها وحتى لزوجها إنما هو بقدر الله، ولا نملك إلا الرضا بقضائه وقدره وتسليم الأمر إليه، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[٢]. ولعل ذلك كفارة لخطايا، يريد الله - سبحانه - أن يمحوها من صحيفة هذه الزوجة وصحيفة زوجها؛ لقول الرسول ﷺ: «وما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة»[٣].

وعلى الزوجة أن ترضى بقدر الله حتى تنال رضوانه فالرسول ﷺ يقول: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن

---

(١)البقرة: ١٥٥.

(٢)الحديد: ٢٢.

(٣)حديث صحيح، تقدم تخريجه.

سخط فعليه السخط»[١]، وهذا الرضا بقدر الله يقتضي منها أن تكون وفية للعهود التي بينها وبين زوجها، وأن تكون صادقة مع نفسها، مراعية حق هذا الزوج في غيابه، مكثرة من الدعاء له ولإخوانه بالفرج القريب، وأن تحافظ على بيته وماله وترعى أولاده، وأن تستعين على ذلك كله بالصبر والصلاة.

ولا ننسى كذلك أبناء هؤلاء المرتهنين، فقد أصبحوا أمانة في أعناق رجال وطنهم، ومن حقهم وواجبهم علينا أن نقدم لهم الرعاية والاهتمام والعطف والحنان، وأي تقصير في ذلك يعتبر تفريطًا في حقهم وتضييعًا لأمانتهم، وسيحاسبنا الله على ذلك يوم القيامة، ولربما لحق بنا في الدنيا شيء من سوء هذا التفريط؛ لأن الله حذرنا من ذلك بقوله: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾[٢].

وإن أبناء المرتهنين يشتركون مع أبناء الغازين في سبيل الله في بعض الأمور، وقد أمرنا رسول الله أن نخلف الغازي بخير في أهله، فقال: «من جَهَّزَ غازيًا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيًا في أهله بخير فقد غزا»[٣]. وأبناء المرتهنين يجب لهم ما يجب لليتامى من الكفالة والعطف والمودة؛ لتشابه الحال، فعن سهل بن سعد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما قليلا[٤]، وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كافل اليتيم له أو لغيره، أنا وهو كهاتين في الجنة»[٥]. ويثاب كافل ابن المرتهن ولا سيما الفقير

---

(١)أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجة (٤٠٣١)، وقال الترمذي: «حسن غريب» من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢)النساء: ٩.

(٣)أخرجه البخاري (٢٨٤٣)، ومسلم (١٨٩٥)، وأبو داود (٢٥٠٩) والترمذي (١٦٢٨)، والنسائي (٣١٨١) عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

(٤)أخرجه البخاري (٥٣٠٤)، وأبو داود (٥١٥٠)، والترمذي (١٩١٨)، وأحمد (٥/ ٣٣٣)، وأبو يعلى (٧٥٥٣) عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٥)أخرجه مسلم (٢٩٨٣) والبخاري في الأدب المفرد (٦٥٤)، وابن ماجه (٣٦٧٩)، وأحمد (٢/ ٣٧٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والمسكين منهم مثل ثواب كافل اليتيم.

وسبل كفالة ورعاية أبناء المرتهنين كثيرة، منها على سبيل المثال:

- الاعتناء بتربيتهم وبذل الجهد الكامل من أجل تحقيق سيرهم على النهج المستقيم.
- السؤال عنهم والاطمئنان على أحوالهم.
- قضاء مصالحهم الدنيوية إن أمكن.
- الاتصال بهم في المناسبات، مثل الأعياد ونحوها، وتهنئتهم.
- زيارة المرضى منهم.
- الدعاء المستمر لهم ولأبيهم في السحر.

وكل هذا وغيره يدخل في نطاق قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[1].

٢ ـ المرتهنون والمصالحة العربية:

الابتكار في الألاعيب السياسية يظهرها وكأنها جديدة، لم يكن لها في دنيا السياسة وجود من قبل، ويبدو أن ألاعيب السياسة في منطقتنا لا تهدأ، وإن كانت في عالمنا العربي أشبه بألاعيب الأطفال، لا تحتاج إلى كبير ذكاء وعناء ذهني؛ لأنها أساس للتسلية وشغل الأطفال.

وتدور الألاعيب اليوم حول الوضع العراقي واتصاله بجيرانه وخاصة الكويت، التي نالها من نيران هذا النظام ما نالها، وتأخذ هذه الألاعيب طريقة الخطوة خطوة، التي تتسرب بين الناس في هدوء، فلا تثور ثائرتهم، ولا يعنف رد فعلهم.

وتأتي قضية المرتهنين الكويتيين كجزء من هذه اللعبة تتم به ما يطلق عليه «المصالحة العربية»، والسياسة الدولية التي أثمرت مع دول الضد بحيث تمَّ إلغاء هذا المصطلح، بعد أن ردده المسئولون الكويتيون سنوات، ثم جاء وزير الإعلام ليعلن أن دول الضد

(١) المائدة: ٢.

مصطلح يطلق في الملاهي!! وأنه ليس هناك ما يسمى بهذا الاسم، وبالتالي يصبح كل ما قيل وما تمَّ من مواقف إزاء هذه الدول طيلة السنوات السابقة أمرًا لم يكن له معنى. هذه السياسة التي استعملت في المصالحة مع الدول هي بعينها السياسة التي ستستعمل في المصالحة العربية التي ينتظر لها أن تتم خلال عام أو عامين على الأكثر.

وتمتص فيها مشاعر الغضب من الناس ببحث قضية المرتهنين، أو إطلاق بعضهم أو المقايضة عليهم في صفقة المصالحة القادمة.

ولقد نشرت الصحف يوم الاثنين الماضي تصريحًا لوزير كويتي بالخط العريض يقول فيه: (لا تعامل مع نظام بغداد إلا إذا التزم بالقرارات الدولية واعتذر وأفرج عن الأسرى).

وما أسهل أن يفعل النظام العراقي ذلك إن هيأت له السياسة الدولية هذا السبيل، والسياسة الدولية المعنية بشأن إسرائيل تطلب من النظام العراقي كما صرح أحد أعضاء الكونجرس الأمريكي أن يوطن مليوني فلسطيني في العراق، ليخفف عبء المطالبة بعودة الفلسطينيين إلى بلدهم، وهو ما تطلبه إسرائيل وتعلن عنه، الأمر كله بالنسبة لدول الضد أو المصالحة العربية المرتقبة يصب في مصلحة إسرائيل، ولعل الغزو العراقي للكويت كان كذلك من أجل التمهيد للمصالحة العربية الإسرائيلية، وتحطيم كل رفض من جانب أي دولة لهذه المصالحة، وإذا تمَّ ذلك فحينئذ تتم المصالحة - كما تمت مع دول الضد - وتُخرج قضية الأسرى وإطلاق سراحهم بشكل درامي شكلي كما فعل بمثلها في عالمنا العربي الكبير. أما مشاعر الناس وأحاسيسهم نحو هذا المعتدي فلا اعتبار لها ولا قيمة لوجودها.

ورغم وضوح هذه اللعبة السياسية، فإن المنفذين لها يظنون أن الناس لا يرونهم ونحن نربأ بحكومتنا أن تشارك في هذه اللعبة وأن تدوس مشاعر الناس، وأن تقبل أن نعود كما كنا من قبل بعد أن تسمع أو تقرأ اعتذارًا شفهيًا أو مكتوبًا ومسجلاً في هيئة الأمم أو في غيرها من الهيئات.

٣ ـ الأخلاق والتحلل في إفريقيا :

قال مسؤل كبير في الأمم المتحدة: «إن نصف المواليد في قارة إفريقيا يحملون فيروس (أتش. أي. في) المسبب للإيدز، إلا أن المجتمع الدولي رغم ذلك لم يتحرك لمكافحة هذا المرض الفتاك»[١] .

ومن المعلوم أن سبب انتشار هذا المرض هو التحلل الخلقي، الذي يدفع إلى العهر والزنا، ومن ثَمَّ ينتقل المرض عن طريق الممارسة الجنسية غير الشرعية، التي تعلن عن نفسها بوضوح في كثير من البلدان الإفريقية، فتصاب الأجسام بهذا المرض الذي يقضي على صاحبه بعد حين، وإذا كان نصف المواليد الآن يولدون وهم يحملون في أجسامهم هذا الداء الوبيل، فهل يأتي يوم يقل عدد السكان إلى النصف، أو هل ينقرض سكان إفريقيا بعد بضعة أجيال؟ وقد يبدو للعقل استبعاد هذا الافتراض، غير أننا نقول: وماذا يمنع من وقوع ذلك إذا شاع التحلل، واتبعت الشهوات، وقلت أو انعدمت التوعية الأخلاقية، المستمدة من الدين الإسلامي، الذي حذر رسوله ﷺ من وقوع ذلك في قوله: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم»[٢] .

انعدام الوازع الديني وقلة الوعي، والانقياد للشهوة، هو الذي كان وراء انتشار هذا الداء الذي يقضي كل يوم في ساحل العاج وحدها على مدرس من المدرسين!! فإذا كان المدرسون الذين يفترض فيهم الوعي والإدراك يسقط واحد منهم كل يوم بسبب هذا المرض فما بالك بالجاهلين وغير المتعلمين؟

إن هذا يدفعنا دفعا لأن نتمسك بالأخلاق الدينية ونربي أبناءنا عليها، ونغرس فيهم مراقبة الله والتزام حدوده، وأن نسد الثغرات التي يمكن أن يتسرب منها إلى أبنائنا الخنا والفجور، حتى نقيهم من العذاب في الدنيا بالأمراض وغيرها ومن العذاب الأكبر في

(١)الشرق الأوسط ١٣/ ٩/ ١٩٩٩م.

(٢)حديث صحيح سبق تخريجه.

الآخرة، والله سبحانه يأمرنا بذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا..﴾[1].

وإن المبادرة إلى هذا الأمر واجب يقتضي التنفيذ وعدم التأجيل.

٤ ـ أبواب الانحراف ومسئولية الآباء :

في طريقي مساء ليلة؛ لزيارة أحد الأصدقاء، مررت في أحد الشوارع من أحد الأسواق في منطقة «المرقاب»، ولفت نظري كثرة السيارات في شارع جانبي ليس فيه شيء يستدعي هذه الكثرة، وتساءلت: هل يجري تفتيش مروري في هذا الشارع؟ وجاءت الإجابة ممن يجلس بجانبي: ليس هناك تفتيش ولكن هذه السيارات المزدحمة جاء بها إلى هنا رواد هذه المقاهي المنتشرة على اليسار فنظرت يساري فإذا عدد من المقاهي يغص بكثير من الشباب، الذين يتعاطون (النرجيلة) ويملؤون المكان داخل وخارج المقاهي. وبقدر ما ضايقتني رؤية هذا المنظر ضايقني أكثر أن يتخلى الآباء عن مسؤولياتهم نحو أبنائهم، وأن يتركوهم نهبًا للفراغ وعرضة للضياع دون حسيب أو رقيب، أين يسهرون؟ ومع من يجلسون؟ وماذا يعملون؟ ومتى عادوا إلى البيت ومتى خرجوا منه ولأي غرض؟ وأسئلة أخرى إجابتها عند الآباء، الذين يتهاونون في مسؤولياتهم فيكونون بذلك سببًا في ضياع أبنائهم، وتعريضهم صيدًا سهلاً لمروِّجي المخدرات، ومحترفي الانحرافات. وماذا يمنع أن تكون هذه المقاهي وأمثالها من الأماكن يرصدها المروِّجون لهذه الآفات ليختاروا صيدهم من بين الجالسين ويرمون شباكهم حوله، فلا تمر أيام أو أسابيع إلا وهو فريسة سهلة في أيديهم؟

إن مسؤولية الآباء عن أبنائهم هي من ألزم الواجبات، فلا يسد غيرها مسدها، وحقًا إن التربية والبيئة والمدرسة وأجهزة الإعلام وغيرها لها أدوار في تربية الأبناء، وتكوين فكرهم وخلقهم، لكن هذه الوسائل كلها لا تعدل دور الوالدين في الرعاية والاهتمام والتوجيه والإرشاد، وقد لا تفلح هذه المسالك التربوية في تكوين الشخص

---

(١) التحريم: ٦ .

النافع، وقد تفلح رعاية الوالدين ـ وحدها ـ في تكوين هذا الشخص، ولو تكاتفت كل الجهود، وقام كل واحد بواجبه نحو الأبناء لَضَمَنَّا لأنفسنا جيلاً ناضجًا واعيًا مجدًا، يدرك مخاطر الحياة ويعمل على تلافيها.

ومن الخطأ في الرأي أن يتهم أولياء الأمور وزارة التربية بأنها لم تقم بدورها في التربية ولم تمنع الأبناء من الوقوع في الانحرافات التي يتعرضون لها، من الخطأ هذا الزعم؛ لأننا نلوم الآباء على تفريطهم قبل أن نلوم غيرهم؛ لأن مسئوليتهم عظيمة ونتائجها ـ إن قاموا بها ـ باهرة، وإن فرطوا فيها خطيرة. وقد نبه الرسول ﷺ إلى ذلك بقوله: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[1] فهلا راعينا الله في مسئوليتنا عن فلذات أكبادنا، حتى نبعد عنهم شبح الفشل والدمار النفسي والخلقي.

٥ ـ مناجاة وأخوة:

التهجد بالليل لذة الصالحين، وشوق المخبتين، وفلاح المؤمنين؛ لأنهم يستمدون من القيام بين يدي الله سبحانه في الأسحار قوة، ويستعينون بها على شدائد حياتهم وبأسها وضرائها بالصبر والصلاة .. وقيام المؤمن من فراشه، ومجافاة جنبه عن مضجعه ليتطهر، ثم يقف لا يراه ولا يعلم به إلا الله، يقف يناجي ربه في تبتل وتضرع يكثر من الدعاء، ويأمل في الرجاء، ويخاف عذاب ربه، يبكي وهو يقرأ حال أهل النار خوفًا وفرقًا، ويُسَرُّ حين يقرأ حال أهل الجنة، ويأمل أن يكون منهم بعد أن يلقى الله، تمر به الآيات المتلوة تذكره بعظمة مولاه، فيزداد إكبارًا وإجلالاً لله، ثم هو بعد ذلك يدرك أنه لم يقم بالحق الكامل عليه نحو ربه، الذي أسبغ عليه الحياة وأسبغ عليه من نعمه ما لا ينحصر تحت إحصاء، وما لا يدرك تعداده الأمناء الأوفياء، وهو يقرأ قول الله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ..﴾[2].

إن مناجاة الله ـ سبحانه ـ حين ينزل إلى السماء الدنيا يقول: «هل من مستغفر فأغفر

(١)صحيح، تقدم تخريجه.
(٢)الأنعام: ٩١.

له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من سائل فأعطيه»[١] إن هذه المناجاة لا تعدلها لذة في الحياة، والذين ينكرون ذلك لم يجربوا ولم يعرفوا، ولو عرفوا وأدركوا لذاقوا هذه اللذة، وعلموا أنهم في نعيم لو علم به الملوك لقاتلوهم عليه، والمحروم من حرم نفسه من هذا الزاد العظيم، الذي لا يتحقق إلا بطول ممارسة، وعظيم تدبر؛ لأنه زاد من التقوى الذي جعله الله خير زاد، في قوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[٢].

والتقوى والصبر هما أساس كل تقدم، ومحور كل ازدهار، وهذا ما قاله يوسف عليه السلام بعد أن ناله من الشدائد والكروب والمظالم ما ناله، فعوضه الله في الدنيا قبل الآخرة، فذكر يوسف ذلك فيما سجله القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾[٣].

ومما يساعد على ذلك الأخوة في الله التي تربط بين قلوب المؤمنين في السراء والضراء وتجمعهم في الشدة والرخاء، فإنهم يعيشون في سرور حتى ولو كانوا في مكان محصور. وقد جعل الله الأخوة من دلائل الإيمان، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٤]. وجعل سبحانه كل أخوة تنقلب إلى عداوة يوم القيامة إلا أخوة المؤمنين القائمة على الحق والقسط والعفو والإيثار، فقال: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾[٥]. وكان من سرور أهل الجنة ونعيمهم كونهم كما قال الله: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾[٦] وعماد هذه الأخوة، الإيمان بالله ورسوله دون مسوِّغات أخرى، وما أسهل أن يتحلَّى المسلمون بهذه الخلال لو تخلَّوا عن أهوائهم وألزموا أنفسهم جادة الصواب.

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٨١)، والدارمي (١/ ٣٤٧)، وابن خزيمة في التوحيد (ص١٣٣)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٨٧)، وأبو يعلى (٧٤٠٨)، وصححه الأرناؤوط في تخريج المسند (١٦٧٤٥).

(٢) البقرة: ١٩٧.

(٣) يوسف: ٩٠.

(٤) الحجرات: ١٠.

(٥) الزخرف: ٦٧.

(٦) الحجر: ٤٧، ٤٨.

٦ ـ على طريق الصالحين :

طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وهناك علوم تلزم كل مسلم ومسلمة وهي العلوم التي تصح بها العقيدة وتصلح بها العبادة، إنها من أوجب الواجبات ومقدمة على كل شيء، ولا يعفى منها أحد من المسلمين إلا إن سقط عنه التكليف..وهناك علوم أخرى كثيرة تلزم القادرين على تحصيلها، وأقدار العلماء تتفاوت بقدر تفاوتهم في تحصيل العلم، على أن العلم وحده لا يجدي فتيلاً، ما لم يتبعه عمل مبني على الإخلاص لله في دافعه، وعلى رضا الله في غايته. ولذا قال ابن مسعود، رضى الله عنه: لم نكن نجاوز عشر آيات من كتاب الله حفظًا حتى نعمل بهن ونعلم ما فيهن، فتعلمنا العلم والعمل جميعًا.

والصادقون من المسلمين علموا فعملوا، علموا أن قليل الطاعة يثمر كثير الأجر والثواب من قول رسول الله ﷺ: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة سيئة مثلها أو أغفر، ومن تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرة»[(١)].

وعلموا أن حب الله والتقرب إليه والوقوف عند تعاليمه مرقاة في الدنيا وسعادة في الآخرة، فأحبوا الله، وقدموا حبه على حب المال والجاه والأهل والعشيرة وكل شيء، فجعل الله الناس تحبهم وتثني على فعالهم، كما قال رسول الله ﷺ: «إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحبه، فينادي في أهل السماء إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»[(٢)]، وفي رواية لمسلم: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل، فقال: إني أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانًا

(١)أخرجه مسلم (٢٦٨٧)، عن أبي ذر رضي الله عنه.

(٢)أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فابغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فابغضوه، ثم توضع له البغضاء في الأرض»[(١)].

وهذا هو الطريق فأين المبادرون الذين يسعون نحو الخيرات فينالون الهداية في الدنيا والسعادة في الآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾[(٢)].

(١)أخرجه مسلم (٢٦٣٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢)العنكبوت: ٦٩.

ثانياً:
مرونة الشريعة

١ – إطلالة على «شريعة الإسلام في الألفية الثالثة:

إن من فضل الله العظيم علينا أن رزقنا نعمة العقل وتعبدنا به، فلا فرض ولا نفل ولا تكليف ثمّ إلا من بابه، وفضيلة العقل تقضي بالمسلم أن يطوف به في خَبر الحوادث وتصاريف المواقف، ودول النوازل يقرأ، جديدها، ويعي مداخلها، ويلملم بأطرافها، فتثمر لديه ثمرات جمة يفيد منها في دينه .

وهذا مقصود من مقاصد الشرع دلت عليه الآيات الكثيرات ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا ...﴾[1]، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢﴾[2]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠﴾[3].

ويفيد منها في معاشة أجله وعاجله، إذ من لم ينفعه حدسه، ولم يتعظ بغيره فاته من الخير الكثير وحج الناس دونه ولم يحرم بعد .

وتأسيساً على ما سبق فإن مظاهر الاحتفالات التي صاحبت مطالع الألفية الثالثة لتعد من طريف الأحداث، وحدث الحديث، وهي تستدعي منا وقفة وكيف لا وقد اجتمع زعماء دول العالم في محفل مهيب قل حدوثه في تاريخ البشرية ليضعوا استراتيجية عالمية موحدة يستقبلون بها الألفية الثالثة، فانتهوا إلى استراتيجية ظاهرها محاربة الفقر والجوع والتنمية والمحافظة على البيئة، وباطنها حوى ما حوى مما ستدل عليه الأحداث، وستشهد عليه دول الأيام وصدق الشاعر إذ يقول :

---

(١)يوسف: ١٠٩.

(٢)الحشر: ٢.

(٣)آل عمران: ١٩٠.

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً وَيَأتِيكَ بِالأَخْدَاثِ مَنْ لَمْ تُـزَوِّدِ
وَيَأتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَـنْ لَمْ تَبِعْ لَـهُ بَتَاتاً وَلَمْ تَضْرِبْ لَهُ وَقْتَ مَوْعِدِ

لنضرب صفحاً عن حديث في النوايا إلى حديث عن يقين مشاهد غير غائب وحاضر وإن كان راكداً، ألا وهو «شريعة الإسلام» وما أدراك ما شريعة الإسلام وإن حديثها ليشجي وخبرها لينضي وهذا ما يفيده المقام ويبين عنه، ويمليه لسان الحال .

وكيف لا وقد دميت ناصيتها وتحلحل تاجها، وغبرت ممالكها، وغدت نهباً مقسماً، وحرجاً دامياً، وجيداً عاطلاً، ولسان حالها يلتمس الشكاه فيقول:

أَنْزَلَنِي الدَّهْرُ عَلَى حُكْمِهِ مِنْ شَامِخٍ عَالٍ إِلَى خَفْضِ

غير أنا نلملم نثار الحديث عنها في سؤال نشفعه بإجابة وهو :

هو «ماذا عن شريعة الإسلام في مطلع الألفية الثالثة؟» ولنستعين بالله وحوله في محاولة للإجابة عن هذا السؤال، متلمسين يقين الأدلة وراجح الرأي من أربابه على ما وقف عليه علمنا، وطالته أيدينا، ونبدأ إجابتنا بإيراد هذه الحقائق الهامة كالتالي :

الحقيقة الأولى :

هي (أن مقصد الشريعة الأول وهدفها الرئيسي إنما هو صالح العباد في الدنيا والآخرة).

وبرهان ذلك ما ذكره علماء الأصول أن شريعة الإسلام وضعت ابتداءً لمصالح العباد في العاجل والآجل معاً ومعنى كونها موضوعة ابتداءً لهذا أنه قصد ذلك من وضعها في المرتبة الأولى، ويكون ما عداه كأنه تفصيل له .

وعلى هذا القصد والوضع أجمع علماء الإسلام، ولم ينازع في ذلك منهم أحد، وذهب الإمام الشاطبي في الموافقات إلى أن ذلك يعدُّ مسلمة لا مرية فيها، ولا جدال حولها .

وذكر الشاطبي ـ رحمه الله ـ أن هذه المسلمة يدلّل عليها بدليل الاستقراء الكلي والجزئي حيث قال : «والمعتمد إنما هو أنا استقرينا من الشريعة أنها وضعت لمصالح

العباد استقراءً لا ينازع فيه ...».

وهذا ما نص عليه واضع علم الأصول الأول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في «الرسالة» حيث قال: «فكل ما أنزل الله في كتابه ـ جل ثناؤه ـ رحمة وحجة، علمه من علمه، وجهله من جهله».

وفضل هذا الأصل العظيم الإمام ابن القيم في إعلام الموقعين قائلاً:«فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها».

وعلى ما ذهب إليه علماء الإسلام دلت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية. يكفي أن نتصفح كتاب الله فتطالعنا آيات كقوله تعالى :﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾[١] وقوله تعالى:﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[٣]، وإلى غير ذلك من الآيات الكثيرات المتواترات المعنى على ذلك، تقطع بأن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في الآجل والعاجل وهذا الأمر متصل في جميع تفاصيل الشريعة .

وتأسيساً على هذا البرهان فإننا نخلص إلى الآتي :

* أن الشريعة الإسلامية تنسجم وتتناغم مع الألفية الثالثة بمعطياتها ومتغيراتها؛إذ إنها ما وضعت إلا لصالح العباد، وهذا الصالح يعم كل حاجياتهم في دنياهم قبل أخراهم.

وهو صالح ضمنه الله خالقنا لنا، ولن يخلف الله وعده، وما بالك بضمان الله العظيم الكبير من ذلكم الميثاق الواهي الذي خلصت إليه الأمم التي ظاهرها الاتحاد وباطنها

(١)المائدة: ٦.
(٢)البقرة: ١٧٩.
(٣)العنكبوت: ٤٥.

الشتات والذي يدعي جلب الصالح للبشرية وضمان رفاهها، وإن كنا لا نتخالف كثيراً مع ظاهر ذلك الميثاق الذي صدر عن اجتماع زعماء العالم وإنما نريد الضمانات من الاستبداد بثروات الأمم الضعيفة والتلاعب بقيمها ومبادئها، واللف على أولى الأمر فيها.

كما نرجو أن يكون للإسلام صوته المسموع بين شتات هذه الملل التي تجمعت تحت غطاء مصلحة البشرية، وما قادهم إلا مصالحهم الذاتية الضيقة كما دلت على ذلك الأيام وصدق الشاعر إذ يقول :

كَفَى زَاجِراً لِلْمَرْءِ أَيَّامَ دَهْرِهِ ... تَرُوحُ لَهُ بِالَواعِظَاتِ وَتَغْتَدِي

وعليه فإننا نبوح ونصدح ونجهر غير هيابين أو متخاذلين بأن سبيل نجاة البشرية ودرب سعادتها ومقود نمائها إنما هو بزمام شريعة الإسلام، التي وضعت ابتداءً لصالح العباد في الآجل والعاجل .

ولأن الله قضى سبحانه بأن لا يزال الخلاف واقعاً، وتعدد الأديان قائماً وتلك سنة كونية حاقة بنا، ومتواتر معناها في قرآننا فإننا نؤول إلى القول بأن شريعة الإسلام هي درب نجاتنا نحن المسلمين وسبيل تحضرنا، ومعول بنائنا ونهضتنا بين الأمم الأخرى وهي ما تضيق عنهم، وإنما هم الذين غفلوا عنها إما بعناد تأصل في نفوسهم «حسداً من عند أنفسهم» أو بتقصير توارثناه في تبليغها على غير بينة من واقعنا ومقتضياته الإعلامية ومداخله الاجتماعية.

ولنا مع تلك النقطة وقفات تالية ليس هذا حينها .

وعليه فإنه لمن فاحش القول، وعي الفؤاد، وضعف البصيرة، وجهل بمقاصد الشريعة، أن ترن أصوات دخيلة على الفكر بأن الشريعة قد تولى عهدها، وفات أوانها، وذهب أهلوها، وأن لا فسحة لها في الألفية الثالثة، ألفية الفضاء والليزر والتجارة الإلكترونية.

٢ـ وثائق ومؤتمرات الأمم المتحدة تحرّض على الإباحية:

إبان الشهر قبل الماضي عقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها السادسة والعشرين مؤتمراً خاصاً لبحث سبل مكافحة الإيدز وأسباب انتشاره، وطرحت اللجان التحضيرية وحلقات النقاش بالمؤتمر أرقاماً مفزعة، نقلت صورة قاتمة عن معاناة الإنسان في العالم من هذا الداء، فمنظمة الصحة العالمية تقول إن الوباء يقضي على إنسان كل ١٤ ثانية!! فضلاً عن أن مليوني شخص مصابين بفيروس الإيدز يعيشون في جنوب شرق آسيا، وأن عشر دول من تجمع دول جنوب شرق آسيا (آسيان) تتجه نحو مستقبل مظلم بسبب انتشار هذا المرض الفتاك، وفيها تتزايد نسبة الإصابة بهذا المرض في دول روسيا بمعدل ١٠٠٪ سنوياً، هناك ١٢ مليون طفل أفريقي يسري عليهم وصف أيتام الإيدز بعد أن أودت الإصابة بحياة آبائهم وأمهاتهم. وتعليقاً على حجم وخطورة الإصابة بهذا المرض الطاعون العصري قال بيتربيوت مدير الوكالة التابعة للأمم المتحدة لمكافحة وباء نقص المناعة المكتسبة (لن نجد أنفسنا أمام بضعة ملايين من المصابين بل سيزيد تعدادهم بأكثر من مائة مليون إنسان، وليس هذا مجرد تكهن من التكهنات المستقبلية بل هو واقع بين أيدينا) .

هذه عينة من أرقام مأساوية تناولتها النقاشات، والمثير للدهشة أن العلاقة بين انتشار الإصابة بمرض الإيدز وتفشي الممارسات اللاأخلاقية والعلاقات المحرمة لم تستحوذ على القدر الكافي من اهتمام الأمم المتحدة، كما هو الحال بالنسبة للعلاقة بين قضية الفقر والمسؤولية المالية للعالم المتقدم تجاه العالم الثالث، وقد غضت الطرف عن أن ارتفاع الإصابة بالإيدز يتناسب طردياً مع انتشار السلوكيات الغربية في الميدان الإباحي .

٣ ـ ثقل القوى المساندة للشذوذ :

والذي زاد الأمر عجباً ودهشة أن ورقة الإيدز وحقوق الإنسان لم تشر من قريب أو بعيد إلى بيوت الدعارة وحالات الشذوذ والقوانين السيئة التي تبيح زواج المثليين وغير ذلك من مفاهيم الحرية الجسدية المطلقة، حيث يتغنى بها البعض تحت شعارات حقوق

الإنسان، وهذا يعني أن الأمم المتحدة وقعت في أخطاء فادحة ومواقف مجافية للشرائع السماوية حينما سارت في اتجاهين متناقضين، فأكدت على حقوق الشواذ وممارسة الدعارة على أساس أنهم الأكثر عرضة للإصابة بالإيدز، وفي الوقت نفسه دعت الحكومات إلى تقديم توعية ورعاية خاصة لهذه الفئات، وناشدت الشواذ ممارسة ما أسمته (الجنس الآمن) وامتلاك حرية الجنس!!

ورغم أن مناقشات بعض الدول العربية والإسلامية كانت حادة ورافضة لتسامح الأمم المتحدة مع الشذوذ والممارسات الجنسية المحرمة، إلا أن اعتراضات هذه الدول لم تلق الصدى المناسب في التوصيات النهائية للمؤتمر، وهو ما يعبر عن ثقل القوى المنفذة[1] المساندة للشذوذ كالجنس تحت دعاوى حقوق الإنسان من جانب، وعلى الجانب الآخر فإنه يعكس اتجاهات العالم نحو منحدر خطير من السلوكيات المنحرفة والممارسات المحرمة .

٤ ـ مواقف مثيرة للريب :

ويبدو أن أعمال الأمم المتحدة جميعها باتت مثيرة للريب، فلم يعد الأمر مقتصراً على البعد السياسي وانحيازها السافر ضد العالم الإسلامي والأقليات المسلمة عبر إفساح المجال للولايات المتحدة الأمريكية وطفلها المدلل (الكيان الصهيوني) للعربدة والبلطجة في المنطقة وانتهاك حقوق الشعب المسلم هنا وهناك من دون رادع أو وقفة جادة، فالأمر الذي لا يقل خطورة أنها استجابت للوبي المناصر للتفلت الأخلاقي والاجتماعي وانصاعت إلى توجيهاته، داعية إلى تكريس الأفكار الاجتماعية الغربية دون أية مراعاة للخصوصيات الدينية والثقافية وأعراف وتقاليد الدول الأعضاء، وهذا هو ما ترجمته الأمم المتحدة عملياً خلال الاجتماع التحضيري الذي عقد خلال الأيام الماضية تمهيداً لعقد اجتماع ما يسمى بالمؤتمر العالمي لمناصرة الطفل في التاسع عشر من شهر سبتمبر القادم، وكان موضوع النقاش في الاجتماع التحضيري وثيقة

---

(١)أي الهيئة التى تنفذ ما تريد. يقال:نفَّذ الحكم: أخرجه إلى العمل وفق منطوقه. المعجم الوسيط مادة (نفذ).

تحمل عنوان (نحو عالم جديد بالطفولة)، وقد أثارت هذه الوثيقة لغطاً وجدلاً كبيرين، ليس أقل مما حدث بشأن موضوع الإيدز وحقوق الإنسان، فقد بدا موقف الأمم المتحدة متجها نحو إخضاع الأجيال الجديدة إلى منظومة القيم الغربية أو بالأحرى تغريب العقول الغضة، وإعادة صياغة أجندة غربية متأثرة إلى حد كبير ببعض التيارات النَّسَوية ذات التوجهات الشاذة التي باتت تتحكم بشكل واضح في منهج عمل الأمم المتحدة فيما يخص المرأة والطفل.

٥ ـ وثيقة الغرور والتطاول على الفطرة :

ومن المؤسف أن الوثيقة المزمع مناقشتها في شهر سبتمبر المقبل لم تجد صدى على المستويين العربي والإسلامي بما يتواءم مع حجم واتساع هذا التيار التغريبي العارم الذي يريد أن يعصف بقيمنا وأدبياتنا عبر إصدار تشريع إنساني عام تغلب عليه المفاهيم الغربية. ومن عجائب وشذوذ هذه الوثيقة أنها تدعو الطفل إلى التمرد والخروج على أسرته على غرار ما يحدث في الغرب تحت شعارات ومفاهيم فضفاضة تروج لها الأمم المتحدة وهي مفاهيم (الحرية، والتمكين، والاستقلال) بما يعني أن هناك اتجاها متعمداً لتقليص دور الأسرة الطبيعية في حياة الأطفال، متجاهلة أن الأرقام الكبيرة والمعدلات المذهلة في مجال الجريمة لم تكن لتتحقق إلا بسبب ضعف الرقابة الأسرية وانشغال الأبوين عن أبنائهما. والغريب أن الوثيقة استبعدت لفظ الدين وأحلت مكانه لفظ الروحانيات، في إشارة واضحة إلى الفهم العلماني المتسلط، البعيد عن تشريعات الدين الضابطة لإيقاعات المجتمع .

ويأتي موضوع الجنس لتطرحه الأمم المتحدة بشكل فيه فجاجة منقطعة النظير، كما حدث أثناء مؤتمرات السكان والتنمية المشبوهة التي عقدت في بكين والقاهرة واسطنبول؛ إذ أطلقت وثيقة المؤتمر كما يوضح علماء الاجتماع تسمية gender التي تعني (النوع) بدلاً من Sex على اعتبار أن الأولى تعني النوع الإنساني بما يشمل المرأة والرجل معاً وغيرهما من الشواذ، وهنا تكمن خطورة عدم التفريق بين

الجنسين وما بينهما من فروقات بيولوجية وظيفية .

وتأسيساً على ذلك، فقد أولت موضوع التثقيف الجنسي اهتماماً خاصاً، إذ طالبت الوثيقة بإشاعة التثقيف الجنسي في المجتمعات، لاسيما لمن هم في سن المراهقة أو ما قبلها عبر وسائل التعليم والإعلام، بل شجعت الحرية الجنسية قبل الزواج!! وهذه أفكار كارثية تدعو إلى التحلل والانفلات، خاصة أن الأمر ليس مرتبطاً بضوابط الدين، ويجعل هذه الثقافة شائعة في جميع المراحل العمرية دون أي إشارة إلى حق الوالدين في تثقيف أبنائهما حتى تكون الثقافة مأمونة ومحكومة بضوابط أخلاقية ويراعى فيها السن والظروف المحيطة .

والباعث على الاشمئزاز أن هذه الوثيقة الخاصة بالأطفال والمراهقين تحمل مقولات الإجهاض الآمن، وكأنه خيار شخصي للمراهقة الحامل! بل وتدعو إلى تحقيقه من باب الحرية، وكونه حقاً مكتسباً للمراهقين، ضاربة بموقف الشرائع الدينية والضوابط الأخلاقية والاجتماعية عرض الحائط. وتتوالى سقطات الوثيقة لتجعل موضوع الإيدز يحتل مساحة كبيرة ليس من باب مقاومته ومبدأ «الوقاية خير من العلاج» الذي دعت إليه الشريعة الإسلامية، أو أهمية الضوابط الأخلاقية في محاصرة تفشي المرض، ولكن انحسرت الرؤية في توسيع نطاق الخدمات الصحية، معتبرة أن الإصابة بالإيدز لا تتصادم مع قضية الشذوذ الجنسي كحق من حقوق الإنسان!! وهذه كارثة أخرى كبيرة، فالإسلام يدعو صراحة إلى إشاعة ثقافة (العفة) وتحكيم الضوابط الأخلاقية في التصدي لهذا المرض، والمؤلم أن الوثيقة لم تكترث بأوضاع الطفل العربي داخل الصراعات المسلحة في فلسطين، أو نظيره العراقي الذي يموت جوعاً، أو غيره من أطفال المسلمين في الفلبين وأريتريا والصومال ومقدونيا وغيرها .

وبعد هذه الانطباعات حول الوثيقة فقد بدا أن الدافع وراء صدورها ليس الاقتناع بأن هذا النموذج الماسخ هو الأفضل، وإنما الغرور والنظرة إلى الثقافات الأخرى نظرة دونية لا يتسع معها صدر المعسكر الغربي للدخول في أية حوارات أو مجرد القبول

بتعدد الثقافات والحضارات، وأما القول بأن الموقف الغربي يهتم بإنسانية الإنسان، فهذا غير صحيح، وإلا بما نفسر حرية الشذوذ الجنسي التي تعتبر خروجاً على إنسانية الإنسان وفطرته التي فطره الله عليها؟

وقد أشرنا من قبل إلى أن موقف الجهات الرسمية في عالمنا العربي والإسلامي لم يكن لها صدى يذكر، ومن ثم ينبغي تحريض الحكومات العربية والإسلامية داخل المؤتمرات الدولية والمنظمات التي تعنى بهذه الوثائق حتى لا يكون دورها سلبياً يسمح للاتجاهات الغربية بالتأثير دون مراعاة الخصوصية الإسلامية في المسائل المتعلقة بالدين والأسرة والطفل، ويحمد لبعض الجمعيات والمنظمات الإسلامية جهودها المخلصة التي لها أثر ملموس في كشف تحديات ومخالفات هذه الوثائق وتوصيل معايبها إلينا .

٦ ـ إفلاس المتغربين :

ولاشك أن هذه الأفكار الغربية تؤثر بالسلب على مجتمعاتنا؛فهي تستقطب نفراً من بني جلدتنا، فترى الواحد منهم ينصاع في إطارها مسلوب الإرادة، ولا تتعدى مهامه كونه بوقاً إعلامياً لترويج وتسويق الأفكار المسمومة، فتارة يعارض قانون العقوبات الشرعية ويتهمه بأقذع الأوصاف والنعوت والشتائم دون أن يتجرد ويناقشه بشكل موضوعي، وتارة يرفض منع الاختلاط في الجامعة، متلاقيًا مع الأفكار التغريبية التي لا تفرق بين الذكور والإناث. وهؤلاء لا منطلقات ولا مشروع لهم سوى الهجوم على الإسلام وأنصاره واجتهاداتهم، ولا أدرى ما قيمة هذه الأفكار المشبوهة التي تروجها المدعوة نوال سعداوي دون حياء ومطالبتها المتكررة بأن تكون الحياة بين المرأة والرجل (سَلَطَة) كأن تقوم المرأة بتعدد الأزواج أسوة بالرجل!! وأن يمنع ختان الرجل، وأن ينادى الولد باسم أمه، وغير ذلك من الأفكار الشاذة. هذه السيدة يُحتفى بها في الغرب، وتفتح لها الجامعات، وتقام لها المنتديات والمحافل لماذا؟ لشذوذ أفكارها وتعارضها مع النظم السوية. وعلى مستوى الدول هناك من ينساق خلف هذه الأفكار تحت شعارات منمقة، كما حدث في المغرب العربي وقامت بعض المنظمات بوضع خطة لإدماج المرأة

مع برامج التنمية، وهذه شعارات ظاهرها الرحمة لكن باطنها العذاب كل العذاب، والحقيقة أنه تغريب للمرأة ومسخها من عفتها وقيمها.

٧ ـ شهادات غربية ترفض الخروج على الفطرة :

هذا التحدي الخطير يقتضي منا وقفات على أصعدة عدة :

الوقفة الأولى : أنه إلى جانب هذا التيار الإباحي في الغرب، هناك تيار آخر مخلص يرفض توجهات الأمم المتحدة، ويكشف اتجاهاتها نحو إشاعة الفوضى والانفلات الأخلاقي، وفي هذا الصدد نذكر أربع مقولات لمثقفين ومتخصصين غربيين تنطلق من مشكاة الإسلام، ليكون في ذلك عبرة وعظة للمتغربين: فهذا هو البروفيسور الألماني يود فوليفيلتز كبير علماء الجنس في جامعة برلين يقول في إحدى دراساته حول الجنس إنه درس علوم الجنس وأدوار الجنس وأدوية الجنس فلم يجد علاجاً أنجح ولا أنجع من قول الكتاب الذي نزل على محمد ﷺ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[١].

وقالت القاضية السويدية (بريجيدا أولف هامر) في حديث لها بعد جولات عدة في عواصم الشرق ومدنه وقراه : (إن المرأة الشرقية في قطاعات كثيرة من الحياة، أكثر حرية من المرأة السويدية، لأن الحرية هي أن يكون للإنسان عالمه الخاص، المستقل على العكس من حال المرأة السويدية التي ليس لها عالم لا يشاركها فيه الرجل) .

(إن حرية المرأة الغربية وهمية، لأنها لم تمنح المرأة ـ في الحقيقة ـ المساواة بالرجل إلا بعد أن جردتها من صفاتها الأنثوية، وحريتها الأنثوية، وحقوقها الأنثوية، لتجعل منها كائناً أقرب إلى الرجل.. إنها حرية الغني الذي سعى للمساواة بالفقراء وحرية ساكن الجنة الذي سعى للنزول إلى الأرض).

أما الدكتور (الكسيس كاريل) الحائز على جائزة نوبل عام ١٩١٢م عن أبحاثه

---

(١)النور: ٣٠، ٣١.

الطبية الفذة فيقول في كتابه: «الإنسان ذلك المجهول تعريب أسعد فريد»: (والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل، فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها.. والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها، وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي...فالقوانين الفسيولوچية غير قابلة للتغيير مثل قوانين العالم الكوكبي، فليس في الإمكان إحالة الرغبات الإنسانية محلها.. ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هي.. فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعاً لطبيعتهن، دون أن يحاولن تقليد الذكور... فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال... فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة) .

وتصف الكاتبة الأمريكية (هيلسيان سنانسيري) المجتمع العربي بأنه مجتمع كامل وسليم، ومن الخليق بهذا المجتمع أن يتمسك بتقاليده التي تقيد الفتاة والشاب في حدود المعقول، وهذا المجتمع يختلف عن المجتمع الأوربي والأمريكي، فعندكم تقاليد موروثة تحتم تقييد المرأة، وتحتم أكثر من ذلك عدم الإباحية الغربية التي تهدم اليوم المجتمع والأسرة في أوربا وأمريكا، ولذلك فإن القيود التي يفرضها المجتمع العربي على الفتاة الصغيرة ـ وأقصد ما تحت سن العشرين عاماً ـ صالحة ونافعة؛ لهذا أنصح بأن تتمسكوا بتقاليدكم وأخلاقكم، وامنعوا الاختلاط، وقيدوا حرية الفتاة، بل ارجعوا إلى عصر الحجاب، فهذا خير لكم من إباحية وانطلاق ومجون أوربا وأمريكا .. امنعوا الاختلاط قبل سن العشرين... فقد عانينا في أمريكا الكثير..لقد أصبح المجتمع الأمريكي مجتمعاً معقداً مليئاً بكل صور الإباحية والخلاعة، وأن ضحايا الاختلاط والحرية قبل سن العشرين يملأون السجون والأرصفة والبارات والبيوت السرية.

الوقفة الثانية: وتتعلق بالدول الإسلامية وحتمية قيامها بالتحرك الفاعل والمؤثر في التصدي لهذه الأفكار ومحاربتها بكل الوسائل الممكنة، واتخاذ مواقف على مستوى الحدث من خلال كشف هذا التيار السرطاني المتغلغل داخل الأمم المتحدة، وفضح استهدافاته الفضائحية، وطرح البدائل التي تنادي بها الشرائع السماوية، لاسيما الإسلام

وموقفه المناهض من هذه الترهات. وإلى جانب ذلك فإن الدعاة والحركة الإسلامية وفرسان المنابر منوط بهم القيام بدور مهم في تعرية هذه الخزعبلات المنافية للفطرة الإنسانية السوية، خاصة أنها أصبحت ديدناً للأمم المتحدة، كما ينبغي على المنظمات الإسلامية أن تسعى إلى تكوين جماعة ضغط قوية ضد هذه الممارسات اللا أخلاقية .

الوقفة الثالثة: ترتبط بالإعلام العربي والإسلامي والأدوار المنوطة به في طرح البديل القيمي الإسلامي، والتحذير من منظومة القيم الغربية وما تريده من مسخ وتشويه للعقل المسلم، فلا يستطيع أحد أن ينكر دور الآلة الإعلامية الغربية في تزيين الباطل ومحاربة الحق، وفرض صياغات وتصورات تتعارض مع خصوصياتنا الثقافية والحضارية، وآن الأوان أن تكف الفضائيات العربية عن محاكاة الإعلام الغربي والسير في ركابه والتأثر بقيمه الإعلامية الخالية من أية معايير موضوعية وأخلاقية. وحان الوقت لأن يكون الإعلام العربي عنصراً بناء للأمة وليس معول هدم، يروج الفاحشة ويشيع الفساد في أرجاء المجتمعات. وتقع المسؤولية في هذا الإطار على وزارات الإعلام العربية في الدول العربية والإسلامية، فالإعلام له أثر فعال ومؤثر على عقول وسلوك شريحة كبيرة من الناس، خاصة الأطفال والمراهقين والشباب من الجنسين .

الوقفة الرابعة: أن شبابنا (فتيانًا وفتيات) العربي والإسلامي مستهدف، وتدار حوله الشبهات والأضاليل والأباطيل، وتحاك ضده المؤامرات، وتوضع له البرامج والتصورات من أجل النيل من عقيدته وأخلاقه وفكره وقتل معاني الشهامة والرجولة والانتماء في نفسه، حتى صار للأسف شباباً ممسوخاً، بلا هوية ولا انتماء وطاقات معطلة ومهملة، ولم يكن ذلك إلا بسبب اختلال منظومة القيم وانتشار المخدرات وبيوتات الدعارة والأعمال المنافية للآداب وكما يقول الشاعر :

وَأَقْسَى مَا يَرَاهُ القَلْبُ يَوْماً ... شَبَاباً حَائِراً فِي كُلِّ نَادِي
تَقَاذَفُهُ امَفَاسِدُ كُلَّ بَحْرٍ ... فَأَضْحَى كَالسَّفِينِ بِلاَ قِيَادِ
تَرَاهُمْ فِي الدُّرُوبِ كَمَا السُّكَارَى ... وَمَا فَتِئُوا التَّخَبُّطَ وَالتَّمَادِي

وَهَاهُـمْ يَا أُخَيّ شَبَـابَ قَوْمِـي ... أَلاَ فَابْكِ عَلَـى سمـرِ الزُّنُــودِ
شَبَــابَ الجِيلِ للإِسْلام عُــودُوا ... فَـأَنْتُـمْ رُوحه وَبِكمْ يَسُود
وَأَنْـتُـمْ سِـرُّ نَهْضَــتِــهِ قَدِيمـًا ... وَأَنْتُـمْ فَجْره الزَّاهِـي الجَدِيــدُ

٨ ـ نظرة إلى الذات:

العالم من حولنا تسوده موجة عارمة من الأفكار والقيم والأساليب والطموحات، هذه الموجة شاعت بين معظم شعوب الأرض بفعل التقاربات والانقلابات في مجالات الاتصالات والمواصلات وعوالم التكنولوجيات والإلكترونيات والمعلومات وغيرها، فهل يعني ذلك أن الشعوب ذاهبة إلى حالة من الذوبان في عالم واحد، أم أن خصوصيات كل أمة ستبقى قائمة وبالأخص أمتنا ؟ وماذا ينبغي أن نحرص عليه؟ القرآن الكريم حافل بالآيات التي توضح هذا المعنى وتجيب عن هذا التساؤل، ومنها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾[(١)] .

الحقيقة التي لا مفر منها أن التباين وسنن الاختلاف ستظل قائمة على قاعدة الأسس العقدية، وهذا ما ينبغي أن يتنبه إليه أبناء أمة الإسلام، لاسيما في ظل وجود دول وشعوب منتجة للقيم وأخرى مستهلكة، دول وأمم صانعة للفعل التغييري وأخرى لا تملك إلا الانصياع، دول سحبت على نفسها أنها الأضعف والأقل إنتاجا في جميع المجالات وأعلنت استسلامها وأخرى لا تكف عن الصياح بأنها الأقوى والأصلح والأكثر تقدماً .

وقد حذرنا النبي ﷺ من التبعية المهلكة التي تقود إلى الجمود والاعتماد على الآخر، فقال في الحديث الصحيح: « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم» قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال:

---

(١)هود: ١١٨، ١١٩.

«فمن؟!»[(١)] . لقد اختلط في هذا العصر الحابل بالنابل، وتاهت المعالم، وشوهت الحقائق، واختارت الشعوب المسماة بالضعيفة ـ وفي قلبها أمة الإسلام ـ الطريق الأسهل وهو الاعتماد على استيراد كل شيء من الدول المتصدرة للزعامة والقيادة في العالم بما فيها الضار والنافع، والمعضلة الأساسية أن أمتنا تعاني عجزاً شديداً في القدرة على عرض ما لديها من قيم وخبرات ونظم، فنحن نمتلك منهجاً عظيماً هو المنهج الإسلامي القويم المنزل من عند رب العالمين؛ إذ يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾[(٢)] لكن مشكلتنا أننا لا نحسن تطبيقه ولا نجيد عرضه على الآخرين.

إشكالية العلاقة مع الغرب :

لعل هذا يقودنا إلى أهمية طرح إشكالية العلاقة مع الغرب وصورته الذهنية لدى المسلمين وصورة الإسلام والمسلمين في الذهنية الغربية، وكيف يمكن فض هذا الاشتباك، محاولة للوصول إلى فهم المواقف المتبادلة وانعكاساتها على المستجدات والمتغيرات التي تتصل بالطرفين.

لا شك أنه حينما تذكر العلاقة مع الغرب، فإن البعض يبادر بالإعلان عن أن الغرب لم ينهض إلا على أكتاف المسلمين والحضارة الإسلامية. وهذا صحيح، لكن ما ينبغي ألا ننكره أن الغرب أضاف وأبدع واخترع، فيما بقي المسلمون في مقام التلمذة والتبعية للغرب بالكُلية .

ولا ريب أن صورة الإسلام في الذهنية الغربية يشوبها الجهل والغموض، فالحروب الدامية التي أشعلها الغربيون ضد المسلمين كانت إفرازاً لعدم إدراك جوهر الإسلام وحقيقته الرامية إلى هداية البشر وتوفير الرخاء والسعادة لهم، وقد كشفت التعاملات مع النخب الغربية من خلال كتاباتهم ومنتجاتهم الفكرية ضعف وضحالة استيعابهم

---

(١)أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢)الإسراء: ٩.

للرؤية الإسلامية في مجالات الحياة .

وتتعاظم الرؤية المشوهة عن الإسلام في أذهان عامة الغربيين، فهم يتصورون أن المسلمين يعيشون في حالة من الأوهام ويؤمنون بالأساطير والخرافات ولا يفكرون إلا في ملذاتهم وشهواتهم ونزواتهم، وتبلغ هذه الصورة القاتمة مداها حينما يتصورون أن المسلمين يعيشون في عالم مظلم، غير مستنير، ويغلب عليه الطابع الأصولي الإرهابي.

هذه الانطباعات المناقضة لجوهر رسالة وتعاليم الإسلام خلقت حالة من الاستعداء بين الطرفين، وبات الغربيون ينظرون إلى الإسلام على أنه عدو بعد أن جاء المعسكر الشيوعي في مطلع التسعينات، وعلى أثر ذلك بدأ الغربيون على أعلى مستوى (خبراء الناتو) ينشغلون بالحسابات والمواجهات العسكرية .

٩ ـ عوامل شوهت الإسلام في الذهن الغربي :

وقد أسهمت في تعميق هذه الصورة غير الحقيقية جملة من العوامل والمواقف من بينها:

* التشويه الإعلامي المتعمد الذي تقوم عليه الآلة الإعلامية الصهيونية وتبعية إعلامنا العربي لها دون فرز للمواقف والرؤى ونقل القيم نفسها التي يروجها الإعلام الغربي وإلصاق الأباطيل بالإسلام .

* تدهور أحوال المسلمين في كثير من المجالات، واستسلامهم للهزيمة الحضارية التي يعيشونها، وتراجعهم عن مراكز السبق والصدارة .

* تعارض واقع المسلمين وأنظمة الإدارة مع جوهر رسالة القرآن، وولوجهم أجواء الاحتراب والاحتزاب وكثرة الخلافات والنزاعات وضياع معالم الحق فيما بينهم.

* عدم قدرة الغرب على فهم واستيعاب مقاصد الشريعة الإسلامية التي تغطي أحكامها حياة البشر في جميع نواحيها، فالغرب يفهم الدين على أنه عبادة شخصية، منطلقاً في ذلك من معرفته للنصرانية، فضلاً عن أن الكنيسة أجازت بعض التصرفات

الشاذة التي لا يقبلها أي دين سماوي، كما هو حال الكنيسة الإنجليزية، حينما أجازت عقد الزواج بين الرجال، وكذلك الكنيسة الأمريكية التي أدخلت إلى أديرتها الرقص والغناء والموسيقى. تلك هي مقاييس الغرب للتدين.

ولذلك فإن تغيير هذه الصورة السوداء لن يتسنى إلا إذا تغير واقع المسلمين، ووقفوا مع أنفسهم وقفات جادة وهادفة، تحدد المثالب وتستقي العلاجات من تعاليم الإسلام، وتغلب الكفاءة والجدية على الولاء والحزبية .

إن صورة الغرب في الذهن المسلم تأخذ أشكالا وأطيافاً متعددة تتراوح بين المتطرفة في الرفض والمفرطة في القبول والاتباع، ويقف في الوسط تيار محدود ينظر إلى الأمور بموضوعية فلا يقبل الغرب جملة ولا يرفضه تفصيلاً.

وفيما يلي الصور الذهنية المنطبعة في العقل المسلم عن الغرب :

الانطباع الأول: بعض المسلمين يرفض الغرب تماماً، ويعتقد أنه معاد ومتآمر، ويحتقر كل ما تنتجه الحضارة الغربية، ويعتبر ذلك رجسا من عمل الشيطان، ويردد مقولات أن الغرب صعد على أساس الحضارة الإسلامية، ويقف عند هذا الحد، غير عابئ بحالة التقدم التي تتزايد لدى الغرب فيما تتراجع لدى المسلمين .

الانطباع الثاني: شريحة مهمة ترى في الغرب أنه مصدر التقدم والنهضة والحداثة والتغير الاجتماعي والتطور الصناعي والحفاظ على حقوق الإنسان، هذه الشريحة تدعو إلى التأسي بالغرب إيجاباً وسلباً ونقل كل ما لديه دون مفاضلة بين ما يتفق وهويتنا وما يختلف معها، هذا المولع المتطرف بالغرب أنتجته عوامل كثيرة، من بينها عدم احترام بعض الدول الإسلامية لحقوق الإنسان وكرامته وحريته، الأمر الذي أوجد حالة من الرفض للواقع فيما كان القبول للغرب الذي ينادي بالحرية واحترام حقوق الآخر .

الانطباع الثالث: يمثله قطاع من المثقفين الذين لديهم رؤية واعية، لسان حالهم يقول (الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها) هذا التيار يقبل إيجابيات الغرب وتقدمه في مجالات كثيرة، لكنه يرفض النزعة المادية والإباحية وحالة التفكك

وشيوع الأمراض الاجتماعية في الأوساط الغربية .

١٠ ـ المبدأ الذي يحكم علاقتنا بالآخر :

ولما كانت رسالة الإسلام عالمية حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾[١] تصبو إلى هداية البشر جميعاً وتدعوهم إلى التمسك بالفضائل والقيم الشورية ومبادئ العدل والمساواة، وتغليب المصلحة العامة على الخاصة وتنظر إلى الأمور بفهم عميق، لما كانت كذلك فلا مناص من أن نتلاقى مع تجارب الآخر وخبراته بعقل مفتوح وإرادة صلبة وعزم أكيد على الاستفادة مما لديهم في تصحيح الأخطاء وسد الثغرات وتلافي أشكال القصور، مع مراعاة حقوق كل طرف وخصوصياته، ولا ينبغي أن يتوقف المسلمون عند مبدأ الأخذ من الآخر، متواكلين عليه، غير آخذين بزمام المبادرة، عاجزين عن إحداث الفعل الإبداعي والابتكاري الخلاق الذي يقودهم إلى الريادة والتقدم على سائر الأمم .

ورحم الله الإمام الشهيد حسن البنا، فقد كانت له آراء سديدة ونظرات ثاقبة في قضية النهضة التي تشغل المسلمين منذ أمد بعيد ومازالوا ينشدونها، فقد ربطها بقضية التحرر من الاستعمار والتبعية للغرب من ناحية وبالتقدم العلمي الذي يجب أن يحققه المسلمون من ناحية أخرى. وفي ذلك يقول: (لن تنصلح لنا حال ولن تنفذ لنا خطة إصلاح في الداخل ما لم نتحرر من التبعية) ويقول: (لا نهضة للأمة بغير العلم وما ساد الكفار إلا بالعلم) .

١١ ـ الأمة الحية غير يائسة :

والأمة حتى تكون يقظة وحية وشاهدة كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾[٢] لابد أن ينبذ أبناؤها حالة اليأس والقنوط التي تعتريهم وفقدان الأمل في الإصلاح، فلا حياة مع اليأس، ولا

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

(٢) البقرة: ١٤٣.

يـأس مـع الحيـاة، فـالحق سـبحانه وتعـالى يقـول: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) .

والتخلص من هذا اليأس والفتور لن يتأتى إلا عبر جملة مطالب :

* التخلص مـن الأوهـام وقـراءة الواقـع بـوعي وإدراك، فـالمؤامرة قـد تكـون واردة لكن لا يجب أن تكون تفسيراً لكل حدث، حتى لا يقود ذلك إلى الشعور بالأريحية عند الخطأ وإسناده للغير أو إلقاء المسؤوليات على الآخرين.

* التمسك بالأخلاق ورفع لواء العقيدة والمبدأ، فمـن يتمسك بالمبـدأ قـد لا يحـصد الربح الدنيوي كاملاً في بعض الأحيان، لكنه سيربح ذاته وآخرته في كل الأحوال .

* التحلي ببعد النظر وتقـويم الأمـور بـما يتناسـب مـع مـستجداتها والتغـيرات الـسريعة المتلاحقة، فلا يجب أن نكون أسرى للماضي دون أن نصنع حاضرنا وننظر إلى المـستقبل بعمق .

* روح المبـادرة عامـل أسـاسي في إنهـاض أمتنـا وإنـضاجها، والإسـهام في احتلالهـا مكانة متقدمة في السُّلم الحضاري على الصُّعد المتعددة .

* التقويم ونقد الذات يصحح مسيرة الأمـة ويـضع أبناءهـا عـلى الطريـق الـصواب وينحو بهم إلى جادة الرشاد .

* إدراك قيمة الوقت وأهميته، فالـضرورات أكثـر مـن الأوقـات والنبـي ﷺ يقـول: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ» (٢) .

* الدقة والتنظيم هما الطريق الأقـصر لنيـل الأهـداف العظمـى والـصعود إلى معـالي الأمور .

* عدم المداهنة أو الممالأة على المبدأ، فقد ثبت أن المساومات في الخبرة التاريخيـة أدت إلى ضياع حقوق عظيمة وغلّبت أغراضا خاصة على مصالح عظمـى، فالتمـسك بالمبـدأ

---

(١)آل عمران: ١١٠.

(٢)أخرجه البخاري (٦٤١٢) عن ابن عباس.

في المنشط والمكره والعسر واليسر هو الذي يمنح حياتنا معنى ويجعلها تختلف عن حياة الأذلاء الذين يكافحون من أجل البقاء المجرد.

١٢ ـ الحياة معترك ولابد من روح المقاومة :

لابد أن يؤمن أبناء هذا الجيل بأن الحياة معترك، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [(١)] ويقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [(٢)] ومن يظن أن الدنيا دار نعيم مقيم وليست دار ابتلاء فهو واهم، فالحياة المثالية ضرب من الخيال. فلا ينبغي أن ينزعج المرء حين يجد نفسه محاطاً بالضرورات والتحديات والمتاعب، فهذا شيء طبيعي يدعونا إلى إعداد أنفسنا لمواجهة تطورات الحياة، ولا يعني ذلك أن نتوقف عن البحث في أسباب السعادة والرفاهية، لكن المهم أن نؤمن بأنه ليس من الحكمة أن نبحث عن حلول كاملة في وسط غير كامل .

وصراعات الحياة ومشكلاتها لا تتوقف، وهذا أمر طبيعي، والخطورة لا تكمن في وجود المشكلة وإنما في كيفية التعامل معها، فالتعامل الذي يقوم على روح المقاومة بالتأكيد يستخرج ما لدينا من كوامن وطاقات وخبرات إبداعية، والتقدم الذي يحدث في منطقة دون أخرى ليس إلا نتاج أزمات عاشتها .

ولا يخفى علينا أن الاعتراف بالمشكلة وتقبلها هو أولى خطوات العلاج؛فالمشكلة إذ تم توصيفها على نحو سليم فإننا نكون قطعنا شوطاً نحو الحل، هذا فضلاً عن تفكيك المشكلات ووضع حلول لكل مشكلة على حدة، حتى لا يكون هناك شعور باليأس أو ضخامة المشكلات، يلي ذلك أهمية إعمال مبدأ العصف الذهني وطرح حلول عديدة وأفكار متنوعة لمشكلة واحدة. هذا لاشك سوف يصل بالمرء إلى الحل الناجع.

---

(١) البلد: ٤.

(٢) الملك: ١، ٢.

ثالثاً:
مواقف تربوية خالدة من رجال الأمة الرائدة

إن أمة الإسلام أمة عزيزة، لا ترضَى بالدونِ منَ العيشِ، ولا تسيرُ خلفَ أي ركبٍ، إنهَا أمةٌ تؤمنُ بِربهَا عز وجل، وبنبيهَا محمدٍ ﷺ، لهَا دينُهَا ودستورُهَا، وعندَها تاريخُهَا وحضَارَتُهَا، ترسمُ مستقبلَهَا، وهيَ على بصيرةٍ منْ ماضِيهَا، تستنبتُ شطئها منْ تُربةِ الإيمانِ والتوحيدِ واليقينِ والفضيلةِ والإصلاحِ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ ...﴾ (1).

إن العقائدَ الحقةَ هيَ التِي تُولد العجائبَ، وإن العقائدَ الحقةَ لا توجدُ فيها نوازعُ الأهواءِ، إن العقائدَ الحقةَ هيَ التِي تنيرُ العقولَ بالحُجةِ، وتُهذبُ النفوسَ بالحكمةِ، كمْ أخرجتْ مدارسُهَا منْ القوّامينَ علَى هدايةِ الإسلام منْ رجالٍ يُلاقونَ الصعابَ فيجتَازُونَهَا ويبارونَ الريحَ فيسبقونَهَا، ويخفضونَ أجنحتَهمْ للمستضعفينَ تواضعاً، ويرفعونَ رؤوسَهمْ علَى المتكبرينَ اعتزازاً، تعترضُهم الأخطارُ فيخوضونَ غمارَهَا وتعتل عقولٌ وقلوبٌ، فيصفونَ الدواءَ لموضعِ عللِهَا، عدلُ كلُهمْ، وقسطاسٌ مستقيمٌ فعلُهم، وسخاؤُهمْ هوَ الغيثُ النافعُ العميمُ.

إنَّ القدوةَ وسيلةٌ تربويةٌ مؤثرةٌ في عالمِ البشرِ، إنْ خيراً أو شراً، ولذلكَ قالَ الله سبحانَهُ لنبيهِ ﷺ بعدما ذكر الأنبياء قبله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ (2).
ثم كانَ الخطابُ لمحمدٍ ﷺ ولأمتِهِ بالاقتداءِ بأبِي الأنبياءِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ (3) والقدوُة كما تكونُ في الخيرِ تكونُ كذلكَ في الشرِ، قال اللهّ تعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ

(١) الفتح: ٢٩.
(٢) الأنعام: ٩٠.
(٣) الممتحنة: ٤.

أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[1].

ووجودُ القدواتِ في المجتمعِ منْ أجل وأعظمِ الأسبابِ في الاستمرارِ وشحذِ الهممِ وإزالةِ الهمِ والغمِ، ولذلكَ كانَ الخطابُ القرآنيُ للأمةِ في أشدِ أيامِهَا في غزوةِ الأحزابِ حيثُ بلغتِ القلوبُ الحناجرَ، كانَ الخطابُ المثبتُ للأمةِ وهو يعرضُ هذهِ القصةِ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[2]، وهذهِ حقيقةٌ بشريةٌ مُطردةٌ، فابنُ القيمِ رحمهُ الله يقولُ: إذَا اشتدَ بنَا الأمرُ ذهبْنَا إلى سجنِ القلعةِ فرأَيْنَا الإمامَ ابنَ تيميةَ في ثباتِه وقوةِ حجتِهِ فرجعْنَا وقدْ زالَ ما بنَا من همٍ. ولصدقِ هذه الحقيقةِ قالُوا: الناسُ على دينِ ملوكهمْ.

وبعدَ هذهِ التوطئةِ عنْ أثرِ القدوةِ في صناعةِ المجتمعِ يأتِي الحديثُ عنِ الرجالِ الذينَ همْ قدواتُ المجتمعاتِ، فالرجولةُ معيارٌ قرآني، ومقياسٌ عرفيّ بينَ الناسِ وما منْ مجتمعٍ إلا وينشدُ الرجالَ، قالَ الله تعالَى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾[3] وعندَما قيلَ لعمرَ تَـمَنّ، قالَ: أتمنَى مِلءَ هذهِ الغرفةِ رجالاً كأبِي عبيدةَ! وعدةُ الأممِ همُ الرجالُ، فأينَ رجالُ الأمةِ؟ وعندَ حديثِنا عنِ الرجالِ والقدوةِ نجدُ أنفسنَا ملزمينَ أنْ نتحدثَ عنِ الكبارِ في هذهِ الأمةِ، ومَنْ كرسولِ اللهّ ﷺ وهوَ القائلُ: «أنا سيدُ ولدِ آدمَ ولا فخرَ»؟[4] وهنَا نستحِيى أنْ نختارَ مواقفَ معينةٍ من حياتهِ ﷺ، فهوَ ﷺ في كلِ نَفَسٍ وحركةٍ من حياتِه لنَا فيها قدوةٌ، والذِي يختلفُ هوَ الحكمُ الشرعيُ بينَ الركنِ والواجبِ والمندوبِ والعاداتِ، وكبارُ الصحابةِ رضوانُ اللهّ عليهمْ كانُوا يتتبعونَ الهدى النبوي الكريمَ في كلِ شيءِ، فهذَا عمر في حجةِ دفعَهُ الاقتداءُ إلَى أَنْ يقفَ في دفعِهِ

---

(١) الزخرف: ٢٣.

(٢) الأحزاب: ٢١.

(٣) يس: ٢٠.

(٤) أخرجه الترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه واللفظ له (٤٣٠٨) عن أبي سعيد الخدري قال الترمذي: «حسن صحيح»، وصححه الألباني.

من عرفاتِ في المواقفِ البشريةِ له ﷺ فيقولُ: هنَا وقفَ ﷺ وبالَ!! وهذَا نموذجٌ متكررٌ في مواطنَ كثيرةٍ، ولهذَا الأمرِ سنتحدثُ عنْ مجملِ ما ذكرْتهُ أمُّ المؤمنينَ عائشةُ رضي الله عنها وعن أبيها في وصفها للنبي ﷺ «كانَ خلقُهُ القرآنَ»(١) نعم لو تخلقتِ الأمةُ بخلقِ القرآنِ لسادتْ الأممُ ولخرجتْ منَ الضياعِ التِي هيَ فيهِ.

وهنَا سنختارُ رجالا بعدَ النبيِ ﷺ، ونماذجَ منَ المواقفِ التربويةِ لهمْ، ونحنُ عندَما نريدُ أنْ نذكرَ الأسماءَ سنجدُ أنفسنَا ملزمينَ بذكرِ العشرةِ المبشرينَ بالجنةِ، وبعضِ أمهاتِ المؤمنينَ والبعضِ منْ آلِ بيتِ النبي ﷺ، ونماذجَ منْ عامةِ الصحابةِ رضوانُ الله عليهمْ، ولنْ نخرجَ عنْ ذلكَ في حديثِنَا لأن هؤلاءِ ماتَ عنهمُ النبي ﷺ وهوَ عنهمْ راضٍ، ولضيقِ الوقتِ الذِي نتحدثُ فيهِ سأقتصرُ علَى عددٍ قليلٍ منهمْ رضوانُ الله عليهمْ، وإلا فأمةُ الإسلامِ منْ أكثرِ الأممِ التِي برزَ وظهرَ فيها الرجالُ في المجتمعات!! وما أذكرهُ هنَا إنما أخذْنا أصلهُ منْ تاريخِ الخلفاءِ للإمامِ السيوطِي، وكذلكَ منْ سِيرِ أعلامِ النبلاءِ ووضعنا عناوينَ جانبيةٍ فيها ومضاتٌ منْ غيرِ شرحٍ وإسهابٍ، والله نسألُ التوفيقَ والسدادَ.

أولاً: أبو بكرٍ الصديقُ:

خليفةُ رسولِ الله ﷺ (عبدُ الله بنُ أبِي قحافَةَ) يلتقِي معَ النبيِ ﷺ في مُرة.

١ـ التمييزُ بينَ الأصحابِ:

أخرجَ البزارُ عنْ أبِي بكر الصديقِ رضي الله عنه قالَ: جئتُ بأبِي قُحافةَ إلَى النبيِ ﷺ، فقالَ: «هَلا تركتَ الشيخَ حتى آتيَهُ: قالَ: بلْ هوَ أحقُّ أنْ يأتيكَ، قالَ: إنَا نحفظُهُ لأيادي ابنِه عندَنَا»(٢).

(١)أخرجه أبو داود (١٣٤٢)، وأحمد (٦/ ١٦٣)، والحاكم (٢/ ٤٩٩) عن عائشة، وقال الحاكم:« صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وصححه الألباني.

(٢)أخرجه البزار في مسنده (٧٩)، والحاكم (٣/ ٢٤٣، ٢٤٤)، عن أبي بكر وقال: صحيح الإسناد، وتعقبه الذهبي فقال: عبد الله ـ يعني ابن عبد الملك الفهري ـ منكر الحديث، والقاسم لم يدرك أباه ولا أبوه أبا بكر».

وأخرجَ الشيخانِ عنْ أبِي سعيدٍ رضي الله عنهم قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنّ منْ أمَنِّ الناسِ عليَّ فِي صحبتِهِ ومالِهِ أبَا بكرٍ، ولوْ كنتُ متخذًا خليلاً غيرَ ربِي لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلاً، ولكنْ أخوةُ الإسلامِ»[1].

٢ـ منْ قدّمَ وأعطَى في وقتِ الشدةِ والمغرمِ رفعَهُ اللهّ في وقتِ الرخاءِ والمغنمِ:

وفي حديثِ ابن أبِي زمعةَ رضي الله عنهم أن رسولَ الله ﷺ أمرهُمْ بالصلاةِ، وكانَ أبو بكرٍ غائباً، فتقدمَ عمرُ فصلَّى، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «لا، لا، لا، يأبَى الله والمسلمونَ إلا أبَا بكرٍ، يصلِي بالناسِ أبُو بكرٍ»[2].

وفي حديثِ ابنِ عمرَ: كَبَّرَ عمرُ فسمعَ رسولُ الله ﷺ تكبيرَهُ فأَطلعَ رأسَهُ مُغْضَباً فقالَ: «أينَ ابنُ أبِي قحافةَ؟».

قالَ العلماءُ: في هذَا الحديثِ أوضحُ دلالةٍ علَى أن الصديقَ أفضلُ الصحابةِ على الإطلاقِ، وأحقهمْ بالخلافةِ، وأولاهُمْ بالإمامةِ. قالَ الأشعريُّ: قدْ عُلِمَ بالضرورةِ ذلك.

٣ـ السبقُ في عملِ الخيرِ:

أخرجَ ابنُ عساكرَ عنْ أبِي صالحِ الغفاريِّ: أن عمرَ بنَ الخطابِ «كانَ يتعهدُ عجوزاً كبيرةً عمياءَ فِي بعضِ حواشِي المدينةِ من الليلِ، فيسقِي لهَا، ويقومُ بأمرِهَا، فكانَ إذَا جاءَهَا وجدَ غيرَهُ قدْ سبقهُ إليهَا فأصلحَ ما أرادتْ، فجاءَهَا غيرَ مرةٍ كي لا يسبق إليهَا، فرصدَهُ عمرُ، فإذَا هوَ بأَبِي بكرِ الذي يأتِيَها ـ وهوَ يومئذٍ خليفة ـ فقالَ عمرُ: أنتَ هوَ لَعَمْرِي»[3].

٤ـ الحوارُ والاعتراضُ مفتوحٌ حتَى في وقتِ الشدةِ:

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢)، والترمذي (٣٦٦٠)، وأحمد (٣/ ١٨)، عن أبى سعيد الخدرى.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٦٠)، وأحمد (٤/ ٣٢٢)، والحاكم (٣/ ٦٤٠) عن عبد الله بن زمعة، قال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، وصححه الألباني.

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٠/ ٣٢٢).

أخرجَ ابنُ عساكرَ عن يَسَارِ بنِ حمزَةَ، قالَ: لَمَّا ثقُلَ أبُو بكرٍ أشرفَ علَى الناسِ من كُوَّةٍ، فقالَ: أيهَا الناسُ، إنِي قدْ عهدتُ عهدا، أفترضَوْنَ بهِ؟ فقالَ الناسُ: رضينَا يا خليفةَ رسولِ اللهِ، فقامَ عليٌّ، فقالَ: لا نرضَى إلا أن يكونَ عمرُ، قالَ: فإنهُ عمرُ [١].

٥- عدمُ التسرعِ في الفتوى والخوفُ منَ القول عنْ ربِّ العالمين:

وأخرجَ أبُو عبيدةَ عنْ إبراهيمَ التيميِّ قالَ: سُئِلَ أبُو بكرٍ عنْ قولِه تعالَى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾؟ فقالَ: أيُّ سماءٍ تُظِلُّنِي، أيُّ أرضٍ تُقِلُّنِي، إنْ قلتُ في كتابِ الله ما لا أعلمُ [٢].

٦- الاستحياءُ صفةٌ لحَمَلَةِ الرسالةِ:

وأخرجَ ابنُ أبِي شيبةَ في مصنفِهِ عنِ الزبيرِ أن أبَا بكرٍ قالَ وهوَ يخطبُ الناسَ: يا معشرَ الناسِ، استحيُوا منَ الله، فوالذي نفسِي بيدِه إني لأظل حينَ أذهبُ إلَى الغائطِ في الفضاءِ مغطياً رأسِي استحياءً منَ الله [٣].

٧- الورعُ صفةُ الكبارِ والقادةِ:

وأخرجَ البخاري عنْ عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: كانَ لأبِي بكرٍ غلامٌ يُخْرِجُ لهُ الخراجَ، وكانَ أبُو بكرٍ يأكلُ منْ خَراجِهِ، فجاءَ يوماً بشيءٍ، فأكلَ منهُ أبُو بكرٍ، فقالَ لهُ الغلام: تدرِي ما هذَا؟ قالَ أبُو بكرٍ: ما هوَ؟ قالَ: كنتُ تكهنتُ لإنسانٍ في الجاهليةِ - وما أُحْسِنُ الكهانَةَ - إلا أنِي خدعتُهُ فلقيني، فأعطانِي هذَا الذِي أكَلْتَ منهُ، فأَدخلَ أبُو بكرٍ يَدَهُ، فقاءَ كلَّ شيءٍ في بطنِهِ [٤].

ثانياً: عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنهم:

أحدُ السابقينَ الأولينَ، وأحدُ العشرةِ المشهودِ لهمْ بالجنةِ، وأحدُ الخلفاءِ الراشدينَ،

---

(١)أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٣٨ رقم ١٢٠٦٩)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤/ ٢٥٢، ٢٥٣).

(٢)ابن أبي شيبة في المصنف (٣٠١٠٧)، ط. مكتبة الرشد، وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٧٣).

(٣)رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١١٢٧)، وأحمد في الزهد ص (٢١١).وقال الحافظ ابن حجر فى إتحاف المهرة (٨/ ٢١١): «منقطع»، ورواه أيضاً الحكيم الترمذي فى نوادر الأصول (٣٦١).

(٤)أخرجه البخاري (٣٨٤٢).

وأحدُ أصهارِ النبيّ ﷺ، وأحدُ كبارِ علماءِ الصحابةِ وزهادِهمْ.

١ـ الداعيةُ القوي عز لدعوتِهِ وإخوانِهِ وحصنٌ ضدَ الفتنِ:

أخرجَ البزار عنْ قُدَامَةَ بنِ مظعونٍ، عنْ عمِه عثمانَ بنِ مظعونٍ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «هذَا غَلَقُ الفتنةِ، وأشارَ بيدِهِ إِلَى عمرَ، لايزالَ بينكمْ وبينَ الفتنةِ بابٌ شديدُ الغَلقِ ما عاشَ هذَا بينَ أظهُرِكُمْ»[1].

٢ـ يختصُّ الله منْ عبادِه منْ يشاءُ فكنْ منهمْ:

أخرجَ الطبرانيُّ في الأوسطِ عنْ أبِي سعيدٍ الخدريّ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ أبغضَ عمرَ فقدْ أبغضنِي، ومنْ أحبَّ عمرَ فقدْ أحبنِي، وإن الله باهَى بالناسِ عشيةَ عرفةَ عامة وباهَى بعمرَ خاصةً، وإنهُ لم يبعثِ الله نبياً إلا كانَ في أمتِهِ مُحَدَّثٌ، وإنْ يكنْ في أمتِي منهمْ أحدٌ فهوَ عمرُ»، قالوا: يا رسولَ الله كيفَ محدثٌ؟ قالَ:« تتكلمُ الملائكةُ علَى لسانِهِ»[2].

٣ـ الصادقونَ يواليهمُ الطيبونَ:

قالَ جعفرُ الصادقُ: «أنَا بريءٌ ممنْ ذكرَ أبَا بكرٍ وعمرَ إلا بخيرٍ» أقولُ: وأنَا كذلكَ... أنتمْ شهداءُ الله في أرضِهِ.

٤ـ تلاقِي الأرواحِ سبيلٌ لتلاقِي الأجسادِ:

عن ابنِ عمرَ قالَ: كانَ عمرُ بنُ الخطابِ يخطبُ يومَ الجمعةِ فعرضَ في خُطبتِهِ أنْ قالَ: يا سارية الجبلَ منْ استرعَى الذئبَ ظلم.

فالتفتَ الناسُ بعضُهمْ لبعضٍ، فقالَ لهمْ عليٌّ: ليخرجَنَّ مما قالَ، فلمَّا فرغَ سألوهُ فقالَ: وقعَ في خَلَدِي أنَ المشركينَ هزمُوا إخوانَنَا، وأنهمْ يمرونَ بجبلٍ، فإنْ عدلُوا إليهِ قاتلُوا منْ وجهٍ واحدٍ وإنْ جاوزوا هلكُوا، فخرجَ مِني ما تزعمونَ أنكمْ سمعتمُوه،

(١)رواه البزار (٢٥٠٦ ـ كشف الأستار)، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٧٢): «رواه الطبراني والبزار، وفيه جماعة لم أعرفهم، ويحيى بن المتوكل ضعيف».

(٢)رواه الطبراني في الأوسط (٦٧٢٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٦٩): «رواه الطبراني في الأوسط وفيه أبو سعد خادم الحسن البصري لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».

قالَ: فجاءَ البشيرُ بعدَ شهرٍ فذكرَ أنهمْ سمعُوا صوتَ عمرَ في ذلكَ اليومِ، قالَ: فعدلنَا إلَى الجبلِ ففتحَ الله علينَا[١].

ثالثاً: عثمانُ بنُ عفانَ:

ثالثُ الخلفاءِ، هاجرَ الهجرتينِ إلى الحبشةِ والمدينةِ، وسُمِّي ذَا النورينِ لأنهُ تزوجَ ابنتَي النبيِ ﷺ: رقيةَ وأمَ كلثومٍ.

١ـ الفقهُ والطهارةُ جمالٌ للمرأةِ والرجلِ:

أخرجَ الشيخانِ عنْ عائشةَ رضيَ الله عنها أن النبيَ ﷺ جمعَ ثيابَهُ حينَ دخلَ عثمانُ وقالَ: «ألا أستحِي منْ رجلٍ تستحِي منهُ الملائكةُ؟»[٢].

وأخرجَ ابنُ عساكرَ عنْ زيدِ بنِ ثابتٍ قالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «مرَ بِي عثمانُ وعندِي ملك منَ الملائكةِ فقالَ: شهيدٌ يقتلُهُ قومُهُ، إنَا نستحِي منهُ»[٣].

٢ ـ عندَ الحشرجةِ يتذكرُ الإنسانُ الأعمالَ الصالحةَ، فأكثرُوا منهَا واسألُوا الله التوفيقَ.

أخرجَ ابن أبِي شيبة، وابنُ عساكرَ عنْ أبِي ثورٍ الفهمِي قالَ:دخلتُ علَى عثْمانَ ـ وهو محصورٌ فقلت: إن فلاناً ذكر كذا وكذا، فقال عثمان: ومن أين وقد اختبأت عند الله عشراً: إنِي لرابعُ الإسلامِ، (وجهزتُ جيشَ العسرةِ)، وأنكحنِي رسولُ الله ﷺ ابنتَهُ، ثمَ تُوفِيتْ فأنكحنِي ابنتَهُ الأخرَى، وما تغنيتُ، ولا تمنيتُ، ولا وضعتُ يمينِي علَى فرجِي منذُ بايعتُ بهَا رسولَ الله ﷺ ومَا مرَّتْ بِي جمعةٌ منذُ أسلمتُ إلا وأنَا أعتقُ فيهَا رقبةً إلا ألا يكونَ عندِي شيءٌ فأعتقُهَا بعدَ ذلكَ، ولا زنيتُ في جاهلية ولا إسلامٍ قط،

---

(١)رواه البيهقي فى دلائل النبوة (٢/ ١٨١)، وصححه الألباني في الصحيحة (١١١٠).

(٢)أخرجه البخاري (٣٦٩٥)، ومسلم (٢٤٠١).

(٣)أخرجه الطبراني في الكبير (٥/ ١٥٩) (٤٩٣٩)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩/ ٩٤) رقم (٧٨٥٨)، عن بدر بن خالد وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٨٢): «رواه الطبراني وفيه محمد بن إسماعيل الوساوسي وكان يضع الحديث».

ولا سرقتُ في جاهليةٍ ولا إسلامٍ، ولقدْ جمعتُ القرآنَ علَى عهدِ رسولِ الله ﷺ[(١)].

٣ـ الرأفةُ بالخدمِ:

وأخرجَ عنْ عبدِالله الرومي قالَ: كانَ عثمانُ يلي وضوءَ الليلِ بنفسِه، فقيلَ لهُ: لو أمرتَ بعضَ الخدمِ فكفَوْكَ، قالَ: لا، الليلُ لهمْ يستريحونَ فيهِ.

٤ـ الله يدافعُ عنِ الذينَ آمنُوا:

وأخرجَ أبُو نعيمٍ في الدلائلِ عنِ ابنِ عمرَ أن جهجاهًا الغفاري قامَ إلَى عثمانَ وهوَ (على المنبرِ) يخطبُ، فأخذَ العصَا منْ يدهِ فكسرَهَا علَى ركبتِهِ، فمَا حالَ الحولُ (علَى جهجاهٍ) حتَى أرسلَ الله في رجلِهِ الأكَلَةَ فماتَ منهَا.

رابعاً: علي بنُ أبِي طالبٍ رضي الله عنه:

أحدُ العشرةِ المشهودِ لهمْ بالجنةِ، وأخُو رسولِ الله ﷺ بالمؤاخاةِ، وصهرُه على فاطمةَ سيدةِ نساءِ العالمينَ، وأحدُ العلماءِ الربانيينَ...

قالَ الإمامُ أحمدُ: ما وردَ لأحدٍ منْ أصحابِ رسولِ الله ﷺ منَ الفضائلِ ما وردَ لعليٍّ رضي الله عنهم.

١ـ بركةُ دعاءِ الخيرين:

أخرجَ أحمد في مسنده عنْ علي قالَ: بعثني رسولُ الله صلَى الله عليهِ وآله وسلمَ إلَى اليمن، فقلتُ: يا رسولَ الله، تبعثني إلى قوم أسن مني، وأنا حدث لا أبصر القضاء؟ قال: فوضع يده على صدري وقال: «اللهم ثبت لسانه واهد قلبه، يا علي، إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت الأول، فإنك إن فعلت ذلك تبين لك القضاء»، قال: فما اختلف عليّ قضاء بعد، أو ما أشكل عليّ قضاء بعد[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٥٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩/ ٢٧).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١١١)، والترمذي (١٣٣١)، والطيالسي (١٢٥)، عن علي بن أبي طالب، وحسنه الترمذي والألباني.

٢ـ هكذَا منْ نالَ منْ آلِ بيتِ النبيِ ﷺ والصالحينَ:

عن الأعمشِ، قالَ: تغوَّطَ رجلٌ منْ بني أسدٍ علَى قبرِ الحُسينِ، فأصابَ أهلَ ذلكَ البيتِ خَبَلٌ، وجنون، وبرص، وفقر، وجذام.

وهكذَا لحومُ العلماءِ مسمومةٌ وعادةُ الله في انتهاكِ منتقصِيهم معلومةٌ.

خامساً: أبُو عبيدةَ بنُ الجراحِ:

يجتمعُ في النسبِ هوَ والنبي ﷺ في فِهرٍ، شهدَ لهُ النبيُّ ﷺ بالجنةِ وسمَّاهُ أمينَ الأمةِ.

١ـ يفدونَ النبيّ ﷺ بأرواحِهمْ:

وقدْ شهدَ أبو عبيدةَ بدراً فقتلَ يومئِذٍ أباهُ، وأبلَى يومَ أُحُدٍ بلاءً حسناً، ونزعَ يومئذٍ الحلقتينِ اللَّتينِ دخلتَا منَ المِغْفَرِ في وَجْنَةِ رسولِ الله ﷺ منْ ضربةٍ أصابتْهُ فانقلعتْ ثَنِيَّتَاهُ فحسُنَ ثغرُهُ بذهابِهِمَا حتَى قيلَ: ما رُؤِيَ هَتْمٌ أحسنُ منْ هَتْمِ أبي عُبيدَة.

والنبي ﷺ يُقدمُ منْ سبقَ بالجهادِ والفداءِ.

عنْ عمرو بنِ العاصِ قالَ: قيلَ: يا رسولَ الله: أيُّ الناسِ أَحبُّ إليكَ؟

قالَ:«عائشةُ»: قيلَ مِنَ الرِّجالِ؟ قالَ: «أبُو بكرٍ»، قيلَ: ثمَّ منْ؟ قالَ:« ثمَّ أَبُو عبيدةَ ابن الجراحِ»[(١)].

٢ـ الخوفُ منَ المثولِ بينَ يدي اللهّ يومَ القيامةِ:

عنْ قتادةَ قالَ: قالَ أبُو عبيدةَ بنُ الجراحِ: وَدِدْتُ أَني كنتُ كَبشاً، فيذبحني أهلِي فيأكلونَ لحمِي، وَيَحْسَون مَرقِي[(٢)].

سادساً: طلحةُ بنُ عبيدِ الله:

أحدُ العشرةِ المشهودِ لهمْ بالجنِة.

صاحبُ العذرِ لا يخسرُ سهمَهُ في أمةِ محمدٍ ﷺ.

---

(١)أخرجه الترمذي (٣٦٥٧)، وابن ماجة (١٠٢)، وأبو يعلى (٤٨٠٠)، والحاكم (٣/ ٧٣) وصححه عن عائشة رضي الله عنها.

(٢)مصنف عبد الرزاق (٣/ ٤٤١)، والزهد لابن المبارك ص (٨١)، وصححه الألباني.

كانَ ممنْ سبقَ إلَى الإسلامِ، وأوذيَ في الله، ثمَ هاجَرَ، فاتفقَ أنّهُ غابَ عنْ وقعةِ بدرٍ في تجارةٍ لهُ بالشامِ، وتألَّمَ لغيبتِهِ، فضربَ لهُ رسولُ الله ﷺ بسهمِهِ وأجرِه[1].

سابعاً: الزبيرُ بنُ العوامِ:

حواريُّ الرسولِ ﷺ، وابنُ عمتِه صفيةَ بنتِ عبدالمطلبِ وأحدُ العشرةِ المشهودِ لهمْ بالجنةِ.

الخلافُ بينَ الصحابةِ رضوانُ اللهّ عليهمْ لمْ يؤثرْ علَى أخوتِهم ومحبتهم:

عنْ أبي نضرةَ قالَ: جيءَ برأسِ قاتل الزُّبيرِ إلَى علي فقالَ عليٌّ: تبوّأ يا أعرابيٌّ مقعدَكَ منَ النارِ، حدثنِي رسولُ الله ﷺ: أنَّ قاتِلَ الزُّبيرِ في النارِ[2].

ثامناً: عبدُالرحمنِ بنُ عوفٍ:

أحدُ العشرةِ المشهودِ لهمْ بالجنةِ، كانَ اسمُه عبدُالكعبةِ، فسَمَّاهُ النبيُ ﷺ عبدَالرحمنِ.

١- الأوسمةُ الحقيقيةُ تشهدُ لصاحبِهَا يومَ القيامةِ:

عن ابنِ إسحاقَ قالَ: كانَ ساقطَ الثنيتين، أهتَمَ، أعسرَ، أعرجَ، كانَ أصيبَ يومَ أحدٍ فهُتِمَ، وجُرحَ عشرينَ جراحةً، بعضُهَا في رجلِه، فعرجَ.

٢- الجد في العملِ وعدمُ الاتكالِ علَى الآخرينَ:

ولَمَّا هاجرَ إلَى المدينةِ فقيراً لا شيءَ لهُ، آخَى رسولُ الله ﷺ بينَه وبينَ سعدِ بن الربيعِ أحدِ النُّقباءِ، فعَرَض عليهِ أن يُشاطِرَهُ نعمتَهُ، وأنْ يطلِّقَ لهُ أحسنَ زوجتَيه، فقالَ لهُ: باركَ الله لَكَ في أهلِكَ ومالِكَ، ولكنْ دُلَّنِي علَى السوقِ، فذهبَ فباعَ واشترَى، وربحَ، ثمَ لمْ ينشبْ أنْ صارَ معهُ دراهمَ، فتزوَّجَ امرأةً على زِنَةِ نواةٍ منْ ذهبٍ، فقالَ لهُ النبيُّ ﷺ: «أولِمْ ولوْ بشاةٍ»[3] ثمَ آلَ أمرُه في التجارةِ إلَى ما آلَ.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٦٨)، والطبراني (١٨٩)، وحسنه الهيثمي في المجمع (٩/ ١٤٨).

(٢) أحمد (١/ ٨٩) عن زِرّ بن حبيش، وقال الشيخ أحمد شاكر فى تحقيقه للمسند (٦٨٠): «إسناده صحيح»، وانظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٦١)، والبداية والنهاية (٧/ ٢٥٠).

(٣) أخرجه البخاري (٥١٥٣)، ومسلم (١٤٢٧) عن أنس بن مالك.

فصاحبُ المالُ حرٌ في تفكيرِهِ ورأيهِ لا يتحكمُ فيهِ إلا الحق الذِي يعتقدُهُ. ومنْ هنَا كانتْ مهمةُ الوقفِ في العملِ الإسلامِي.

تاسعا: سعدُ بنُ أَبِي وقاص:

أحدُ العشرةِ المبشرينَ بالجنةِ، وأحدُ منْ شهدَ بدراً والحديبيةَ، وأحدُ الستةِ أهلِ الشورَى.

١ ـ السبقُ في الإسلامِ والدعوة يرفع المكانةَ عندَ القادةِ والكبارِ:

عنْ قيسٍ قالَ: قالَ سعدٌ: ما جَمَعَ رسولُ الله ﷺ أبويهِ لأحدٍ قبلِي. ولقدْ رأيتُه يقول لِي: يا سعدُ ارمِ فداكَ أبِي وأمِي! وإني لأولُ المسلمينَ رمَى المشركينَ بسهمٍ، ولقد رأيتنِي معَ رسولِ الله ﷺ سابعَ سبعةٍ ما لنَا طعامٌ إلا ورَقُ السَّمُرِ، حتَى إنَ أحدَنَا لَيَضَعُ كما تضعُ الشاءُ[١].

٢ـ الخيرُ يسوقهُ الله لمنْ يُحب:

عنْ عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: أرِقَ رسولُ الله ﷺ ذاتَ ليلةٍ، فقالَ: ليتَ رجلاً صالحاً من أصحابِي يحرسنِي الليلةَ. قالتْ: فسمعنَا صوتَ السلاحِ، فقالَ رسولُ الله: مَنْ هَذا؟ قالَ سعد بنُ أبِي وقاصٍ: أنَا يا رسولَ الله جئتُ أحرسُكَ. فنامَ رسولُ الله ﷺ حتَى سمعتُ غطيطَهُ[٢].

٣ـ الصلابةُ في الدينِ:

عنْ أبِي عثمانَ أنَّ سعداً قالَ: نزلتْ هذه الآيةُ فيَّ ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾[٣] قال: كنتُ بَرًّا بأمي، فلمَا أسلمتُ، قالتْ: يا سعدُ! ما هذَا الدينُ الذِي قَدْ أحدثتَ؟ لَتَدعنَّ دينَكَ هذَا، أو لا آكُلُ، ولا أشرَبُ حتَى أموتَ، فتُعَيَّرَ بِي، فيقالُ: يا قاتلَ أمِّهِ. قلتُ: لا تفعلِي يا أمَّهْ، إنِي لا أدعُ دينِي هذَا لشيءٍ، فمكثتْ يوماً لا

---

(١)أخرجه البخاري (٤٠٥٥)، ومسلم (٢٩٦٦) وأحمد (١/ ١٧٤) .

(٢)أخرجه البخاري (٢٨٨٥)، ومسلم (٢٤١٠).

(٣)العنكبوت:٨.

تأكلُ ولا تشربُ وليلةً، وأصبحتْ وقدْ جُهِدَتْ، فلمَا رأيتُ ذلكَ، قلتُ: يا أُمَّهْ! تعلمينَ واللهِ لوْ كانَ لكِ مئةُ نَفْسٍ، فخرجَتْ نَفْساً نَفْساً، ما تركتُ دِينِي، إنْ شئتِ فكلِي أو لا تأكِلِي، فلمَّا رأتْ ذلكَ، أكلتْ[1].

٤ـ هنيئاً لكَ يا سعدُ:

عنْ قيسٍ أخبرنِي سعدٌ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ:«اللَّهمَّ استَجِبْ لِسَعْدٍ إِذَا دَعَاكَ»[2].

٥ـ نهايةُ التعرضِ للصالحينَ:

عنِ ابنِ المسيبِ أنَّ رجلاً كانَ يقعُ في عليّ وطلحةَ والزبيرَ، فجعلَ سعدٌ ينهاهُ ويقولُ: لا تقعْ فِي إخوانِي، فأَبى، فقامَ سعدٌ، وصلَّى ركعتينِ ودعَا، فجاءَ بُختيّ[3] يشقُّ الناسَ فأخذَه بالبلاطِ، فوضعَهُ بين كِركِرتِهِ[4] والبلاطِ حتَى سحقَهُ، فأَنَا رأيتُ الناسَ يتبعونَ سعداً ويقولونَ: هنيئاً لكَ يا أبا إسحاقَ استُجيبتْ دعوتُكَ[5].

قلتُ: في هذِه كرامةٌ مشتركةٌ بينَ الداعِي والذينَ نِيلَ منهمْ[6].

عاشراً: سعيدُ بنُ زيدٍ

أحدُ العشرةِ المشهودِ لهمْ بالجنةِ، منَ السابقينَ الأولينَ البدريينَ.

اتقاءُ حديث الحاقدينَ:

لمْ يكنْ سعيد متأخراً عنْ رتبةِ أهلِ الشورَى في السابقةِ والجلالةِ، وإنما تركهُ عمرُ رضيَ الله عنهُ لئلا يبقَى لهُ فيهِ شائبة خط لأنه ابن عمه!

فهذا ما تيسر من مواقف عن سيرة العشرة، وهم أفضل قريش وأفضل السابقين

(١)أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٠/ ٣٣١)، وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور (٦/ ٥٢١) لأبى يعلى والطبراني وابن مردويه..

(٢)أخرجه الترمذي (٣٧٥١)، وابن حبان (٢٢١٥)، والحاكم (٣/ ٤٩٩) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني .

(٣)البختي: الإبل المهجنة.

(٤)الكركرة: زور البعير.

(٥)رواه الطبراني في الكبير (٣٠٧)، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٥٤): «رجاله رجال الصحيح».

(٦)سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ١١٧).

المهاجرين، وأفضل البدريين، وأفضل أصحاب الشجرة، وسادة هذه الأمة في الدنيا والآخرة، فأبعد الله من أبغضهم، ولكن الهدى نور يقذفه الله في قلب من يشاء فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذه نماذج من آل النبي ﷺ:

أولا: الحسن بن علي بن أبي طالب:

الإمام السيد ريحانة رسول الله ﷺ وسبطه، وسيد شباب أهل الجنة.

١ـ الفأل الحسن بالاسم الحسن: فأين الحسن والجمال من الحرب والدمار.

عن علي، قال: لما ولد الحسن، جاء رسول الله ﷺ فقال: «أروني ابني، ما سميتموه؟» قلت: حرب. قال: «بل هو حسن... وذكر الحديث»[(١)].

٢ ـ هنيئا لمن أحب النبي ﷺ وأحبه النبي ﷺ.

عن عدي بن ثابت، عن البراء، قال النبي ﷺ للحسن: «اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه»[(٢)].

٣ـ احرص أخي على دعاء الصالحين:

عن أم سلمة: أن النبي ﷺ جلل حسنا وحسينا وفاطمة بكساء ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»[(٣)].
«لا تنسنا من دعائك يا أخي»[(٤)].

٤ـ هل تستفيد من هذه الحكم:

عن معاوية قال: رأيت رسول الله ﷺ يمص لسانه أو شفته يعني الحسن، وإنه لن يُعذب لسان أو شفتان مصهما رسول الله ﷺ[(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٩٨)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٧٦٩): «إسناده صحيح».
(٢) أخرجه البخاري (٣٧٤٩)، ومسلم (٢٤٢٢).
(٣) أخرجه الترمذي (٣٨٧١) وقال: «حسن»، وصححه الألباني.
(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٩)، وقال شعيب الأرناؤوط: «إسناده ضعيف».
(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٩٣)، وقال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح».

عن الحرمازي: خطب الحسن بن علي بالكوفة، فقال: إن الحلم زينة، والوقار مروءة، والعجلة سفه، والسفه ضعف، ومجالسة أهل الدناءة شين، ومخالطة الفُساق ريبة.

ثانيا: الحسين الشهيد رضي الله عنه:

سبط رسول الله ﷺ وريحانته من الدنيا.

النيل من العظماء دمار في الدنيا والآخرة:

عن الأعمش قال: تغوط رجل من بني أسد على قبر الحسين فأصاب أهل ذلك البيت خبل وجنون وبرص وفقر وجذام.

آل بيت النبي ﷺ من النساء:

أولا: خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها:

سيدة نساء العالمين في زمانها، أم أولاد رسول الله ﷺ.

الوفاء لمن كان له الأثر الكبير في مسيرة الحركة:

ومن كرامتها عليه ﷺ أنه لم يتزوج امرأة قبلها، وجاءه منها عدة أولاد، ولم يتزوج عليها قط، ولا تسرى إلى أن قضت نحبها، فوجد لفقدها، فإنها كانت نعم القرين، وكانت تنفق عليه من مالها، ويتجر هو ﷺ لها.

ثانيا: فاطمة بنت رسول الله ﷺ:

الجهة المصطفوية، أم أبيها، بنت سيد الخلق رسول الله ﷺ، تزوجها الإمام علي بن أبي طالب سنة اثنتين من الهجرة بعد وقعة بدر.

١ ـ الحب الصادق:

ولما توفي رسول الله ﷺ حزنت عليه، وبكته، وقالت: يا أبتاه! أجاب ربا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه!.. يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه.

ثم قالت بعد دفنه: يا أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله ﷺ[١].

٢ـ دعوة مستجابة:

صح أن النبي ﷺ جلل فاطمة وزوجها وابنيهما بكساء، وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»[٢].

ثالثا: عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين:

روت عن النبي ﷺ علما كثيرا طيبا مباركا فيه، وهي التي زوجها الله سبحانه لنبيه ﷺ.

مداعبة الأزواج لبقاء الألفة بين الأحباب:

قالت عائشة رضي الله عنها: سابقني النبي ﷺ فسبقته ما شاء، حتى إذا حملت اللحم سابقني، فسبقني، فقال: عائشة، هذه بتلك[٣].

نماذج من عامة الصحابة رضوان الله عليهم:

أولا: عثمان بن مظعون:

من سادة المهاجرين، ومن أولياء الله المتقين، أبو السائب، أول من دُفن بالبقيع وصلى عليه النبي ﷺ.

حب الأصحاب ورفقاء الدرب:

عن عائشة أن النبي ﷺ قبل عثمان بن مظعون[٤].

ثانيا: سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهم :

من السابقين الأولين البدريين المقربين:

(١)أخرجه البخاري (٤٤٦٢) عن أنس.

(٢)أخرجه الترمذي (٣٢٠٥) عن عمر بن أبي سلمة، وقال: غريب، وصححه الألباني.

(٣)أخرجه أحمد (٦/ ٢٦٤) وقال شعيب الأرناؤوط: «إسناده جيد».

(٤)أخرجه أبو داود (٣١٦٣)، والترمذي (٩٨٩) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (١٤٥٦) وصححه الألباني.

١ـ سعادة القائد عند رؤيته إخوانه المتميزين:

عن عائشة قالت: استبطأني رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقال: ما حبسك؟ قلت: إن في المسجد لأحسن من سمعت صوتا بالقرآن، فأخذ رداءه، وخرج يسمعه، فإذا هو سالم مولى أبي حذيفة فقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك»(١).

٢ـ الثبات يتذكره القادة والكبار في وقت الشدة:

وجاء من رواية الواقدي أن محمد بن ثابت بن قيس قال: لما انكشف المسلمون يوم اليمامة، قال سالم مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله ﷺ، فحفر لنفسه حفرة، فقام فيها ومعه راية المهاجرين يومئذ، ثم قاتل حتى قتل.

ثالثا: جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه:

السيد الشهيد الكبير الشأن علم المجاهدين، ابن عم رسول الله ﷺ وهو أسن من أخيه علي بعشر سنين.

١ ـ رؤية الجنة تخفف من شدة المصاب:

يَا حَبَّذَا الجَنَّةُ وَاقْتِرَابهَا ... طَيِّبَةً وَبَارِدًا شَرَابهَا

وَالرُّوم رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا ... عَلَيَّ إِنْ لاَقَيْتُهَا ضِرَابهَا

٢ـ المسلم لا يفر من المعركة:

عن ابن عمر قال: فقدنا جعفرا يوم مؤتة، فوجدنا بين طعنة ورمية بضعا وتسعين، وجدنا ذلك فيما أقبل، وذلك لأن المسلم لا يفر من جسده(٢).

٣ـ من جاهد في الدنيا أكرمه الله في الآخرة:

عن عائشة قالت: لما جاءت وفاة جعفر، عرفنا في وجه النبي ﷺ الحزن.

عن ابن عباس، قال رسول الله ﷺ: «رأيت جعفر بن أبي طالب ملكا في الجنة،

(١)أخرجه أحمد (٦/ ١٦٥)، وقال شعيب الأرناؤوط: «حسن لغيره».

(٢)أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ١١٧)، والحاكم (٣/ ٢١٢)، وسكت عنه، وكذلك الذهبي.

مضرجة قوادمه بالدماء، يطير في الجنة»[(١)].

٤ـ من لا يحب آل بيت النبي ﷺ؟

عن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه: سمع النبي ﷺ يقول لجعفر: «أشبه خَلقك خَلقي وأشبه خُلقك خُلقي، فأنت مني ومن شجرتي»[(٢)].

قال الشعبي: كان ابن عمر إذا سلم على عبد الله بن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين.

٥ـ المكرمة صفات الرجال الكبار:

عن أبي هريرة قال: كنا نسمي جعفرا أبا المساكين. كان يذهب بنا إلى بيته، فإذا لم يجد لنا شيئا، أخرج إلينا عُكة أثرُها عسل، فنشقها ونلعقها.

رابعا: البراء بن مالك رضي الله عنه :

البطل الكرار صاحب رسول الله ﷺ، وأخو خادم النبي ﷺ أنس بن مالك.

ـ كان شعاره: «الله والجنة»:

في إحدى المعارك مع الفرس ناداه الصحابة: أتذكر يا براء قول الرسول ﷺ عنك: «رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء ابن مالك»[(٣)] فدعا الله بالنصر، فانتصر المسلمون ونال هو الشهادة.

خامسا: زيد بن حارثة رضي الله عنه:

حِب رسول الله ﷺ وأبو حبه، وهو المسمى في سورة الأحزاب.

ـ أحبوا النبي ﷺ فأحبهم أهل السماء:

عن ابن بريدة، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «دخلت الجنة، فاستقبلتني جارية

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ١٠٧) (١٤٦٧)، عن ابن عباس، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٧٣)، «رواه الطبراني بإسنادين وأحدهما حسن»، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٣٦٢): «صحيح لغيره»..

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٠٤) عن أسامة بن زيد، وضعفه الأرناؤوط.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٨٥٤) وصححه الألباني.

شابة، فقلت: لمن أنت؟ قالت: أنا لزيد بن حارثة»[١].

سادسا: أبو دجانة الأنصاري رضي الله عنهم:

كان ممن ثبت في أحد، وكان عليه عصابة حمراء.

أخلاق عالية تنفع صاحبها يوم الحشرجة:

قال زيد بن أسلم: دُخل على أبي دجانة وهو مريض، وكان وجهه يتهلل فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟ فقال: ما من عمل شيء أوثق عندي من اثنتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، والأخرى فكان قلبي للمسلمين سليما[٢].

سابعا: خبَيب بن عدي رضي الله عنه:

كان خبيب شهد أحدا، وممن أسر بالرجيع من الغادرين من بني لحيان، وكان معه زيد بن الدثنة حين باعوهم لأهل مكة ليقتلوهم بقتلى بدر من المشركين، وبعد قتلهما صلبوهما بالتنعيم.

- ربي الذي يطعمني ويسقيني:

وعن ماوية مولاة حُجير، وكان خبيب حُبس في بيتها، فكانت تُحدث بعد ما أسلمت، قالت: والله إنه لمحبوس إذا اطلعت من صير الباب إليه، وفي يده قِطف عنب مثل رأس الرجل يأكل منه، وما أعلم في الأرض حبة عنب[٣].

ثامنا: عمرو بن الجموح رضي الله عنه:

والد معاذ ومعوذ سيد بني سلمة، أسلم على يد مصعب بن عمير.

- من لا يريد هذه الخاتمة؟

عن عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي صعصعة أنه بلغه أن عمرو بن الجموح وابن حرام كان السيل قد خرب قبرهما، فحفر عنهما ليغيرا من مكانهما، فوجدا لم يتغيرا، كأنما ماتا

---

(١)أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٩/ ٣٧١) عن بريدة، وصححه الألباني في الصحيحة (١٨٥٩).

(٢)الجامع لابن وهب (١/ ٣٢٥)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٧٠).

(٣)أخرجه البخاري (٣٠٤٥)، وأحمد (٢/ ٢٩٤).

بالأمس. وكان أحدهما قد جرح، فوضع يده على جرحه فدفن كذلك، فأميطت يده عن جرحه، ثم أرسلت، فرجعت كما كانت. وكان بين يوم أحد ويوم حُفِر عنهما ست وأربعون سنة[١].

تاسعا: سعد بن الربيع رضي الله عنه :

آخى النبي ﷺ بينه وبين عبدالرحمن بن عوف، وكان أحد النقباء ليلة العقبة.

ـ الحب الصادق:

قال رجل من الأنصار لسعد في يوم أحد: يا سعد إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر في الأحياء أنت أم في الأموات؟ قال: فإني في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ السلام، وقل: إن سعدا يقول: جزاك الله عني خيراً ما جزى نبيا عن أمته، وأبلغ قومك مني السلام، وقل لهم: إن سعدا يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلِص إلى نبيكم ومنكم عين تطرف[٢].

عاشرا: بلال بن رباح رضي الله عنهم :

مؤذن النبي ﷺ، شهد له النبي ﷺ بالجنة «إني لأسمع خفق نعليك في الجنة»[٣].

ـ الصلاة طريق إلى الجنة:

عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ لبلال عند صلاة الصبح: «حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت الليلة خشفة نعليك بين يدي في الجنة»، قال: ما عملت عملا أرجى من أني لم أتطهر طهرا تاما في ساعة من ليل ولا نهار إلا صليت لربي ما كُتب لي أن أصلي[٤].

حادي عشر: خالد بن الوليد رضي الله عنه:

سيف الله تعالى ابن أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث.

---

(١)أخرجه مالك (ص٢٩١)، وسيرة ابن كثير (٣/ ٨٦) ورجاله ثقات لكنه مرسل.

(٢)سيرة ابن هشام (٢/ ٩٤).

(٣)أخرجه البخاري (١١٤٩)، ومسلم (٢٤٢٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤)سبق تخريجه فى الفقرة السابقة.

ـ السلام يعشق الجهاد:

عن ابن أبي خالد، مولى لآل خالد بن الوليد، أن خالدا قال: ما من ليلة يُهدى إلي فيها عروس أنا لها مُحب أو أبشر فيها بغلام، أحب إلي من ليلة شديدة البرد، كثيرة الجليد في سرية أصبح فيها العدو[1].

ثاني عشر: أبي بن كعب رضي الله عنه:

سيد القراء، المدني البدري، شهد العقبة، وجمع القرآن في حياة النبي ﷺ.

ـ رفعة اللهّ لأهل العلم:

قال أنس: قال النبي ﷺ لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن»، وفي لفظ: «أمرني أن أُقرئك القرآن». قال: الله سماني لك؟ قال: «نعم» قال: وذُكرت عند رب العالمين؟ قال: «نعم»، فذرفت عيناه[2]، ولما سأل النبي ﷺ أُبيا عن أي آية في القرآن أعظم، فقال أُبي ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾[3] ضرب النبي ﷺ في صدره وقال: «ليهنك العلم أبا المنذر»[4].

ثالث عشر: عمار بن ياسر رضي الله عنه:

الإمام الكبير أبو اليقظان، مولى بني مخزوم، ومن الأعيان البدريين، وأمه سمية من كبار الصحابيات وأوائل المسلمات.

١ـ إكرام أهل السبق وابن أهل السبق:

لم يُسلم أبو أحد من السابقين المهاجرين سوى عمار وأبي بكر، وعن علي رضي الله عنه قال: استأذن عمار على النبي ﷺ، فقال: «من هذا؟» قال: عمار، قال: «مرحبا بالطيب المُطيب»[5].

---

(١)أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٣١٧)، الجهاد لابن المبارك (ص٩١).

(٢)رواه البخاري (٤٩٦١) عن أنس.

(٣)البقرة: ٢٥٥.

(٤)رواه مسلم بلفظ: (والله ليهنك العلم...) رقم (٨١٠) عن أبي بن كعب.

(٥)أخرجه الترمذي (٣٧٩٨)، وابن ماجه (١٤٦، ١٤٧)، وأحمد (١/ ٩٩) عن علي بن أبي طالب، قال

٢ـ الرأفة بالآخرين:

عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما خير عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما»[(١)].

رابع عشر: عبدالله بن مسعود رضي الله عنه:

الإمام الحبر، فقيه الأمة، البدري، حليف بني زهرة، من السابقين الأولين، ومن النجباء العالمين.

ـ الشعور بتحمل المسؤولية:

عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد»[(٢)].

عن عبد الله قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ علي القرآن» قلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟

قال: إني أشتهي أن أسمعه من غيري. فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾[(٣)]. فغمزني برجله، فإذا عيناه تذرفان[(٤)].

خامس عشر: أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه:

أحد النقباء الاثني عشر ليلة العقبة، من بني أخوال النبي ﷺ، اسمه زيد بن سهل ابن الأسود، وقال النبي ﷺ في حقه: «صوت أبي طلحة في الجيش خير من فئة»[(٥)].

ـ الإنفاق من الطيب المحبوب:

الترمذي: «حسن صحيح»، وصححه الألباني.

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٩٩) عن عائشة، قال الترمذي: «حسن غريب».

(٢) المستدرك على الصحيحين (٣/ ٣٥٩) عن ابن مسعود، وقال الذهبي «مرسل».. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٠٩).

(٣) النساء: ٤١.

(٤) أخرجه البخاري (٤٥٨٢، ٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠) عن عبد الله بن مسعود.

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ١١١، ١١٢، ٢٦١) عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٨٢)..

قال أنس: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالاً من نخل، فقال: يا رسول الله، إن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله: «بخ! ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين»(١).

سادس عشر: شداد بن أوس رضي الله عنه:

وهو ابن أخي حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ، وكان يمتاز بالبيان إذا نطق، وبكظم الغيظ إذا غضب.

ـ الربانيون يفهمون حقيقة الدنيا والآخرة:

قال سلام بن مسكين: حدثنا قتادة: أن شداد بن أوس خطب، فقال: أيها الناس، إن الدنيا أجل حاضر، يأكل منها البر والفاجر، وإن الآخرة أجل مستأخر، يحكم فيها مالك قادر، ألا وإن الخير كله بحذافيره في الجنة، وإن الشر كله بحذافيره في النار.

سابع عشر: أسامة بن زيد رضي الله عنه :

حِبُّ رسول الله ﷺ، وكان شديد السواد خفيف الروح مقداما شجاعا، رباه النبي ﷺ، وهو ابن حاضنة النبي ﷺ أم أيمن، وكان أبوه أبيض، وقد فرح له رسول الله ﷺ بقول مُجزز المدلجي: «إن هذه الأقدام بعضها من بعض»(٢).

ـ بالحب ساد المسلمون العالم:

قالت عائشة رضي الله عنها: أراد النبي ﷺ أن يمسح مخاط أسامة، فقلت: دعني حتى أكون أنا التي أفعل، فقال: «يا عائشة، أحبيه، فإني أحبه»(٣).

قلت: كان سنه في سنها.

ثامن عشر: العباس رضي الله عنه:

---

(١)أخرجه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨) عن أنس.

(٢)أخرجه البخاري (٦٧٧٠)، ومسلم (١٤٥٩) عن غائشة.

(٣)أخرجه الترمذي (٣٨١٨) عن عائشة، قال الترمذي: «حسن غريب»، وحسنه الألباني..

عم رسول الله ﷺ، أسلم قبل الفتح وأجار أبا سفيان.

١ـ أدب مع الكبار:

عن أبي رزين: قال: قيل للعباس: أنت أكبر أو النبي ﷺ؟ قال: هو أكبر وأنا ولدت قبله.

٢ـ حب آل النبي ﷺ:

عن المطلب بن ربيعة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بال رجال يؤذونني في العباس، وإن عم الرجل صِنْوُ أبيه، من آذى العباس فقد آذاني»[١].

وثبت أن العباس كان يوم حنين، وقت الهزيمة، آخذا بزمام بغلة النبي ﷺ، وثبت معه حتى نزل النصر.

عن ابن عباس، أن رجلا من الأنصار وقع في أب للعباس كان في الجاهلية، فلطمه العباس، فجاء قومه، فقالوا: والله لنلطمنه كما لطمه، فلبسوا السلاح. فبلغ رسول الله ﷺ، فصعد المنبر، فقال: «أيها الناس، أي أهل الأرض أكرم من الله؟» قالوا: أنت. قال: «فإن العباس مني وأنا منه، لا تَسبُّوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا»[٢].

٣ـ الاستفادة من الإمكانات والقدرات عند الأحباب:

قلت: كان تام الشكل، جهوري الصوت جدا، وهو الذي أمره النبي ﷺ أن يهتف يوم حنين: يا أصحاب الشجرة.

٤ـ الرجوع للحق والوقوف عند قول النبي ﷺ:

ورد أن عمر عَمَد إلى ميزاب للعباس على ممر الناس، فقلعه. فقال له: أشهد أن رسول الله ﷺ هو الذي وضعه في مكانه. فأقسم عُمرُ: لتصعدن على ظهري ولتضعنه موضعه[٣].

---

(١)رواه أحمد في فضائل الصحابة ١٨٣١ ـ ٢/ ٩٤٧ والحاكم في المستدرك (٣/ ٣٧٥) رقم (٥٤٣٢)، والبزار في مسنده (٢١٧٦).

(٢)أخرجه النسائي (٤٧٧٥)، عن ابن عباس، وضعفه الألباني.

(٣)أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٧٤) رقم (٥٤٢٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٦/ ٣٦٦،

تاسع عشر: أبو هريرة رضي الله عنه:

عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الإمام الفقيه، سيد الحفاظ الأثبات، قال الإمام البخاري: روي عنه ثمانمائة أو أكثر.

١ـ لا يخلو أي مجتمع من الخير:

عن أبي هريرة: قال لي النبي ﷺ: «ممن أنت»؟

قلت: من دَوس. قال: «ما كنت أرى أن في دوس أحدا فيه خير»(١).

٢ـ عند ظهور النعم يتذكر الإنسان ما كان وكيف هو الآن:

عن محمد، قال: كنا عند أبي هريرة، فتمخط، فمسح بردائه، وقال: الحمد لله الذي تمخط أبو هريرة في الكتان! لقد رأيتني، وإن لأخر فيما بين منزل عائشة والمنبر مغشيا علي من الجوع، فيمر الرجل، فيجلس على صدري، فأرفع رأسي فأقول: ليس الذي ترى، إنما هو الجوع.

قلت: كان يظنه من يراه مصروعا، فيجلس فوقه ليرقيه، أو نحو ذلك.

عن أبي هريرة: أنه صلى بالناس يوما، فلما سلم، رفع صوته، فقال: الحمد لله الذي جعل الدين قواما، وجعل أبا هريرة إماما، بعد أن كان أجيرا لابنة غزوان على شبع بطنه، وحمولة رِجله.

٣ـ ليس كل ما يُعرف يُقال بل يسكت الإنسان عن أشياء مخافة الفتنة، ما لم يكن يتعلق بحل أو حرام:

عن مكحول، قال: كان أبو هريرة يقول: رُب كيس عن أبي هريرة لم يفتحه يعني من العلم.

قلت: هذا دال على جواز كتمان بعض الأحاديث التي تُحرك فتنة في الأصول، أو

..(٣٧٠

(١)رواه الترمذي (٣٨٣٨) عن أبي هريرة وقال:هذا حديث صحيح غريب، وقال الألباني: «صحيح الإسناد».

الفروع، أو المدح والذم.

أما حديث يتعلق بحل أو حرام، فلا يحل كتمانه بوجه، فإنه من البينات والهدى. وفي (صحيح البخاري) قول الإمام علي رضي الله عنه: حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما يُنكرون، أتحبون أن يُكذب الله ورسوله؟ [١].

٤ـ الدعاء عند حضور الصالحين من أجل التأمين منهم:

ـ في سنن النسائي: أن أبا هريرة دعا لنفسه: اللهم إني أسألك علما لا يُنسى، فقال النبي ﷺ: «آمين»[٢].

مكمل العشرين: عمرو بن العاص رضي الله عنه :

داهية قريش، ومن يضرب به المثل في الفطنة.

عن الشعبي قال: دهاة العرب أربعة: معاوية، وعمرو، والمغيرة، وزياد، فأما معاوية فللأناة والحِلم، وأما عمرو فللمعضلات، والمغيرة للمبادهة، وأما زياد فللصغير والكبير.

١ـ القناعة:

روى موسى بن علي، عن أبيه، سمع عمرو يقول: لا أمل ثوبي ما وسعني، ولا أمِل زوجتي ما أحسنت عشرتي، ولا أمِل دابتي ما حملتني، إن الملال من سيئ الأخلاق.

٢ـ عدم الاستعجال في أخذ الأمور:

قال ابن عُيَينة: قال عمرو بن العاص: ليس العاقل من يعرف الخير من الشر، ولكن هو الذي يعرف خير الشرين.

حادي وعشرون: جُبير بن مُطعم بن عدي رضي الله عنه :

(١) رواه البخاري (١٢٧).

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٥٨٧٠)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٥٨٢) برقم (٦١٥٨) عن زيد ابن ثابت، وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: حماد بن شعيب ضعيف، وضعفه الألباني في الضعيفة (٣٨٤٨)، وضعيف الجامع (٣٢٤٢).

شيخ قريش في زمانه وكان موصوفا بالحلم ويؤخذ عنه النسب.

- عدم نسيان المعروف ولو كان من كافر:

كان أبو جبير مطعم بن عدي هو الذي قام بنقض صحيفة القطيعة. وكان يحنو على أهل شعب، ويصلهم في السر، ولذلك يقول النبي ﷺ يوم بدر: «لو كان المطعم بن عدي حيا، وكلمني في هؤلاء النتنى، لتركتهم له»(١) وهو الذي أجار النبي ﷺ حين رجع من الطائف حتى طاف بعمرة.

خاتمة:

لقد فضَّل الله بعض أصحاب النبي على بعض فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ﴾(٢).

وكلهم وعدهم الله الحسنى، لأنه تعالى ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ﴾(٣).

وهم جميعهم أفضل أجيال هذه الأمة إلى يوم القيامة، فهم الجيل الذي عاصر نزول القرآن، وتربى على يد الرسول ﷺ، وحمل هذا الدين إلى العالمين، وكانت ليلة الجهاد الشديدة البرد أحب إلى أحدهم من أن تزف إليه عروس محبوبة، وكان الإنفاق فيهم سجية لا تكلفًا، والخشوع والخضوع لله طبعًا لا تطبعًا، وطاعة الله ورسوله أحب إليهم من كل شيء.

إنهم جيل فريد في تعبده، فريد في زهده، فريد في أثره، ومن حق هذا الجيل أن تقتدي به الأجيال، وأن يسير من خلفه الرجال، ليحيوا أنفسهم من غاشيتها، ويحيوا أمتهم من مماتها، غير معتمدين إلا على الله، وغير معتصمين إلا بحماه، وغير راجين إلا رضاه.

وجيلنا - نحن - والأجيال التالية لنا في حاجة ماسة إلى هذا الاقتداء. ولما كان كل

---

(١) رواه البخاري (٣١٣٩) عن جبير بن مطعم.

(٢) الحديد: ١٠.

(٣) المائدة: ١١٩.

أحد غير قادر على الوصول بنفسه إلى استخلاص المواقف، واستجلاء الحادثات واستنتاج العبر والعظات من حياة هؤلاء الأعلام، فقد حاولنا أن نقدم له بعض هذه الأمور في هذه الوريقات، بعد أن طوّفنا بحياة عديد من الكواكب المضيئة حول رسول الله ﷺ من الرجال والنساء السابقين منهم إلى الإسلام أو اللاحقين.

وعلى أمل أن نكون لهم من التابعين بإحسان لننال نحن رضوان الله كما نالوه، ولعل منا من يكون ـ بعمله ـ سابقا إلى الخيرات، محافظا على الطاعات. لينال شرف الدخول في قول الله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [١].

وإني لآمل أن ينفعني الله وإخواني ـ القراء ـ بهذه المواقف التي تثمر في قلوبنا حب هؤلاء الأعلام فنحشر معهم ونكون في زمرتهم «والمرء مع من أحب»[٢].

(١) الحشر: ١٠.
(٢) رواه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠).

رابعاً:
أمتنا بين الاستنساخ والاستسلاخ

قال لي صاحبي: ما الاستنساخ ؟!

قلت: هو يا رفيقي عند الغرب تكنولوجيا وحضارة، وعندنا نحن تأخر وخسارة.

صاحبي : عجباً لك !! والويل لنا كيف ذلك؟!

قلت: قد طوروا تقنياتهم فنسخوا الخراف ليأكلوها... والقرود ليلاعبوها... وعما قريب سينسخون صداما ليذيقونا آلاماً وآثاماً... وسينسخون من حكامنا حكاماً... ومن عظمائنا أقزاماً... ومن بناتنا دمى للاعبين... ومن شيباننا مسخاً متصابين.... ومن قيمنا ضحكة للضاحكين... ومن ديننا مظهراً بلا يقين... ومن الجهاد وقفاً على الماضين...

قال صاحبي: وماذا عن الاستنساخ عندنا؟

قلت: إن كان الغرب برع في الاستنساخ فقد برعنا نحن فيه... بل زدنا عليه... وضممنا مثله إليه.

قال صاحبي : كيف ذلك يابن ياسين... وبيننا وبينهم مئات السنين؟

قلت: نحن نعرف من قديم الاستنساخ... وعرفنا حديثاً الاستسلاخ....

أما الاستنساخ، فمنذ أن تخلفنا، ومع اللهو تحالفنا، وجافينا ديننا ولأمره خالفنا.. ونحن نستنسخ العجائب العجيبة، والغرائب الغريبة في كل الفنون.

قال صاحبي: وما تلك العجائب وما هذه الغرائب التي استنسخناها... وبزعمك ألفناها وطورناها..؟

قلت : هي كثيرة ووفيرة .... تبعث العجب والحيرة... فأي الفنون تريد، قديمها أم حديثها والجديد؟!

قال صاحبي: ابدأ لي في القديم.. فلعله استنساخ عظيم... يرفع خسيستنا... ويعجل نهضتنا....

قلت: قد استنسخنا المنكرات... في الشبهات والشهوات... فأحيينا الرذائل بيننا... وطورنا سبيلها ومهدنا طريقها..

أولاً: وضعنا النار بجوار البنزين، باختلاط البنات مع البنين، فاستنسخنا تبرج الجاهلية الأولى... وهذا نوع جيد من الاستنساخ، ولازال الاختلاط قائماً في الجامعات بين البنين والبنات، حتى غدت جامعاتنا كازينوهات مفتوحة ومعارض للأزياء... ولله در القائل للمتبرجة:

لِحَدِّ الرُّكْبَتَيْنِ تُشَمِّرِينَا بِرَبِّك أَيَّ بَحْرٍ تَعْبُرِينَا

وقد زدنا على استنساخ تبرج الجاهلية الأولى أن قنناه... وعممناه في دور العلم.. ووضعنا عليه صبغة أكاديمية، ودافعنا عنه بحجة أنه يبعد الكبت ويفتح طريقاً للزواج... وبالفعل قد بعد الكبت وأحل محله الحيرة.. وقرّب طرق الرذيلة.. وسد أبواب الزواج وفتح أبواب الهرج والمرج والانزلاج...

قال صاحبي: ويحك يا جاسم، لقد أحسنت في الطلاسم ما هذا وذاك.. أيستنسخون حياتنا كلها دقيقها وجليلها... أولها وآخرها...؟

قلت: نعم... لا تعجب... ولعنادك لا تركب، سأخبرك بالشاهد والدليل وبالبيان والتمثيل.

قال صاحبي: وماذا عن الاستنساخ الإسرائيلي والاستنساخ العربي؟

قلت: نعم استنساخ اليهود هو الاستنساخ الناجع النافع، فهو استنساخ مطور متراكم يسلم بعضه لبعض ويعضد بعضه بعضاً..

قال صاحبي: وكيف ذلك؟

قلت: منذ سنة ١٨٩٧م وانعقاد المؤتمر اليهودي في بازل بسويسرا بقيادة الداهية اليهودي تيودور هرتزل والاعتزام على إنشاء وطن قومي لليهود... من يومها واليهود

يستنسخون قادة أمثاله، بل أشد منه عتياً....ثم كان مؤتمر لندن سنة ١٩٠٧م الذي أعده نخبة يهودية في السياسة والاقتصاد والفكر تؤيدهم بريطانيا العظمى لضمان تخلف وتفكك العالم الإسلامي بعد إعداد العدة لإسقاط الخلافة العثمانية، ثم كان سنة ١٩١٧م حيث وعد بلفور المشئوم بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين (بتخطيط قادة اليهود)، ثم تخلت بريطانيا عن فلسطين بعد تمكينها اليهود فيها سنة ١٩٤٧م، ثم جاء قرار الأمم المتحدة رقم ١٨١ لسنة ١٩٤٧م والذي بموجبه حصل اليهود على نسبة ٥٤٪ من الممتلكات الفلسطينية فيما كانوا لا يملكون إلا ٦٪ من الأراضي الفلسطينية، ثم الحرب اليهودية العربية سنة ١٩٦٧م، حيث ابتلع اليهود كل فلسطين إضافة إلى سيناء المصرية والجولان السورية، وهكذا يستنسخ اليهود البقرة ليحلبوها، والشاة ليصدروها، والقرود ليلاعبوها ويحافظوا على أمن إسرائيل منذ تيودور هرتزل مروراً بمن بعده من بيجن، وجولدا مائير، وشامير، وعزرا وايزمان، وبيريز، ونتنياهوا، وباراك، حتى ابن إسرائيل الوفي شارون الملعون أوفى المستنسخين اليهود...

قال صاحبي: وماذا عن الاستنساخ الشاروني؟

قلت: أعني به أن شارون العجوز الأشمط هو نفسه سفاح ١٩٧٣م وهو جزار ١٩٨٩م حيث أعلن في شهر مايو من ذلك العام (أن الضفة وغزة ليست بلاداً غريبة علينا، بل هي بلادنا، ولم تكن هناك دولة فلسطينية فيهما أبداً، ولسنا محتلين، بل نحن في مناطق إسرائيلية).

وهو نفسه سفاح سنة ٢٠٠١م حيث تولى الوزارة في فبراير الماضي إذ يقول (إن أراضي وادي عربة غرب نهر الأردن أرض إسرائيلية وستبقى أرضاً إسرائيلية، ولا مفاوضات بشأنها) .

قال صاحبي: وماذا عن الاستنساخ العربي؟

قلت: هو أنواع وأشكال ما بين استسلاخ واستنساخ، فأي نوع تريد؟

قال: حدثني عن الاستنساخ أولاً ..

قلت: إن كان اليهود نسخوا أبطالاً وقادة كباراً، فقد عرفنا أنواعاً جديدة وفريدة من الاستنساخ منها :

١ـ استنساخ المفاوضات: كلما فاوضنا عدنا، وكلما عدنا فاوضنا ورجعنا كما بدأنا، نستنسخ الأمس في اليوم، والفائت في اللاحق .

٢ــ استنساخ الاتفاقيات من كامب ديفيد.. لأوسلو... لشرم الشيخ... لواي ديفر...إلخ استنساخ مكرر.

٣ـ استنساخ الطاولات .

٤ـ استنساخ القبلات والمصافحات .

وخاصة لوارين كريستوفر الذي اعتزل وزارة الخارجية بسبب القبل العرفاتية التي أشحبت وجهه وجعدت تقاسيمه، وما تلاها من قبل (مادلينية أولبرايتية) ولا أكذب فأقول إنها استنساخ لنفس القبل اللوارينية إنما هي قُبَلٌ خاصة (مطورة عن القبل الأولى) وكيف لا وهي لمز أولبرايت السمينة البطينة والتي بقي فيها (بقية من أنوثة قد تعجب بعض رؤسائنا العفوفين) ثم القبل الكولونية الباولية وليست البولية (أستغفر الله...)، وهكذا قُبَلٌ تتلوها قبل ومصافحة تتلوها مصافحة.. يومنا كأمسنا وهو كغدنا.. مع اعتذارنا للشاعر العربي الذي يكره الاستنساخ ويحب الجديد:

أَشَابَ الصَّغِيرُ وَأَفْنَى الكَبِير ... مَرُّ اللَّيَالِي وَكَرُّ الْعشِيْ

إِذَا لَيْلَةٌ هَرَّمَتْ أُخْتَهَا ... أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ فَتِيْ

نَرُوُح وَنَغْدُو لِحَاجَاتِنَا ... وَحَاجَةُ مَنْ مَاتَ لاَ تَنْقَضِي

قال صاحبي: وماذا عن الاستسلاخ في القضية الفلسطينية؟

قلت: أعني به أن اليهود قد استسلخوا عملاء لهم فسلخوهم عن عروبتهم ووطنيتهم بل وإسلامهم، فصاروا مسخاً يهودياً في صورة عربي فلسطيني، يعينونهم على تصفيد وتصفية الحركات الإسلامية في فلسطين.. بداية بحماس واستكمالاً بالوطنيين الغيورين من الجناح العسكري من حركة فتح... وإلا فأخبرني بربك ما معنى

أن يغتال أربعة من وطنيي قادة جناح فتح العسكري في يوم واحد (الاثنين١٤/ ٥/ ٢٠٠٢م) على حيطتهم وحذرهم وخفاء أماكنهم عن إسرائيل... ستكشف الأيام عن هؤلاء المستمسخين... وأنهم ليسوا جواسيس يتقاضون حفنة دولارات، وإنما هم ضباط ورتب....

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً وَيأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

أضف إلى ذلك أن صحيفة (هآرتس) العبرية الصادرة صباح يوم الأحد ٣١/ ٥/ ٢٠٠٢م نشرت خبراً عن إعلان الوزير إفرايم سنيه من حزب العمل عن خطوات عملية لتهدئة المواجهة بين اليهود والفلسطينيين ولوأد الانتفاضة... وأنّى له أن يطفئ شعلة الغضب الشعبي والإسلامي الفلسطيني المتمثل في الانتفاضة إلا بيد المستسلخين من الفلسطينيين أنفسهم واسمع مأساتنا في تلك الأبيات المعبرات:

نَسَخْنَا مِنْ جَهَالَتِنَا أُلُوفاً وَلَمْ نَنْسَخْ نِعَاجاً أَوْ خَرُوفَا

نَسَخْنَا الخَوْفَ فِي قَلْبِ الشُّعُوبِ نَسَخْنَا حَاكِماً بَـرّاً عَفِيفَا

يُذِيقُ شُعُوبَهُ مرَّ الْعَذَابِ وَيُجْرِي بِحُكْمِهِ دَماً نَزِيفَا

وَيَشْرَبُ كَأَسَهُ مِنْ قُوتِ شَعْبٍ يُعَانِي الْفَقْرَ لَمْ يجِدِ الرَّغِيفَا

وَيَضرِبُ فِي وُجُوهِ النَّاسِ صَفْعاً بِقَبْقَابٍ وَيَتْبَعُهُ خُفُوفَا

وَقَدْ نَسَخَ الْيَهُودُ لَنَا يَهُوداً بِغَزَّةَ أَوْ بِيَافَا أَوْ بَحِيفَا

يَهُوداً فِي الْخَفَاءِ وفِي الْجِهَارِ يَرَوْكَ مَقَالَهُمْ عَذْباً لطِيفَا

نَسَخْنَا هَمَّ مَاضِينَا بِهَمٍّ نَسَخْنَا أَمْسَنَا شَبَحاً مُخِيفَا

نَسَخْنَا جِهَادَنَا خُطَباً حِسَاناً نَسَخْنَا عِزَّنَا ذُلاً ضَعِيفَا

قال صاحبي: وكيف الانسلاخ من هذا الاستنساخ والامتساخ؟

قلت: سبيل ذلك هو الجهاد الجهاد...فمن ترك السيف ذل.. ومن أعرض عن الله ضل، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [1]

---

(١)طه: ١٢٤.

وقد تحدثنا كثيراً عن ذلك ولا زلنا نقول الإسلام هو الحل، ولن نمل التكرار مع التنبيه على الآتي:

١ ـ ينبغي اعتبار القضية الفلسطينية قضية أمة لا قضية سلطة ولا قضية دولة.

٢ ـ ينبغي النظر في السياسة العربية والإسلامية جمعاء تجاه القضية وتبني أطروحات جديدة تقوم على أرضية واقعية لا أوهام زائفة منكرة.

٣ ـ كما تقوم قضية اليهود على أساس ديني ينبغي أن تقوم حلولنا على أساس قرآني وفكر إسلامي، وأن يفتح المجال للشعوب والأحزاب والحركات والمنظمات العربية والإسلامية في التعبير عن غضبها وأطروحاتها للحل بعد تنسيق محكم بينها .

وهذا كلام قصدنا به الإجمال وقد نعود لتفصيله لاحقاً، ورب إشارة أبلغ من عبارة.

قال صاحبي: وماذا عن الاستنساخ في الكويت ؟

قلت: نعم لقد بلغنا فيه مكانة لا بأس بها، وعندنا منه أنواع كثيرة أشهرها الاستنساخ السياسي، فهناك استنساخ للقرارات..... كلما قررنا عدنا وقررنا ثم قررنا ثم قررنا، وهكذا أصبحنا دولة قرارات لا جديد فيها نستنسخ ماضيها لحاضرها ويومها لغدها..... هذا غير الاستنساخ الوزاري؟

قال صاحبي: وماذا عن الاستنساخ الوزاري؟

قلت: نعم كلما مضت وزارة استنسخنا وزارة أخرى أو دورنا، فهو نوع جديد من الاستنساخ لم نسبق به وهو (الاستنساخ المدور) وقد يستنسخ هو الآخر فيصير (الاستنساخ المطور)، إنه استنساخ الانهزامية وعدم الثقة...

قال صاحبي: وماذا عن استنساخ الانهزامية؟

قلت: في كويتنا قسط كبير من هذا النوع وهذه إشارة له .

ولله در حكومتنا كانت في قضية المنظور الإسكاني يداً واحدة بخيلها ورجلها، منافحة عن رؤيتها، لأنها منظور دولة لا رؤية وزير فحسب... إنها مشكلة تجاوزت نصف القرن ولا تزال قائمة...

ثم بعد ذلك يأتي وزير آخر فما يجاوز شهرين من استوزاره حتى ينسخ.وليته استنسخ بجرة قلمه كل ما نافحت عنه الحكومة... وكل ما تبنته... إنها بحق الانهزامية، وصدق الدكتور أحمد الربعي لما قال ما معناه (هذه دولة لا يغزى بها) ونزيد مقالته قولاً بأن كل التكتلات ليست أهلاً لأن يغزى بها، بل ولا الأمة العربية ولا مجلس التعاون ولا غير ذلك؛ بسبب الانهزامية وعدم الثقة والمصداقية في التصريحات والمواقف والدفاعات والمقالات ...

ونهنئ الدكتور عادل الصبيح في وزارة النفط ونقول له: ياحبذا يا دكتور لو أتيت لنا بمنظور جديد في حقول الشمال، فلعله يدخل هذه المرة في خلاف مع الكتلة الشعبية والحكومة... فتنحل الحكومة... وتستنسخ مكانها حكومة أخرى يأتي فيها وزير آخر فيمسح الرؤية كاملة ...

فاعجب وما أكثر العجب... ورحم الله أبا العتاهية لما قال :

مَنْ لاَ يَزَلْ مُتَعَجباً مِنْ كُلِّ مَا   تَأْتِي بِهِ الأَيَامُ طَالَ تَعَجُّبُهْ

قال صاحبي: وماذا عن الاستنساخ الاقتصادي؟

قلت: هو أنواع يجمعها البعد الاقتصادي، فهناك استنساخ نهبي (نسبة إلى النهب) حيث تطل علينا الأخبار من حين لآخر بعمليات نصب وتبديد وإهدار للمال العام.... وكلها نسخ مكررة...

وهناك استنساخ أزماتي (نسبة إلى الأزمات الاقتصادية) وفيه نعيش في أزمات تلو أزمات عشنا قديماً فيها، ولازلنا نحياها ولم نتجاوزها وإنما هي نسخة عن ماضيها وغداً وبعد غدٍ سننسخ منها أمثالها ونطورها ونعود لها ولم نتجاوزها.

قال صاحبي: وماذا عن الاستنساخ الاجتماعي؟

قلت: هو نوع جديد أيضاً من الاستنساخ يقوم على استنساخ العادات السيئة والقيم الرديئة وإحيائها، في المجتمعات العربية والإسلامية، ثم تطور هذا الاستنساخ إلى استنسال لتقليعات غربية مطورة معربة (على الطريقة الشرقية) لتلائم الذوق العربي والإسلامي أهمها تقليعة البانجو .... والمخدرات الطبيعية والمخلقة...

خامساً: قضايا الأمة الإسلامية بين سعة الأممية وضيق الإقليمية

١ ـ عالمية الإسلام (شريعة وعقيدة ونظاماً مؤسسياً)

غني عن الذكر توكيد تلك المسلَّمة المتواترة عن عالمية الإسلام بعقيدته القائمة على التوحيد وشريعته القائمة على العدل ونظامه المؤسسي الاجتماعي الذي يهدف إلى رفع الحرج عن الناس والتيسير عليهم والتخفيف عنهم وجلب ما هو صالح لهم ودرء ما هو فاسد عنهم، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [(١)]، وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [(٢)].

وقد بدأت عالمية الإسلام منذ الوهلة الأولى حيث نزل القرآن على رسولنا الكريم محمد ﷺ قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ [(٣)] فهذا أسلوب إنشائي يطالب النبي ﷺ بالقراءة والتعلم والتدبر وهو مطلب إنساني عالمي يتعلق بكل إنسان أن يقرأ كتاب الكون المنظور، أو في كتاب الله المسطور، ثم تتوالى الآيات لتذكر قضية بيولوجية علمية وطوراً بشرياً هو طور بدء النشأة من علق، وهذا يخص كل بني الإنسان من بني العرب وغيرهم، ثم تتوالى الآيات، فتنزل سورة المزمل، ثم المدثر وتخاطب النبي بأن ينهض للدعوة... الدعوة العالمية الكوكبية لا الدعوة المحلية الإقليمية...

وهكذا تتواصل التوجيهات والتقنيات للانطلاقة العالمية فيقول ربنا سبحانه

---

(١) النساء: ٢٨.

(٢) البقرة: ١٨٥.

(٣) العلق: ١، ٢.

لنبيه: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[١]، ويقول سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[٢].

وتتابع مخاطبات القرآن لبني الإنسان جميعاً بل والجان في آيات كثيرة: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ ... ﴾[٣] ويقول سبحانه في مقام التحدي للعالمين ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[٤]، وسيأتي ذكر آيات أخرى في سياق مظاهر عالمية الإسلام من خلال الخطاب القرآني.

٢ ـ مشكلة حقيقية:

بعد تلك الإشارة السابقة إلى عالمية الإسلام هناك مشكلة حقيقية تواجهنا الآن على مستوى العالم الإسلامي وهي تكمن في (التحول من سعة العالمية إلى ضيق الإقليمية بل والحزبية) على مستوى الأفراد بل وبعض القادة والدعاة والمنظرين والمنظمين، فترى للأسف معظم الدعاة والمؤسسات الإسلامية المفترض عالميتها ترسف في مضايق الإقليمية والهموم المحلية والداخلية ناسية أو متناسية أو غافلة عن رحابة العالمية وما لها من أولوية وتقدم وأثر في تفعيل مشروع الأمة الإسلامي النهضوي.

٣ ـ نموذج واقعي حيّ على المشكلة:

أرى من خلال ممارستي الدعوية مظاهر تدل على ذلك التقلص العالمي للدعوة والتحول إلى الإقليمية الضيقة..

وجدير بالذكر أن محاولتي هنا لضرب أمثلة حية على المشكلة ليس من باب النقد أو التعليق أو انتقاص وغمط جهود الآخرين، وإنما هي محاولة للنصح والتنبيه وصدق رسول الله ﷺ في قوله: «الدين النصيحة»... قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولرسوله

(١) الأعراف: ١٥٨.

(٢) الأنبياء: ١٠٧.

(٣) الرحمن: ٣٣.

(٤) الإسراء: ٨٨.

ولأئمة المسلمين وعامتهم»[١]. وصدق الله إذ يوصي بالتواصي بالحق ويصف به المؤمنين امتداحاً لهم فيقول سبحانه مستثنياً المؤمنين المتواصين به من الخسران المبين: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾[٢].

وهكذا فليكن المؤمن مرآة أخيه في كل حين وفي كل حال.

أولاً: على مستوى الدول الإسلامية:

في العالم الإسلامي على تعدد دوله، وكثرة سكانه، لا تكاد تكون هناك قنوات فاعلة متواصلة تتناول في الصلب والأساس قضايا الأمة الرئيسية حتى في منظمة العالم الإسلامي... إذ كم من اجتماع عقد فيها...؟! وكم من قرار أخذ...؟! ولا زالت الممارسات شكلية والنتائج ورقية لم تتجاوز الأدراج ومكاتب المستشارين... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثانياً: على مستوى الحركات الإسلامية:

أ ـ حركة الإخوان المسلمين:

نأخذ على سبيل المثال حركة الإخوان المسلمين وهي حركة عالمية ذات تنظيم مؤسسي وهيكلي منضبط ومحدد يتمثل في مجلس الشورى العالمي، غير أني ألاحظ أن في اجتماعاتها العالمية تتقلص القضايا العالمية شيئاً فشيئاً ويحل محلها قضايا إقليمية يتطارحها ممثلو الأقطار...

فترى كل ممثل يطرح قضية قطره أو قضايا موقعه وما يلابسها من مشاكل واحتياجات ومجملات ومختصرات، على أن الدعوة عالمية ابتداء ونشأة وممارسة... تتمثل في عالمية الإسلام وكوكبيته نهجاً وأسلوباً وسلوكاً..

ولله در الإمام البنا ـ رحمه الله ـ لما رأى الأستاذ عباس السيسي مهموماً.. فسأله: لم أنت مهموم؟ قال:كيف لا أهتم وقد قطعت اليوم أرضاً من أراضي المسلمين إنها

(١)أخرجه مسلم (٥٥)، وأبو داود (٤٩٤٤)، والنسائي (٤١٩٧)، وأحمد (٤/ ١٠٢) عن تميم الداري.
(٢)العصر: ٣.

ألبانيا.

قال الإمام: وهل أهمك هذا؟ قال: نعم، قال: إذن لقد بدأت الطريق.

ولذلك قال الأستاذ سيد قطب: «من عاش لنفسه عاش مستريحا، ولكن حيا صغيرًا ومات صغيرًا».

وعليه فإننا ننبه على وجوب تمدد الدعوة وتوسعها ووضع قضايا الأمة ككل في بؤرة اهتمامها، لا أن ينقلب الهرم التنظيمي للقضايا، فتبدأ بالشخص ـ الإقليم ـ التنظيم الإقليمي ـ الحزب ـ القطر ويلي كل هذا قضايا الأمة في مؤخرة القائمة.

ب ـ الحركة الإسلامية في الفلبين:

وهي حركة تعمل على الاحتكار للإسلام وإعادة أمجاد المسلمين في الفلبين بقيادة أليف الدين.. غير أن جلّ أعمالها يتمثل في إطار جزيرة واحدة تمثل قبيلة في مدينة واحدة.. فهي جزء في جزء في جزء.

وهكذا الأمر عند باقي الحركات الإسلامية الأخرى.ونهيب بها أن تكون قضايا الأمة ككل في بؤرة اهتمامها قبل قضايا الحزب أو الجماعة أو الحركة أو التنظيم أو غير ذلك من المسميات الإقليمية، فهذا أدعى لنهضة الأمة وتفعيل قضاياها.

ثالثا: على مستوى المؤسسات والمنظمات الإسلامية:

نذكر هنا مثالاً على انحسار الأممية على مستوى المؤسسات والمنظمات الإسلامية سواء الحكومية أو الأهلية.

الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية:

وهي مؤسسة شعبية حكومية قامت على أساس العالمية والأممية، وتمثلت تلك العالمية في فكرتها ثم في برامجها وخططها واستراتيجيتها.. على أنها تهتم وتعمل لمصلحة الأمة أولاً. وهكذا تبلورت الفكرة في أذهان أصحابها وخرجت إلى حيز التنفيذ.

ولكن للأسف ما إن بدأت العمل وانعقدت الاجتماعات تلو الاجتماعات حتى وجدنا القادة والمنظرين والمسئولين يضربون صفحاً دائماً أو مؤقتاً عن قضايا الأمة

ويقبلون على طرح قضايا أقاليمهم في البنود الأولى وفي بؤرة الاهتمام..

فمن بين من يحتاج لمدرسة، وآخر يبالغ في المطالبة بمستوصف، وثالث يؤثر بناء معهد في حيه أو ضاحيته أو محافظته.. وعلى أحسن الأحوال ينجمع الاهتمام على تضميد جرح أو تعزية مصاب بعطاء مؤقت في قطر إسلامي منكوب..

وهذه الملحوظة لا تنقص من دور وعطاء الهيئة، ولكن نريد تجديداً أو فاعلية وتوجهاً أكثر نحو القضايا العالمية فيما يتعلق بالأمة كلها.. وتقدمتها على القضايا القطرية والمحلية والحزبية.

٤ ـ خطوط عريضة:

وهذه ملحوظات أراها تمثل خطوطاً عريضة ينبغي التنبه إليها في تلك «الإشكالية» لـ«قضية الأممية والإقليمية» ، أُذكّر بها وأطرحها على أن توسع وتبحث فيها بعد:

أولاً: التوازن:

يبدر سؤال يطرح نفسه بقوة في هذا المقام بأنه ما المطلوب إذن وما الحل؟

فنقول: المطلوب هو التوازن الدقيق «قدر المستطاع» بين مسألة الأممية ومسألة الإقليمية، إذا إننا نعلم مسبقا بأن لا أممية إلا بقاعدة إقليمية ومحلية، ولكن إذا استتم بناء القاعدة الإقليمية والمحلية فلابد من الانطلاق إلى الأممية، ومن الصعب تصور استكمال البنية التحتية الإقليمية والمحلية تمام الكمال، ولكن ما إن تأذن بنضج وتستكمل عناصرها الأساسية فليصعد بعدها مباشرة إلى البعد الأممي العالمي الذي يبحث في قضايا الأمة ككل من نظرة فوقية، تتناول قضايا تخص الأمة مثل:

١ـ قضية تخلف الأمة «أسبابها وعواملها».

٢ـ سبيل الخلاص «من تلك الأزمة الحضارية المعاصرة» حيث يحوط أمتنا الأعداء والشامتون من كل حدب وصوب، كما جاء في الحديث: « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها». قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟!

قال:« لا بل أنتم كثير ولكنكم كالغثاء»[(١)].

٣ـ رسالة الأمة الخالدة في:

أ ـ العوة إلى اللهّ وتعبيد الناس للهّ.

ب ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[(٢)].

٤ـ الدور القيادي والريادي «الواجب إنهاضه واستعادته» لصالح بني الإنسان جميعا مسلمهم وكافرهم على اختلاف دياناتهم السماوية والوضعية وعلى تباين بلادهم وألوانهم وتمايز عاداتهم؛كما أشار القرآن لهذا مخاطباً قائد الأمة وزعيمها ورسولها ﷺ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[(٣)].

٥ـ إضافة إلى الأدوار المحورية الأخرى أو الأدوار الجزئية التالية.

ثانياً: تحمل المسؤولية:

أشير هنا إلى أن المؤسسات والهيئات الإسلامية التي نشأت على محور عالمي في الأساس تتحمل التبعة والمسؤولية بالدرجة الأولى عن قضايا الأممية.وينبغي أن تتجاوز الإقليمية في هياكلها وإدارتها وخططها ووسائلها وآلياتها وفي الغايات والأهداف والاستراتيجيات العملية لها.

وهذا أمرٌ لازم في حق تلك المؤسسات والهيئات، فهي في مقام الرائد والهادي وفي مقام الطلائع المؤسسية الإسلامية، فإن انحسرت عن العالمية وتنكبت عن الكوكبية إلى أدوار إقليمية ومحلية، فقد تجاوزت خطها وذهبت إلى المرجوح على حساب الأرجح، وإلى المفضول على حساب الأفضل، ورامت التيمم مع وجود الماء الطهور المطهر.

ثالثاً: المنظور الإقليمي يؤخر قيام دولة الإسلام:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد (٥/ ٢٧٨)،عن ثوبان، وصححه الألباني.

(٢)آل عمران: ١١٠.

(٣)الأنبياء: ١٠٧.

وهذه حقيقة واقعة وحاقة بنا إذا تغلبت الأطروحات الإقليمية والمحلية بما تحمله من قوميات وتعصبات ومذهبيات على الأطروحات الأممية، على أن الإسلام ابتدر دعوته بنبذ تلك العصبيات والقوميات والمحليات وراح ينسج خيوطاً أممية بل إنسانية كونية عامة وحدت بني الإنسان فخاطبت الناس جميعاً، وهذه آيات القرآن شاهدة على ذلك قال تعالى ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾[2] وفي مقام الأمر والمخاطبة يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ..﴾[3]

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ ..﴾[4] وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

ثم هذا هو القرآن يخاطب بني الإنسان كل بني الإنسان مطلقاً فيقول سبحانه مخاطباً ومكلفاً: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾﴾[6] ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾[7] ويقول سبحانه موصياً أيضاً: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾[8] ويقول سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾[9].

وهكذا فإن العالمية أصل وأساس وركيزة في بنية الفكر الإسلامي. وقد تمثلت هذه العالمية في السيرة النبوية، كما تمثلها الخطاب القرآني، فقامت الدعوة في مهدها على رسول الله ﷺ ورجل هو أبو بكر الصديق، وطفل وهو علي بن أبي طالب، وامرأة وهي

(١) آل عمران: ١٣٨.
(٢) آل عمران: ١٨٧.
(٣) النساء: ١٠.
(٤) النساء: ١٧٠.
(٥) النساء: ١٧٤.
(٦) الانشقاق: ٦.
(٧) الانفطار: ٦.
(٨) الأحقاف: ١٥.
(٩) العنكبوت: ٨.

خديجة بنت خويلد، فانظر فئات المجتمع رجالاً وأطفالاً ونساءً. ثم اتسعت قليلاً لتشمل الأجناس الأخرى مثل الروم ويمثلهم صهيب الرومي، والفرس ويمثلهم سلمان الفارسي، والزنوج ويمثلهم بلال الحبشي.

وهكذا كانت الدعوة عالمية في عالمية وإنسانية كونية.. مرتفعة على الجنسيات والقوميات والطبقات والمحليات والعنصريات، فإذا خالفنا هذا الأصل واحتوتنا المحلية أو العنصرية أو القومية، فسوف نذهل عن الدرب الصحيح، وسوف يفوتنا الصراط المستقيم والسنن الربانية والكونية معاً في إعادة دولة الإسلام وخلافته..

وعليه فينبغي أن نتجاوز الأيدولوجيات والسقف المحلي للفكر الإسلامي والرؤية قصيرة المدى إلى رحابة الكونية والعالمية، ولنأخذ عبرة من حال المجاهدين الأفغان لما لفتتهم القوميات والإقليميات والعصبيات عن الأهداف العالمية والأممية، ولنعتبر لحال المسلمين في الغرب وكيف يتصارمون ويتدابرون ويتحاوضون معاً في وحل الإقليمية والعصبية والمذهبية وهم في أمس الحاجة إلى الأممية لكي يوحدوا صفوفهم وتجتمع كلمتهم في غربتهم وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾[1].

رابعاً: هذه الإشكالية عامة:

إذ نرى في معظم المؤسسات التطوعية والتجمعات أبعادا إقليمية مقدمة على نظيرتها الأممية؛لأن عضو المؤسسة أو الجماعة الحركي والفاعل تكون أبعاده إقليمية، وقد تتجه المؤسسة أو الحركة إلى تحقيق الأهداف والغايات الأممية بسبب أممية تطلعات العضو الفاعل فيها...

وعلى ذلك فتلك مؤسسة فردية تمشي بهوى الأفراد لا بحسب القواعد المؤسسية الصرفة التي يفترض أن تحكم الكبير والصغير.

وليس الأمر قاصرًا على المدير أو العضو الحركي البارز، والذي بطبيعة حاله يوجه سياسة المؤسسة التي يعمل فيها ولا يُوجَّه هو بها.فإذا كان في المكتب التنفيذي حاول

(١)الأنفال:٤٦.

تقليص صلاحيات مجلس الشورى، وإذا ذهب إلى مجلس الشورى، حاول تقليص صلاحيات المكتب التنفيذي.ويسبب هذا فوضى وارتباكاً في فلسفة المؤسسة كما يسبب غمطا وتطفيفاً لحقوق ومنجزات الآخرين، وتجاوز منجزاتهم، فيستشعرون عدم الإحساس بالمشاركة الجماعية وروح المجموعة، والتي هي أصل كبير في الإسلام كما قال النبي ﷺ مشيرا إلى العمل الجماعي وتقديمه على العمل الفردي:«صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده، وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع رجل...»[١] وهكذا يعظم الأجر بعظم الجماعة.

٥ ـ دعوة لتكوين مجلس حكماء الأمة:

بقي أن أطرح هنا فكرة عملية تعمل على تفعيل قضية الأممية وتوطيدها ولم الشمل حولها، وعساها ـ بإذن الله ـ أن تتبلور فيما بعد برنامجاً كاملاً له قواعده وأصوله وأهدافه، ألا وهي فكرة تكوين مجلس حكماء من صفوة علماء المسلمين والقياديين والمهتمين بقضايا الأمة من كل الدول الإسلامية، على أن يجتمعوا ولو في العام مرة لتناول القضايا الأممية والنظر في شؤون الأمة وحاجاتها وخاصة على المستوى الفكري والحركي، وأن يكون لهم مجلة أو دورية أو صحيفة تهتم كذلك بقضايا الأمة الفكرية، على أن تكون آراؤهم ومباحثاتهم خارجة عن التأثيرات الإقليمية والضغوطات المحلية، وإنما تكون أممية وإسلامية محضة قدر الطاقة وإن كان هذا صعب على المستوى العملي فبإذن الله يتسع ما ضاق ويقبل ما غلب عليه الإخلاص ويدفع باليقين الظن وبالراجح المرجوح.ولتكن فكرة ومحاولة مبدئية ننطلق منها إلى مراحل أكثر نضجاً وتوفيقاً بإذن الله.

وأدري أن هناك بعض المحبطين والذين يستبعدون تحقق الفكرة في ظل الظروف الدولية والعالمية المعاصرة، ولكن بالتدبر والتأمل وبإنضاجها أكثر وطرح تعديلات وبرامج واقعية تغدو حقيقة ماثلة للعيان وكائنة وفاعلة بإذن الله.

---

(١)أخرجه أبو داود (٥٥٤)، والنسائي (٨٤٣) عن أُبي بن كعب، وحسنه الألباني.

ولعل الفكرة المطروحة تذكرنا بما سعى إليه الأستاذ جمال الدين الأفغاني لما دعا لإنشاء جامعة إسلامية حتى لا يتشرذم المسلمون في إطار الدول والقوميات، وقصد منها أن تكون منظمة عالمية تهتم بشؤون المسلمين، وحاول تطبيق الفكرة من خلال مجلته وأقنع بها الشيخ محمد عبده فيما بعد تلميذه، ثم أقنع بها فيما بعد الشيخ محمد رضا من خلال مجلة المنار...

أما عن المواضيع المحورية التي يمثلها مجلس الحكماء الإسلامي هذا، فإنها تتسع لتشمل القضايا الحالية والقضايا الطارئة... على سبيل المثال هناك قضايا مثل:

* حقوق المسلمين.
* الأقليات الإسلامية.
* إصلاح ذات البين.

إلى غير ذلك من القضايا الفكرية. وقد تعلق كل قضية بعضو من أعضاء مجلس الحكماء يتابعها ويتولى أمرها... والحمدلله هناك الإنترنت وهناك وسائل الإعلام المؤسلمة التي ستقوم بدور فاعل في الاتصال والمتابعة والتشاور ... إلى غير ذلك مما تذوب معه الحدود الإقليمية الضيقة، وتضعف أمامه قبضة الرقابة والحدود والجوازات؛ حيث يمكن الاجتماع من غير سفر من خلال الشبكات الإعلامية والأقمار الاصطناعية وشبكة الإنترنت...

مع الإشارة إلى أن الأعضاء يختارون بعناية وبلا مذهبية أو إقليمية وإنما بمقياس أممي وديني وكفائي محض بحسب أطروحات وأسس وركائز مدروسة...

وبإذن الله سوف نرجع إلى هذه المسألة بمزيد من التفصيل لاحقاً.

سادســـــــــــاً:
نافذة على مأساة وملهاة العالم العربي والإسلامي

مضت بنا قبل بضعة أشهر مقالة عن واقع العالم العربي والإسلامي وأهم مشاهده الدرامية التي تدعو للبكاء والضحك معاً.وهذا استكمال لتلك المسرحية الكبيرة التي تدعو إلى المأساة بالبكاء والملهاة بالضحك عندما نرى تعداد الدول الإسلامية الذي تجاوز (اثنتين وخمسين دولة) وهو ما يقارب تعداد دول بعض القارات وأكثر... وذلك العدد الكبير الذي بلغ أكثر من مليار مسلم بشحمه ولحمه... وهو ما يمثل ثلث سكان العالم تقريباً... مع تلك الأرض المترامية الأطراف من الخليج للمحيط، والأنهار التي تتدفق بعذب المياه وسلسالها... مع الثروة النفطية الهائلة التي تجعله بؤرة ومصدر البترول الأول في العالم إلى غير ذلك من الموارد الطبيعية...

كل هذه الخيرات تدعو للمأساة لنا والملهاة علينا؛لأنها خيرات أتت بضدها فلم ترفعنا بين الأمم بل وضعتنا ولم تزدنا عزة وإنما زادتنا ذلة... وقد علمنا أن الناس تعز في الدنيا بتقوى أو بقوة.وهذا إسلامنا يدعونا للتقوى.. وتلك مواردنا تؤهلنا للقوة.... ولكن أين نحن من هذين الجناحين... أين قوانا وتقوانا؟

يا ألله...!! ما أبعد البون بيننا وبين ديننا ... وما أوسع الهوة بيننا وبين ديننا، ولله نحن عندما يقول القرآن: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [(١)] وقوله سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [(٢)] وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [(٣)] وغير ذلك من الآيات التي عدتنا وتجاوزتنا... أين نحن من التقوى... بل أين موقعنا من القوة.إننا مأساة إننا ملهاة.... ظمئنا وعندنا الأنهار، وضللنا وبين أيدينا الهدى...

---

(١)النساء: ١٤١.

(٢)المجادلة: ٢١.

(٣)المنافقون: ٨.

* وها نحن نشكو أزمة مياه... وعندنا الأنهار .

* ونشكو أزمة غذاء... وعندنا أراضي السودان وحدها تكفي لإطعام العالم العربي...

* ونشكو أزمة سمكية ولدينا الأنهار والبحار والشواطئ والبحيرات....

* ونشكو البطالة ولدينا الأراضي الخالية والبيوت الخاوية...والمصانع الخربة... والمشاريع المعطلة... والاستراتيجيات رهينة الأدراج..

* ولا زلنا نعتمد في صناعتنا على الغرب، والقمح نستورده من الغرب، فاتجهت قلوبنا نحو قبلة أفواهنا، نحو قبلة الخبز، وبعض الدول استطاع بحمد الله أن يكتفي ذاتياً بإنتاج الملح ؟ لكي يوفروا الملوحة للشعوب التي أملها عذب الشراب، وحلو الطعام ...

والبعض الآخر اجتهد في صناعة الإبر ليرقع بها الفقراء والمشردون ثيابهم... ويخصفوا بها نعالهم... وها هي بعض الحكومات العربية والإسلامية رفعت الدعم عن الكساء... وحولته إلى دعم فني تلفزيوني... فوسعت مساحة العربي ليستريح الناس من همّ شراء الثياب... وهم التفصيل... وبعضها رفع الدعم عن القمح ورفع سعر رغيف الخبز، ووفر هذا الدعم لجلب الخمور بأنواعها، تشجيعاً للسياحة ولضمان حقوق الأقليات غير المسلمة على أرضها...

وبعض الدول حول دعمه من مشاريع البنية التحتية إلى المشروعات السياحية؛لكي يفرفش الناس ويرقصوا ويغنوا فرحاً من الكبت النفسي الذي صاروا إليه... لأنهم فاقوا الشعب الألماني في انضباطه وجدّه في أوقات العمل... وفاقوا إسرائيل في إنتاج القنابل الذرية وحاملاتها وفي الأسلحة المتطورة والإنتاج الداخلي والخارجي..وفاقوا الأوروبيين في الالتزام بقيم العمل المؤسسي الجاد... وفاقوا الأمريكان في صناعة الصواريخ البالستية العابرة للقارات...

وهكذا تبدو المفارقات وتظهر المتناقضات.. ويولد بعضها بعضاً، ويشعل صغيرها

كبيرها... ولو تطاول الوصف لما وفّت الصفحات العديدات والأقلام الكثيرات في تصوير مأساتنا وملهاتنا...

ولله نحن حيث حذرنا القرآن الكريم والحديث الشريف من تلك المضحكات المبكيات التي حلت بنا...وغشيت ساحتنا.. وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[4].

وهذا حديث رسول الله فينا يحذرنا من قديم الزمان وسالف الأيام ويرسم لنا الطريق قبل أن نصير ضحكة ودمية تتلاعب بنا الأمم الأخرى وتتكالب علينا كما تتكالب الأكلة على قصعتها، قال ﷺ يرسم لنا طريق الهدى ويبين عن مشاعل النور: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي»[5]، وقال أيضاً: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»[6]، وقال أيضاً: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو

(١)الأعراف: ٩٦.
(٢)الطلاق: ٨، ٩.
(٣)النحل: ١١٢.
(٤)هود: ١٠٢.
(٥)أخرجه الحاكم (١/ ١٧٢) رقم (٣١٩) عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٣٧).
(٦)أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣)، عن العرباض بن سارية، وصححه الألباني.

سلكوا جحر ضب لسلكتموه معهم... قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» [(١)]؛ أي فمن غيرهم.

وقال أيضاً : «تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها» قلنا: أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ـ قال : «لا، بل أنتم كثير... ولكنكم كالغثاء.. ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم.. وليقذفن في قلوبكم الوهن» قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال : «حب الدنيا وكراهية الموت..» [(٢)] أو كما قال ﷺ.

وهناك الكثير والكثير من الآيات والأخبار والآثار في التحذير من تلك المأساة وهذه الملهاة التي تحياها أمتنا...ويضيق البيان عن الوصف... وإضراب القلم عن الكتابة؛ لأن وحل مأساتنا وفضيحة ملهاتنا قد تجاوز الحد وبلغ سيله الزبى وجاوز حزامه الطبيين كما تقول العرب، فإنني أضرب صفحاً عن التبيان لأصحاب البلاغة والبيان من ذوي الأقلام الموهوبة والأشعار الفائرة الثائرة التي تعبر خير تعبير عن ملهاتنا ومأساتنا.

وهذه ستة مشاهد ولوحات فنية تمثل بعض الملامح الدرامية لمأساة وملهاة الأمة أكتفي بتعليقات بسيطة عليها وأترك لقلم شاعرنا التعبير وبلاغة التصوير ولله در مبانيه وقوة معانيه وكلماته المشعة الوقادة التي تطوي بين دفافها البيان طياً... أما عن تلك المشاهد الستة التي تمثل بعض محاور المسرحية الهزيلة الكبيرة التي يعيشها عالمنا الإسلامي والعربي فهي ...

المشهد الأول : زماننا:

وهو زمان اللازمان... لا يدري.. أهو زمان الجاهلية الجهلاء... التي عبدت الأصنام أم هو زمان العولمة الشوهاء التي قدست عندنا الحكام ورفعت الغرب فوق الهام.... وهي على كل حال أصنام على مذهب شاعرنا وإن فاقتها أصنام الجاهلية التي كانت

---

(١)أخرجه البخارى (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩) عن أبي سعيد الخدري.

(٢)حديث حسن سبق تخريجه.

أحياناً تصنع من عجوى فتؤكل ... بينما أصنام العصر فينا تأكل....

المشهد الثاني : أوضاعنا ... بين الوهم والحقيقة :

يتساءل شاعرنا في هذا المشهد عن وضعنا وموضوعنا وأين نحن وماذا عندنا... وماذا يراد بنا.... وماذا يراد منا... وكيف ومتى... ومن... وعن ....؟

وهكذا سؤال تلو سؤال واستفهام يليه استفهام.. وإجابات حائرة مبعثرة... فلا هي للغليل تروي... ولا للعليل تشفي... فهذا سؤال عن موقفنا من الغرب وآخر عن سلاح البترول وفيم وظفناه... وثالث عن الحكام ومسئولياتهم أمام شعوبهم... ورابع عن كيان الدولة.... وخامس عن الثوريين وسادس عن الحرية وسابع عن الاستبداد...

المشهد الثالث: رغيف الحرية المفقود:

وهذا مشهد أبدع فيه الشاعر خير إبداع، كيف لا وهو لا يملك لقمة حرية، وعندما طلبها في بلده حرم منها وطُلبت رأسه مقابلها... وفشل أن يطلب من رغيف الحرية لقمة في البلاد العربية فراح يطلبها في بلاد الغرب... الذي أذنت له بلقمة ولقمات من خبز الحرية المفقود في بلادنا...

وفي هذا المحور يبدع شاعرنا في تصوير القهر في العالم الإسلامي... وحرية التعبير الذهني فقط في الرأس في الهمس الداخلي دون تجاوز اللسان ومساحات الحرية العريضة التي أقصاها... يكمن بين الرحم... «وأنت في بطن أمك» أو وأنت في القبر «في بطن الأرض» فهي حرية لا تتجاوز البطنين بطن أمك وأنت جنين أو بطن الأرض وأنت رميم .

المشهد الرابع : البيت العربي والإسلامي تشتته وتدابر زعاماته:

في هذا المشهد يرسم الشاعر صورة البيت الإسلامي الكبير مساحةً والعديد أفراداً... والصغير كياناً... والقديم قيادة...يحكي في صورة شعرية رائعة صورة الذلة للغرب والعزة علينا على خلاف ما قال الله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] ويحكي فورة

(١)المائدة: ٥٤.

القادة وثورة السادة على اليهـود ـ أستغفر الله ـ بل على الأحرار من بني أوطانهم أو عـلى أنفسهم.... ويصور ببراعة هـرولتهم وسرعـة ركـضهم عنـد الملـمات والمهـمات إلى هيئـة اللمم أو الأمم ـ سيان ذلك ـ والاستغاثة بها في كل حالاتها .

المشهد الخامس: مأساة القدس:

وفيه يرسم لوحة دامية... مضحكة مبكية على أعلى مستوى؛لأنها تمثل مـستوى ذروة الحـدث الـدرامي والعقـدة الفنيـة ناقـصة الحـل... وكيـف تتمثـل كـل عيوبنـا ومخازينـا وتتجسد في هذا المشهد المأساوي.

فيخاطب شاعرنا القدس المهيب معتذراً، ثم يستقيل من اعتذاره ثم... يـبرز فـضائح القـادة ويـشير إلى تـواطئهم... وخيـانتهم ومكـرهم... وكيـف فـاح عـذرهم حتـى خـاف الغـدر نفـسه مـنهم ويحملهـم المـسئولية بالدرجـة الأولى سـواء بـسواء مثـل الأعـداء الظاهرين للقدس من اليهود والغرب الظلوم...

المشهد السادس : نحن والخراف... قطيع وقطيع:

وهذا مشهد الختام وفيه نعرف سر المسرحية كلها في جدها وهزلها وأننا نحن السر... لأننا قطيع من الخراف، بل فاقتنا الخراف فهي تلبس الصوف ونحن نعرى وكم من غير واجد القوت ولا الثياب وهي تمرح وتثغو وتلهو، ونحن لا نستطيع الهمس فـضلاً عـن الجهر.... وهي تأكل وتشرب قبل ذبحها ونحن عـدمنا الـشراب ونقـص عنـا الطعـام في أحوال كثيرة ... وصدق الله إذ يقول عن آل فرعون: ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[1].

فإليك يا أخي بهـذه المـشاهد الداميـة، فاضـحك وابـك وتَـأَسَّ وتَلَـهَّ، وانظـر حالـك وموضعك وخلاصك من تلك الملهاة المخزية... المأساة المبكية.. واعلم أن شر البلية مـا يضحك، وأن السعيد من وعظ بغيره، والشقي من اتعظ به غيره...

---

(١)الزخرف: ٥٤ .

سابعــــــاً:
هل يُقدم كُلُ ميلوسوفيتش إلى العدالة ؟

بغـض النظـر عـن المواءمـات الـسياسية ولعبـة المـصالح التـي تقـف وراء تـسليم ميلوسوفيتش مجرم الصرب إلى محكمة لاهاي الدولية بهولندا، سواء جاء تسليمه رغبة من صربيا في إصلاح اقتصادها والحصول على معونات من الولايات المتحدة الأمريكية تقدر بملايين الدولارات، أو ضماناً لرفع الحظر عن تصدير السلاح إليها، أو غير ذلـك من الأسباب، بغض النظر عن كل هذا، فإن حالـة الترحيـب التي سادت الـرأي العـام المحلي والإقليمي والدولي بسبب هذا الحدث تمثل دليلاً دامغاً عـلى رفـض العـالم للظلـم والطغيان، ولأن الإجـرام الـذي مارسـه ميلوسـوفيتش ضـد شـعبي البوسـنة وكوسـوفا بشع وصارخ وفائق لكل تصورات الخيال.فقد جاء هذا الارتيـاح العـالمي إزاء محاكمته وفقاً للقوانين الدولية التي تحرم الجرائم ضد الإنسانية .

ولما كان الظلم في كل مستوياته ودرجاته محرمًا في الإسلام ومنهيًا عنه شرعـاً امتثـالاً لقوله تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلتـه بيـنكم محرماً فلا تظـالموا»[1]، فإن منطـق العدالـة يـستوجب محاكمـة كـل ميلوسـوفيتش طغـى وتجـبر في الأرض، عربيـاً كـان أو يهوديـاً، فهنـاك طغـاة ظلمـوا شـعوبهم واعتـدوا عـلى حقوقهم وانتهكوا أمن جيرانهم، وهناك جبابرة وسفاحون فقدوا كل صـلة بالإنـسانية: قتلوا الأطفال والنساء والشيوخ قبل الرجال والشباب. والسيناريو نفسه الذي وقـع في البوسنة وكوسوفا يتكـرر اليـوم في مقـدونيا وسـط صـمت مطبـق وتواطـؤ دولي منقطـع النظير!!

١ ـ رسالة إلى كل طاغية :

(١)أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)،عن أبي ذر رضي الله عنه .

وبعيداً عن خلفيات محاكمة جزار الصرب فإن مجرد تقديمه إلى العدالة رسالة قوية لكل المتورطين في جرائم حرب ومن تسول له نفسه ارتكاب جرائم ضد الإنسانية.لكن السؤال المهم الذي يطرح نفسه: هل من اختصاصات محكمة العدل الدولية محاكمة كل مجرم حرب انتهك حق شعبه أو اعتدى على غيره، للأسف لم ينص النظام الأساسي للمحكمة على ذلك كما يفهم البعض وإنما حصر اختصاصاتها في جزأين :

أولاً : الاختصاص القضائي :

تنظر المحكمة في النزاعات المرفوعة إليها بين الدول بعضها البعض فقط، ولا تنظر أي قضايا مرفوعة من الأفراد أو من هيئات عامة أو خاصة، ولا تنظر المحكمة أية قضية أو نزاع مهما كانت أهميته أو خطورته من تلقاء نفسها، بل لابد أن يرفع إليها من الجهتين المتنازعتين معاً، فهي لا تفصل في أية قضية يرفعها طرف بمفرده على طرف آخر، واختصاص المحكمة اختياري ولذلك فقد اشترط على المحكمة عند الفصل في المنازعات ما يلي :

* أن تكون لديها موافقة كتابية من أطراف النزاع معاً على إحالة القضية إلى محكمة العدل الدولية، فمثلاً في قضية طابا المصرية لم تحكم المحكمة بخصوصها إلا بعد موافقة الكيان الصهيوني المحتل لهذا الجزء من الأرض وموافقة مصر، وهذا أيضاً ما حدث حين احتكمت قطر والبحرين إلى المحكمة الدولية لفض النزاعات بينهما، يضاف إلى ذلك أنه يجب إخطار المحكمة رسمياً بالمطلوب منها تحديداً عند قبول أطراف النزاع أن تنظر المحكمة بشأن نزاعهم .

* أن يكون هناك اتفاقيات أو معاهدات بين دولتين أو أكثر وينص في هذه الاتفاقيات على اختصاص محكمة العدل الدولية نظر أية قضية أو الفصل في أي نزاع قد ينشأ بين الأطراف حول تطبيق أو تفسير أي بند من بنود هذه الاتفاقات أو المعاهدات.

ثانياً : اختصاص الفتوى :

يقتصر حق طلب الفتوى أو الاستشارة القانونية من محكمة العدل الدولية على الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن فقط؛فقد ورد في المادة ٩٦ من ميثاق الأمم المتحدة أنه يمكن لفروع الأمم المتحدة أو لمنظماتها المتخصصة طلب الفتوى من محكمة العدل الدولية لأي مسألة تدخل في مجال اختصاصها .

وبمقتضى هذه الاختصاصات المتضمنة في النظام الأساسي للمحكمة لا يحق لأي شعب أن يحاكم قائده الجائر أمام المحكمة الدولية، كما لا يحق لأي دولة أن ترفع دعوى أمام المحكمة ضد حاكم معتد وهو ما تعد معه الاختصاصات ناقصة ومحدودة، وهذا ما يؤكد وجوب تعديل نظام المحكمة لاستيعاب جميع الحالات التي تشهد انتهاكات في حق الإنسانية.

٢ ـ جرائم ميلوسوفيتش وأعوانه :

نعود إلى ميلوسوفيتش وجرائمه التي ما زال يمارسها وهو قيد المحاكمة،فقد أعلن في كل بجاحة ووقاحة وهو في طريقه إلى المحاكمة: (أنه غير نادم على ما ارتكبه من جرائم!!) وأردف قائلاً: (لو قدر لي أن أعود لفعلت مثلما فعلت!!) ميلوسوفيتش وهو مكبل اليدين يعلن أنه غير نادم على المجازر التي ارتكبها ضد مسلمي البوسنة ومن بينها مجزرة (سربرنيتشا البوسنية) التى راح ضحيتها ثمانية آلاف مسلم من مسلمي البوسنة!

ويواجه ميلوسوفيتش الآن ثلاثة اتهامات بارتكاب جرائم ضد الإنسانية، واتهاماً بخرق قوانين الحرب وأعرافها، والتحريض على ارتكاب المجازر،وفي واحدة من أكبر الحوادث بشاعة قتل الصرب ٤٩ فرداً من عائلة ممتدة وهي كما يرويها تقرير للنيوزويك .. أمرت الشرطة أفراد عائلة بيريشا بالخروج من منازلهم وتم فصل النساء والأطفال عن الرجال وقتل ستة من أبناء العائلة،ومن تبقى ساقتهم القوات الصربية إلى داخل مقهى وأطلق المسؤولون الصرب النار عليهم كما رموا المتفجرات داخل المكان وقد قتل ٣٤ مدنياً على الأقل وأصيب آخرون بجراح بالغة .

وهناك الكثير من الأمثلة التي سوف يقدمها شهود العيان وبعض الناجين من هذه المجازر إلى محكمة الجزاء في لاهاي.ولم يكن ميلوسوفيتش وحده متورطاً في هذا العمل الإجرامي،فهناك رادوفان كارازديتش وراتكوملاديتش،وهما يمثلان العقل المدبر لخطة التطهير العرقي في منطقة شرق البوسنة من المسلمين والكروات،والقائمة السوداء بها الكثير من المتهمين مثل رئيس الدولة ميلان ميلوتينوفيتش ونيكولاشانيوفيتش النائب السابق لرئيس الحكومة ووزير الداخلية السابق فلايكوستويكلوفيتش والجنرال دار دارغليوب أويدانيتش الرئيس السابق لقيادة أركان القوات اليوغسلافية .

هؤلاء القياديون الدمويون يشهد سجلهم الأسود بأنهم متهمون بالتخطيط والتحريض وإصدار الأوامر والمساعدة في تنفيذ الحملات الإرهابية والملاحقات والعنف ضد المدنيين في البوسنة وكوسوفا،وهذا ما يلقي بالمسؤولية على المجتمع الدولي لممارسة مزيد من الضغط لتسليم هؤلاء المجرمين إلى العدالة جزاء ما ارتكبوا من جرائم وآثام يشيب لها الولدان.

٣ ـ الصحيفة الجنائية السوداء لشارون :

ورغم أن قصور النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية لا يسمح بمحاكمة مجرمين جدد أمامها،أمثال سفاح الكيان الصهيوني وحاكم العراق، إلا أن ذلك سوف يفتح باب الأمل بأن هؤلاء سيمثلون يوماً ما أمام العدالة للاقتصاص منهم.ولعل خطوة محاكمة شارون أمام القضاء البلجيكي تعد مؤشراً مهماً في هذا الاتجاه،وكذلك الخطوة التي اتخذها بعض الأخوة الكويتيين بشأن محاكمة صدام أمام القضاء البلجيكي .

نأتي أولاً على شارون ومحاكمته أمام القضاء البلجيكي ونقول حسناً أن يسمح قانون بلجيكا المعتمد في ١٩٩٣م والذي تم تنقيحه في ١٩٩٩م بمقاضاة أي شخص تورط في جرائم ضد الإنسانية،ونحن نأمل ألا تخضع بلجيكا لأية تهديدات أو ضغوطات من المحتمل أن يقوم بها اللوبي الصهيوني، وعلى أية حال فإن قبول النيابة العامة البلجيكية للشكاوى المقدمة ضد شارون وإسناد القضية إلى أحد القضاة

(كوليونيون) يعد مرحلة جديدة في ملاحقة شارون .

إن البرنامج الوثائقي الذي بثته الـ(بي بي سي) عن مجزرة صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢م إبان الاحتلال الكيان الصهيوني للبنان في غاية البشاعة، وليست هذه هي النقطة السوداء في صحيفة شارون الجنائية،فتاريخه الأسود ينزف دماً؛ فقد شارك في كل الحروب ضد العرب (١٩٤٨ ـ ١٩٥٦ ـ ١٩٦٧ ـ ١٩٨٢) وعاش حياته ليحقق مقولة أبيه (إن غرس اليهود مكان العرب لن يتم إلا بتعليم الأجيال الإسرائيلية الشابة بناء المستوطنات والزراعة) ولذلك فقد تولى شارون منصب وزير الزراعة أكثر من مرة ليحقق هذا الغرض .

ويشهد التاريخ بأن شارون منذ صغره وهو يقوم بعمليات إرهابية وحشية تخصصت في ترويع القرويين الفلسطينيين، وتذكر المصادر أنه في بداية حياته العسكرية كان لديه نبوغ إجرامي،فقد تقدم إلى قادة الجيش الصهيوني طالباً إليهم السماح له بتكوين سرية عسكرية من اليهود الذين يمضون أحكاماً طويلة في السجون، ووافقت قيادة الجيش على ذلك وشكل تلك الفرقة عام ١٩٥٢ وعرفت بـ (القوة ١٠١) وكانت عمليتها الإجرامية الأولى في قرية قبية الفلسطينية،حيث كانت تعيش هذه القرية في أمان بسبب بعدها الجغرافي عن بؤر التوتر في الأرض المحتلة،ولم تكن هذه القرية الآمنة تدري أن هذه القوة المشكلة من القتلة والمجرمين اليهود سوف تقوم بترويع أهلها، فقد قام هؤلاء المجرمون بقيادة شارون بإمطار هذه القرية ليلاً بوابل من نيران المدفعية؛فانهارت المنازل الفقيرة على رؤوس ساكنيها،وأسرعت القوة في قتل كل من بقي حياً بعد القصف المدفعي،وراح ضحية عمليات القتل والإبادة عشرات النساء والأطفال .

ولم تقل مذبحة صبرا وشاتيلا بشاعة عما حدث في قبية،فقد اجتمع وزير الدفاع الصهيوني شارون في ذلك الوقت مع روفائيل إيتان رئيس الأركان وقررا إدخال مجموعات من قوات الجيش الصهيوني إلى المخيم،فراحت تلقي قنابل مضيئة داخل

أزقة المخيم،في حين أطلق بعض أفراد الميليشيات اللبنانية العميلة هناك نيران أسلحتهم على السكان الآمنين العزل،واستخدموا كذلك السكاكين والبلطات الحادة للإجهاز على كل من وقع في أيديهم من الضحايا وقتل المئات من النساء والأطفال ممن أتيحت لهم فرصة الفرار والوصول إلى أبواب المخيم، واستمرت تلك المجزرة لمدة أربعين ساعة، ولفظاعتها فقد صنفتها الأمم المتحدة بأنها جرائم ارتكبت ضد الإنسانية .

وما بين المذبحتين الشنيعتين ارتكب شارون في حق الشعب الفلسطيني والعربي الكثير من الجرائم،سواء ضد السكان المدنيين أو ضد البيئة والموارد الطبيعية والأراضي الفلسطينية حتى يومنا هذا .

٤ ـ ميلوسوفيتش العرب :

وصدام حسين وأركان حكمه في جرمهم وطغيانهم لا يقلون عن نظيريهم ميلوسوفيتش وشارون،فالجرم كله ملة واحدة، ووثائق إدانتهم بالمئات،وهي أدلة قاطعة على ارتكابهم جرائم خطيرة ضد شعوب العراق والكويت والأكراد وإيران، وهذه الجرائم معروفة وموثقة لدى المجتمع الدولي، فقد ارتكب صدام الفظائع في حق الكويت،ودمر بيئتها،وسلب ممتلكاتها،وفجر مئات آبار النفط،ومع ذلك فما زال حراً طليقاً يمارس تهديداته الرعناء وشعاراته الانهزامية بين الحين والحين، وجرائمه ضد الأكراد من تعذيب وممارسات بربرية واستخدامه للأسلحة الكيماوية والبيولوجية والاعتقالات التعسفية ليست أقل خطورة، ولهذا كله نحن نبارك خطوة الإخوة المحامين الكويتيين برفع دعوى قضائية ضد رأس النظام العراقي أمام القضاء البلجيكي ونثني على ما قام به بعض الإخوة العراقيين المضطهدين برفع دعوى مماثلة ضد صدام وعدد من وزرائه ومستشاريه وضباطه بتهمة ارتكاب جرائم ضد الإنسانية تجاه الأقلية الكردية .

وتبقى كلمة :

ومهما تكن خلفيات تقديم ميلوسوفيتش للمحاكمة دولياً وقبول القضاء البلجيكي

لمحاكمة شارون وغيره،فإنها بادرة جيدة وتطورات تاريخية مهمة على صعيد الدوافع المشتركة عن دفع في اتجاه المحاكمة أو من قدم ضغوطات في هذا الاتجاه، وبهذا الحدث المهم نحن نتطلع مع الحالمين إلى اليوم الذي تدشن فيه محكمة عدل إسلامية تفصل في المنازعات بين المسلمين،وحتى يتحقق هذا الحلم فهل يعدل النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية حتى يحاكم أمامها كل ميلوسوفيتش جديد؟؟

ثامنًا:
هل من وقفة عقلية مع «تلك حدود الله فلا تعتدوها»؟

ومن مظاهر أن الشريعة روح ومعنى أن الله قد تعبدنا بالعقل أيضاً ونصح به وذكره في غير ما موضع وأثنى على أولي الألباب.

وقد استقل نظار الإسلام العظام بالدفاع عن العقل وتثبيت سلطانه بقوة الشرع بلا تعارض ولا تدافع بينهما، وهاكم العلامة النظار المقدم شيخ الإسلام ابن تيمية الذي عُني بتلك المسألة وأخرج من دروبها الوعرة زهوراً ومشاعل يأتمّ بها العاقلون.

وذلكم الإمام ابن الجوزي الذي حارب الجهل والبدع في عصره بسلاح العقل مدعماً بدليل الشرع، حتى أتى بنيان جهال عصره من مبتدعة المتصوفة ودهماء المقلدة من القواعد.

ولا تزال كلماته الرنانة تصدح بالعقلاء وترفع لواء شريعة الروح والمعنى بقوله (فالله الله في العلم، والله الله في العقل، فإنه نور ينبغي ألا يتعرض لإطفائه، والعلم لا يجوز الميل إلى تنقيصه، فإن حفظ حفظت وظائف الزمان ودفع ما يؤذي، وجلب ما يصلح، وصارت القوانين مستقيمة) [(١)].

ولأن الشريعة بالمعنى، فالمراسم والصور والأشكال إنما هي مكملات، وليست أصولاً بالدرجة الأولى.. وصدق الرسول ﷺ لما قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم..» [(٢)].

وتلك لعمري هي عين عظمة دين الله... إنه يراعي البواطن والماهيات والمعاني، ولم يهمل كذلك الأشكال والرسوم والمباني ،وإنما هي تبع وليست أصلاً، وتغييرها لا

(١)صيد الخاطر: ٨٢، ٨٣.

(٢)أخرجه مسلم (٢٥٦٤)، وأحمد (٢/ ٢٨٥)، وابن حبان (٣٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يضير، وإنما الضير كل الضير في تغير المعاني والبواطن، فتغيرها هو معقد حلول النعم إن كان تغييراً في الخير... وهو نذير حلول النقم إن كان إلى غير الخير، وصدق الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾(١).

وصدق الله سبحانه في قوله عن المنافقين أهل الزيف والنفاق من يهود المدينة... ومن زائفي كل ملة في كل زمان ومكان...

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْۖ..﴾(٢) ولو كان هذا الظاهر من جمال أجسامهم وحلاوة ألفاظهم يغني أو يقني لما ذكره الله سبحانه... وإنما ذكره في مقام الذم والنعي عليهم، وتحذير نبيه من تلك الرسوم الجوفاء.

١ ـ تغيير الصور والأسماء لا يغير الأحكام والحقائق:

وهذه من قواعد الشرع الجليلة... التي تزكي أفضلية الحقائق وتقدمها، ولو قدر أن تبديل الأسماء والصور يبدل الأحكام والحقائق، لفسدت الديانات وبدلت الشرائع واضمحل الإسلام.

وأي شيء نفع المشركين تسميتهم أصنامهم آلهة، وليس فيها شيء من صفات الألوهية وحقيقتها(٣).

ولذلك لما وجد الأعرابي صنمه المعظم يبول عليه الثعلب، ولا يدفع عن نفسه تلك المبالة قال:

أَرَب يَبُولُ الثُّعْلُبَانُ بِوَجْهِهِ ... لَقَدْ خَابَ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ

وقال العاقل الآخر في أصنامه اللات والعزى لما أهينت ولم تدفع شيئاً عن نفسها:

تَرَكْتُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى جَمِيعاً ... كَذَلِك يَفْعَلُ الرَّجُلُ الصَّبُورُ

وهل ينفع هؤلاء المذنبين تغيير أسماء الخمر... أو التحلل... أو الرجس... إلى أسماء

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) المنافقون: ٤.

(٣) إعلام الموقعين (٢/ ١٣٠).

عصرية أعجمية بها بريق التحضر وعليها العصرنة...

أم هل ينفع هؤلاء المتعلمنة من رعاع المسلمين فتواهم في دين الله بالباطل مع جهلهم بحقيقة شرعه ومقاصده، وإن حملوا الشهادات العليا، وقام لهم الناس وقعدوا.. بل إنهم ليتعلقون بظاهر الشبه ومحض الأشكال والصور في رد العمل بالشريعة والنظر إلى مقاصدها.. فيتهمون المرأة العفيفة المحجبة بأنها رجعية منغلقة، وما فقهوا أن مقاصد تحجبها هو صونها، ثم صون شباب المجتمع عن الافتتان بها وصون الأمة وإمكاناتها وعقول شبابها الذين هم عدتها وموردها الأول لتنطلق نحو الإبداع والأمام.

بل إنهم أشاعوا الهلع والفزع من تطبيق الشريعة عندما يذكرون الحدود في كل مقام بما يشينها وينفر للعامة تطبيقها، ويظنون أن المجتمع سيكون مجتمع الجلد والبتر والحرب الأهلية...! وما دروا أن حدود الله هي صمام الأمان للمجتمع وأن قطع يد واحدة في سرقة هي حفظ لمال المواطن الذي يكد ويسكب عرقه ليكسب قوت أولاده، وقطع يد يحفظ أمن المجتمع كافة، ويردع من تسول له نفسه نهب الحقوق وحوزها... وأن قتل نفس واحدة فيها إحياء وصيانة لباقي النفوس، فمن عرف أنه سيقتل حتماً، سيتردد ألف مرة قبل أن يقدم على قتل غيره والاستهانة بدمه.. وصدق الله الرحيم الحكيم في قوله: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [1] نعم والله إنما تلك الحكم منوطة بذوي العقول المتفكرة المتبصرة.. من أولى الألباب. وقديماً قال العرب: «القتل أنفى للقتل».

٢ ــ هل تصلح الشريعة قاضياً وحاكماً بين العباد في عصر المعلوماتية وزمن العولمة؟

أم أن الدهر أصابها بالعطب، ورماها بالشيخوخة والوهن؟! وأصبحت ركاماً مهملاً، وحجر عثرة في سبيل نهضة الأمم وما عادت تجدي في جلب المصالح، فهي

(١) البقرة: ١٧٩.

جامدة ضيقة بالية رجعية تخلفية؟!!

هذه أسئلة وشبهات ونفثات مسمومة تنفثها النفوس الزرقاء، وتخطها الأقلام السوداء، وتنشرها الصحف العوجاء.. ويترنم بها زمرة من حفنة الدخلاء الجهلاء مطعوني الولاء في عروبتهم فضلاً عن دينهم... على تمسحهم به وانتسابهم إليه، ويا حبذا لو «ولّوا حارها من تولى قارها»، ولو سبروا أغوار كنوز كتب الأصول، وتكلموا بالمنقول والمعقول، ولكن تلقفوا شبهة فجعلوها كرة ثلج تتفاقم وتتعاظم بمجرد ترددادها، ولوكها باللسان وخطها بالأقلام، ويا حبذا لو وعوا بأنهم مؤاخذون بما كتبوا ومسئولون عما اقترفوا.ولله در القائل:

وَمَـا مِـنْ كَاتِبٍ إِلاَّ سَيَفْنَى ... وَيَبْقَى الدَّهْرَ مَا كَتَبَتْ يَــدَاهُ

فَلاَ تَكْتُبْ بِخَطِّكَ غَيْرَ شَيْءٍ ... يَسُرُّكَ فِي اْلقِيَـامَةِ أَنْ تَـرَاهُ

الشريعة روح ومعنى وليست رسماً ومبنى:

نعم شريعتنا مرنة غير جامدة تستوعب مطلق الزمان ومتغير المكان، وهذه حقيقة ثابتة دلت عليها نصوص الشرع، وعبر عنها علماء الأصول بألفاظ مختلفة منها:

* أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان.

* أن العبرة إنما هي بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني.هذا مع ملاحظة الثوابت الأصولية والتي لا تتغير البتة بتحول الزمان، أو بتغير المكان، ومن هذه الثوابت (مقاصد الشريعة) حيث ذكر العلماء أنها لا تنخرم أبداً بل هي كلية أبدية [(١)] .

ونستدل على ما سبق بإيراد قضية عمت بها البلوى، وزلت فيها الأقدام وتخالفت الأفهام، وداعى العقل يهتف بالعقلاء قائلاً:

أَمَامَكَ فَانْظُرْ أَيَّ نَهْجَيْـنِ تَنْهَـجُ ... طَرِيقَانِ شَتَّى مُسْتَقِيمٌ وَأَعْـوَجُ

ويقول أيضاً:

قَدِّرْ لِرِجْلِكَ قَبْلَ اْلخَطْوِ مَوْضِعَها ... فَمَنْ عَـلاَ زَلَقـاً عَنْ غَرَّةٍ زَلَجَا

(١)انظر الموافقات للشاطبي (٢ / ٣٧).

وتلك القضية هي إنكار المنكر في هذا الزمان، فهل ثم تمانع بين كون الشريعة روحاً ومعنى وبين إيجابها لإنكار المناكير؟

نقول: إن مقصد الشريعة وروحها في إنكار المناكير إنما هو رفع لوائها ونصرة ذويها ودحر المنكرات عن الخلق بأنواعها وشرورها، وعليه فقد شرع الله لرسوله وأمته إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف والخير ونصرة الشريعة ما يحبه الله ورسوله، ورد حقوق العباد والحفاظ على دينهم وأنفسهم ومالهم وأعراضهم.وهذا هو المقصد والروح والمعنى والعلة التي لأجلها شرع إنكار المنكر، فإذا ما استوجب إنكار المنكر ما هو أنكر منه مما يبغضه الله ورسوله وبها يفوت حقوق العباد ومصالحهم فإنه لا يسوغ إنكاره وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله [1] .

ولو قرأت سيرة النبي ﷺ وسيرة صحابته وسلف الأمة من بعدهم رأيت هذه الروح وذلك المقصود هو الأساس الذي عليه وبه يدور الإنكار أو لا.

٣ ـ أوعية القلوب في فهم المقاصد والمعاني:

وهذا هو أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقسم الناس بحسب المعاني وحسب فهمهم لمقاصد الشرع وروح الشريعة وذلك في وصيته لكميل بن زياد قائلاً:

(يا كميل إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها للخير، والناس ثلاثة فعالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل صائح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق، ثم قال: آه! إن هاهنا علماً،وأشار بيده إلى صدره لو أصبحت له حملة بل قد أصبت لَقِناً غير مأمون[2] ... يستعمل آلة الدين للدنيا.. ويستظهر بحجج الله على كتابه، وبنعمه على معاصيه، أو حامل حق لا بصيرة له في إحيائه،ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، لا يدري أين الحق، إن قال

(١)انظر إعلام الموقعين لابن القيم (٤ / ٣)، حيث أصل لهذا المعنى ودافع عن تلك القضية.

(٢)قصد بذلك من يغفل عن المقاصد ويتبع الظواهر النصية دون تعمق وتدبر لمعانيها.. واللقن هو الحافظ دون إعمال فهمه.

الخطأ، وإن أخطأ لم يدر... مشغوف بما لا يدري حقيقته، فهو فتنة لمن فتن لـه، وإن مـن الخير كله من عرفه الله دينه وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف دينه) [(١)].

(١)إعلام الموقعين (٢ / ١٧٦).

تاسعًا:
متى تسكت أقلام بني جلدتنا المعادية للإسلام؟

١ ـ صناعة الخير في جزيرتنا.. قائمة دائمة باقية:

تمضي سفينة الخير مشرعة بالعطاء والبذل والنوال في ماء الكرم وبحر الجود الذي تفجر في أصقاع وبقاع الجزيرة العربية.

فلله سدنة الخير، ولله قافلة الخير ماضية عالية لا يعيقها عائق.ولله در القائل:

رَأَيْتُ الحَقَّ يَعْـرِفُهُ الْكَرِيـمُ　　　لِـصَاحِبِهِ وَيُنْكِرُهُ اللَّئِيـمُ
إِذَا كَانَ الْفَتَى حَسَنًا كَرِيمًـا　　　فَـكُلُّ فعَالِهِ حَسَنٌ كَرِيـمُ

٢ ـ فقاقيع الدمن:

لعل هذا العنوان يشير إلى تلك الحفنة الآثمة من أشباه المفكرين ومتسولي المناصب، وأنصاف الكتبة الذين ينقون نقيق الضفادع، ويطنطنون طنين الذباب منذ فترة طويلة.. ترى علام يطنطنون وفيما ينقون؟!

ليتهم يطنطنون في سبيل حق! أو يعملون على دحر باطل..! ولكن هؤلاء المبتورين عن النقاء طنطنوا ونقوا غضباً وسخطاً على منجزات العمل التطوعي والخيري وما تفتحت له من آفاق واسعة عمت الأيتام والمحتاجين والأرامل والعجزة من كل حدب وصوب،فأغنت بفضل الله من فقر، وأطعمت من جوع،وكست من عري، وجمعت من شتات، وبنت من مهدوم.. وحفرت آباراً وعمرت مدارس.. وهكذا دواليك.

وكيف لا وهذا دأب الإسلام في صورته الاجتماعية المشرقة التي تمثلت في أخلاق رسولنا محمد ﷺ،فكان أجود من الريح المرسلة بالخير، وكان يستر الأرملة ويؤوي المسكين، ويصل القريب، ويعطي ذا الحاجة،ويعين الكل.. ويحمل على الضعيف حتى امتدحه الأصاغر والأكابر، والقاصي والداني بهذا،فيقول عمه أبو طالب في قصيدة

طويلة تصف شمائله، وأهمها العمل الخيري والتطوعي:

وَأَبْيضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ للأَرَامِلِ

ولله در العاقل القائل:

سَابِقْ إِلَى الخَيْرِ وَبَادِرْ بِهِ فَإِنَّ منْ خَلْفكَ مَنْ تَعْلَمُ

وَقَدِّمِ الْخَيْرَ فَكُلُّ امْرِئٍ عَلَى الَّذِي قَدَّمَهُ يُقْدِمُ

٣ ـ نبحات مسعورة وأقلام مأجورة:

ما إن صم آذاننا وأثار فكرنا ما حدث في نيويورك وواشنطن وما تبعه من توفز[١] وتحفز.. حتى ثار أهل الكرامة ممن لم يعرفوها وأهل الشهامة ممن لم يسمعوا بها..! ليشيروا بأصابع السوء والتهمة إلى المظهر الوضاء من الإسلام الاجتماعي، وما يمثله من العمل التطوعي والخيري عموماً، وبأنه كان عاملاً مباشراً أو غير مباشر وراء الإرهاب،وأنه يجب انحساره وتقليمه ووأده في مهده..!

وقد عجبنا كل العجب من هذا الحقد الدفين والقول المسموم الذي انفجر من بحيرات آسنة كدرة ملؤها الحقد والضغينة والحسد على كل مظهر إسلامي.. إنه كيد مبيت بليل.. وما إن حل ظلام الانفجارات حتى راحت تلك الخفافيش تبيح لنفسها الاتهام، وكيل الأكاذيب على العمل الإسلامي الخيري بلا بينة ولا دليل،إلا ما رسخ عندها من حقد دفين وشبهات لا تنهض لدى العقلاء بأقل دليل إلا في ذهن أصحابها،وكأني بالعمل الخيري يخاطبهم:

أَنْتَ امْرُؤٌ قَصُرَتْ عَنْهُ مُرُوءتُهُ إِلاَّ مِنَ الْغِشّ لِلإِخْوَانِ وَالْحَسَدِ

أَإِنْ تَرَانِيَ خَيْراً مِنْكَ تَحْسُدُنِي إِنّ الْفَضِيلَةَ لاَ تَخْلُو منَ الْحَسَدِ

٤ ـ ترى من هم.. ومن يكونون..؟!

أهم من الصهاينة وأذنابهم،أم من حفدة المستشرقين وأتباعهم؟ كلا..!

---

(١)توفز لكذا: تهيأ له، واستوفز: جلس على هيئة كأنه يريد القيام، المعجم الوسيط (وفز).

وهنا تكمن الحسرة وتهطل العبرة، فلو كانوا من أولئك أو هؤلاء لقلنا أعداء يصطادون في عكر الماء ورنق الهواء!!.. وإنما هم للأسف الأسيف والعفو الكسيف من بني جلدتنا،يتكلمون بلساننا من أصحاب القلوب الحجرية، والعواطف اللهيبة، والمشاعر العنقودية، على كل ما هو إسلامي..!! إنهم بحق أهل غواية وعماية وجهل بلا دراية.ولله در القائل فيهم:

مَا بَالُ قَوْمٍ لِئَـامٍ لَيْـسَ عِنْدَهُـمُ ... عَهْـدٌ وَلَيْـسَ لَهُـمْ دِينٌ إِذَا ائْتُمِنُوا

إِنْ يسْمَعُوا رِيبَةً طَارُوا بِهَـا فَرَحًـا ... مِنَّا وَمَا سَمِعُوا مِـنَ صَـالِحٍ دَفَنُـوا

صُـمٌّ إِذَا سَمِعُـوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِـهِ ... وَإِنْ ذُكِـرْتُ بِسُـوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا [(١)]

٥ ـ رب قول وكلمة يقودان إلى قعر الحطمة:

أعود إلى هؤلاء الفقاقيع وإن شئت فقل الفقاعات.. أو الفقعات.. أو الفقاقع.. أو التفاقيع.. أو أهل التفقع أو المفقعين أو المفقوعين،وكلها مسميات جذورها لغوية صحيحة ومولودة تدل في جملتها على صحة أو عبثية القلوب السوداوية والمرارات المفقوعة من تطاول وتعالي المؤسسات الخيرية والتطوعية عالياً في عالم الناس وفي أروقة القلوب حتى صارت قبلة الفقراء والمساكين داخل الكويت وخارجها،وأصبحت ـ بإذن الله وفضله ـ عوناً للملهوفين هنا وهناك..

غير أن هذا الجلال وذاك التطاول لا يعجب أصحاب النقانق والشرانق.. فراحوا يسخرون أقلامهم المأجورة في حملات مسعورة على كل ما هو خيري وتطوعي إسلامي،في محاولة آثمة للنيل من هذه الشموع الوضيئة في درب العمل الإسلامي، ولكن هيهات أن يشم غبار الثرى صفاء الثريا..!! وأن يتناثر التراب على صحائف السحاب..!!

ولنقل لهؤلاء قول سلفهم مأجور اللسان الحطيئة:

دَعِ الْمَكَـارِمَ لاَ تَرْحَـلْ لِبُغْيَتِهَـا ... وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي [(١)]

---

(١)يقال أذن الرجل للقول: أي ألقى سمعه وأصغى بانتباه ويقظة زائدة.

ذلك المخضرم الذي كان دأبه أن يسب أباه، ويسب أمه، ويسب زوجته، وإن عدم من يسبه تلفت في رعونة يسب نفسه حتى قال لها:

أَرَى لِي وَجْهًا قَبَّحَ اللهُ خَلْقَهُ   فَقُبِّحَ مِنْ وَجْهٍ وَقُبِّحَ حَامِلُهْ!

وقد قال لأمه يسبها:

تَنَحّيْ فَاقْعُدِي عَنِّي بَعِيدًا   أَرَاحَ اللهُ مِنْكِ العَالَمِينَا

أَغِرْبَالاً إِذَا اسْتُودِعْتِ سِرًّا   وَكَانُونًا عَلَى المُتَحدِثينَا

وقال لزوجته:

أُطِوُّف مَا أُطَوِّفُ ثُمَّ آوِي   إِلَى بَيْتٍ قَعِيدَتُهُ لَكَاعِ [٢]

ولله درك يا ابن الخطاب لما هممت بقطع لسان هذا المارق - وقد كانت في دينه تهمة- فأين عمر..؟! أنّى لنا بعمر ليقطع ألسنة هذه الحفنة من فقاقيع الدمن التي تطاولت على شعار إسلامي وراحت تخوض فيه من حيث لا تدري، وقد جهلوا أو تجاهلوا وتغابوا وتعاموا عن قول النبي ﷺ:«وإن الرجل ليتفوه بالكلمة لا يلقي بها بالا من سخط الله فيهوي بها في جهنم سبعين خريفاً..» [٣] نسأل الله العافية والستر والعصمة عن زلات اللسان الموبقات.

٦ - هلموا يا قادة الخير فادحضوا خفافيش الدجى:

وجدير بي في مقامي هذا أن أهيب بأهل الخير أن يهبوا للدفاع عن شعارهم ودثارهم من فعل الخيرات وبذل المبرات ضد هذه الحفنة الآثمة.. فإنهم ينقون من قرابة شهرين ضد العمل الخيري والتطوعي.. ثم لما تجاوز أهل الحق وقادة الخير عنهم كأني بهم انتفحوا واستأسدوا واستنسروا مثلما قال القائل:

---

(١)أى اقعد فى بيتك أيها الخانع،فأنت لست أهلا للمكارم وغيرك يطعمك ويكسوك.وهنا استعمل اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول... فانتبه.

(٢)اللكاع: هى المرأة المتناهية في الخبث.

(٣)أخرجه البخاري (٦٤٧٨)، والترمذي (٢٣١٤)، وابن ماجة (٣٩٧٠)، وابن حبان (٥٧٠٦)، ومالك (٢/ ٩٨٥)، وأحمد (٢/ ٣٣٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

إِنَّ ٱلْبُغَاثَ بِأَرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ[(١)]

أو قول الآخر: «لقد استأسد الحمل بعدما استنوق الجمل» وقد وهموا وأخطأوا.. وتجاوزوا الحدود وفتحوا على أنفسهم ما لا قبل لهم به.. في غيبة رد أهل الحق عنهم عاملين بقول من قال:

وَلَقَدْ أَمُرُّ على اللَّئِيم يَسُبُّني فَمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ لاَ يَعْنِيني

واعتباراً بقول الآخر:

إِذاَ نَطَقَ السَّفِيهُ فَلاَ تُجِبْهُ فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابَتِهِ السُّكُوتُ

فَإِنْ كَلَّمْتَهُ فَرَّجْتَ عَنْهُ وَإِنْ تَارَكْتَهُ كَمَداً يمُوتُ

فلا بد للحق من أنصار.. ولا بد من التفاتة كل حين بالحق والعدل وبما أوصى الله وبما يقبله العرف الاجتماعي والقانون القائم..!

ولله در القائل:

لاَ تَقْطَعن ذَنَبَ الأَفْعَى وَتَتْرُكْهَا إِنْ كُنْتَ شَهْمًا فَأَتْبِعْ رَأْسَهَا الذَّنَبَا

فهؤلاء سلفنا الأوائل من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية قد أقام به الحجة في كتابه: «الصارم المسلول على شاتم الرسول» فقد دابرهم،ونحر باطلهم،وأعاد الله به راية وقار الرسول علياء شماء وله:«منهاج السنة» وله:«الفرقان».وهذا ابن القيم تلميذه له: «الصواعق المرسلة» صعق بها أهل الباطل فسحقهم.وهذا ابن حجر الهيثمي له:«الصواعق المحرقة» وهذا ابن العربي له: «العواصم» كلها سيوف بتارة أقام الله بها منابر الحق وهدم بها أركان الباطل. وهذا الإمام الغزالي لما نبتت في عصره نبتة الفلاسفة وقامت لهم راية ملؤها الفساد والغواية كتب لهم «التهافت» فتهافتوا وتساقطوا كالعصف المأكول.. حتى إن ابن رشد في تهافت التهافت لم ينله إلا التهافت وهكذا كان الحق واندحر الباطل.. وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً رحمه الله يأتي بنياق المناطقة في عصره من القواعد،إذ ذهبوا يتمنطقون ويتزندقون مسرورين بأذنابهم ومتهللين

(١)يعني أن البغاث ـ وهو الطائر الصغير ـ يصير نسراً في غيبة من يرده عن ذلك.

بتركيباتهم،فهب ابن تيمية داحضاً لهم في «نقض المنطق» ومبيناً أنه لا يستفيد منه الذكي ولا ينتفع به البليد وأن في كتاب الله غنى لمن اغتنى.

فانظموا ركابكم يا أهل الحق وانتهجوا سنن أسلافكم السابقين وقدوا دابر هذه الحفنة أشباه المتفلسفة وأنصاف المفكرين.

وهلموا واستفيقوا، ولا عليكم أن خوضوا في الردود ودق حجج هاتيه الفقاعات أو تشيروا إليها فرب إشارة خير من عبارة.. ولا يضيع حق وراءه مطالب أبداً.. اللهم قد بلغت.. اللهم فاشهد.

٧ ـ صيحة في فقاعة:

ولتعلم هذه الحفنة الدمنة الفقعاء أن ما ارتكبوه من إثم وما اختطفوه من رسم لجدير أن يمحقها ويقطع دابرها.. وكيف لا وقد:

١ـ تعدوا على قيمة إسلامية وضيئة هي من شرع الله ومن محامد دينه ألا وهي فعل الخيرات وبذل المعروف ونشر البر والله تعالى يقول: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾[1].

وكما ترون فهذه الآيات تحذر أشد تحذير وتقرع القلوب والعقول بشر وعيد لمن يمنع الماعون، ومن لا يحض على طعام المسكين، وأنذرتهم بالويل والثبور والخسران.. فما بالك بمن يعلنها حرباً على العمل التطوعي الخيري ويشتهر به ويدعو لاجتثاثه في هذه الحقبة الحرجة من الهجوم العالمي على المؤسسات التطوعية في العالم كله..!!

٢ـ هاجموا قيمة وطنية عرف بها أهل الكويت منذ نشأتها،حيث إن شعب الكويت محب للخيرات ومشهور بالمبرات،وهذه أوقافه خالدة شاهدة بذلك،وهذه جمعياته الخيرية بفروعها في كل العالم تشهد بالعون والدعم الإنساني لكل المحتاجين..بما يرفع من قيمتنا الوطنية ويعزز دور الكويت الخيري على كل المجالات، حتى إنها اختيرت

(١)الماعون: ١ ـ ٧.

بالإجماع في اجتماع وزراء الدول الإسلامية في جاكرتا سنة ٦٩٩١م كمنسق عام لقضايا الوقف الإسلامي على مستوى الدول الإسلامية،وما ذلك إلا لسبقها في المجال الخيري والتطوعي.

غير أن هاتيك الفقاعات لا زالت يكثر زبدها، ويعظم خبثها حتى حان قطافها، والرد عليها ودحر تشكيكها.. ووالله الذي لا إله إلا هو لولا أنني لا أريد أن أغير من نهجي.. أو أن أتنحى عن طريقتي في التربية والتحليل والتأصيل وتكوين الشباب والأخذ بيد العامة والخاصة على دروب الدين في منهجه المستقيم متبعين معاً قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾[2] وأمثال هذه الآيات الكثيرة.. لولا هذا النهج لالتفت إليهم وأكرعتهم من كؤوسهم المسمومة ولجلبت عليهم أنا وأهل الخير والبر والعلم والفضل بخيلنا ورجلنا حتى نجتث بإذن الله شأفتهم، وندحض فعالهم وفقاقيعهم ونقد دابرهم.. فلا تسمع لهم ركزا ولا ينعقد لهم أمر، حتى يخرج كليب من قبره..! ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[3] والحمد لله كويتنا الغراء لا زالت زاخرة عامرة بمن هو كفيل بردع هذه الصفحة بأسمائهم.ولا أبالغ إن قلت بل الجريدة كلها وذلك إن أتيت على ذكرهم جميعاً..

وهناك أصحاب الحناجر الرنانة والكلمة القوية ممن تهتز لهم أعواد المنابر إذا خطبوا من هو كفيل بدحرهم ودحضهم وتمزيق نبتتهم الخبيثة في معاداة الخير وأهله إلى غير رجعة..!

وإني لأهيب بنفسي وإخواني أن ينتبهوا جيداً إلى هذه الفقاقيع الدمنة وأن يحرصوا على حين على بقر نتنها ليفوح خبثها عليهم.. وتذهب غثاء إلى غير رجعة.

---

(١)يوسف: ١٠٨.

(٢)آل عمران: ١٥٩.

(٣)يوسف: ٢١.

٣ـ أنهم قذفوا العمل الخيري والتطوعي واتهموا أهله عدواً وبغياً بغير حق،فراحوا يغتابون ويكيلون الاتهامات تلو الاتهامات ببضاعة مزجاة قوامها الغيبة والافتراء ومحض الباطل.. مشوهين صورة العمل الخيري وأنه يدعم الإرهاب ويخادنه..!!

وتلك وحدها جريمة جديرة أن تتبعها دعوة قضائية تلاحق فيها هذه الحفنة الدمنة، والحمد لله هناك من المحامين أهل الحق الكثيرين والجديرين برفع تلك الدعاوى والاقتصاص من هؤلاء المبطلين،بل هناك من الشباب الآلاف المؤلفة الذين تتحرق قلوبهم ألماً؛ لأنهم لا يجدون ما ينصرون به إخوانهم في الدين، وإن وُهبوا قلماً فلا يجدون صحيفة، وإن وجدوا كلمة حق فلا يجدون معيناً، وإن وجدوا خطاباً للدفاع لم يجدوا منبراً.. وهكذا هم في عثار،فهم يصرخون في الصحو والنوم حزناً ألا يجدون ما ينفقون ولا ما به عن الدين يدافعون.والحمدلله هناك المتمكنون من أصحاب الأقلام والحناجر ممن يقومون عنهم بالواجب العيني ممن أشرت إليهم آنفاً..!

٤ـ أنهم ولغوا فيما قد يجلب اللعنة وسخط الله، ومن ذا الذي له قبل بمحادة الله في دحض العمل الإسلامي الاجتماعي.. خاب وخسر.. وهيص وانكسر.. وتعس وبئس وإذا شيك فلا انتقش..!! وقد علمنا أن الله لعن في الخمر عشراً (تقريباً) شاربها وعاصرها وحاملها وبائعها ومناولها وشاهدها والراضي عنها وآكل ثمنها ومسوقها.. إلخ، وكذلك في الربا آكله وكاتبه وشاهده.. إلخ

وليس ببعيد أن يلعن من يسعى لوأد العمل الخيري ومعاديه، فيلعن محاربه والمشهر به ومعاونه.. والقانع به..والساكت عليه..

٨ ـ قد يبطل العجب.. إذا عرف السبب:

تالله لهو من مثيرات العجب، ومن دواعي الاستيقاف والاستخبار هذا الموقف المشبوه الملوث بشوائب دنيئة ولوثات فكرية وبنية مستغربة موغلة في معاداة كل ما هو إسلامي وديني، ولا زلنا مشدوهين وفي حيرة من هذه الحفنة المبطلة التي تتربص بالفكر والعمل الإسلامي كل حين وعلى كافة المستويات!! والتي يروعها ويفزعها أن

العمل الإسلامي التطوعي هو الوحيد الذي استطاع خلاله الإسلاميون أن يحشدوا المجتمع بكامله. فهذه جموع المتعاونين والمتبرعين بدءاً من رئيس الدولة وانتهاء بعامل النظافة ومروراً بالأطفال والعجزة،اجتمعوا على تحقيق قول النبي ﷺ:«اتقوا النار ولو بشق تمرة»[1].

ولله در القائل:

لَيْسَ لِلْحَاسِدِ إِلاَّ مَا حَسَدْ وَلَهُ الْبغضَاءُ مِنْ كُلِّ أَحَدْ
وَأَرَى الوِحْدَةَ خَيْراً لِلْفَتَى مِنْ جِلِيسِ السُّوءِ فَانهَضْ إِنْ قَعَدْ

وكأني بهم أيضاً سعداء مغبوطين من أن يروا أهل الدعوة في ضيق عيش ودعة يستجدون ويشحذون فيصيرون مهملاً ودراويش مقعدين.. يطوفون الطرقات ويتلهى بهم العامة والصبية..!

ولكنهم قالوا قديماً «إذا عرف السبب بطل العجب».

ولله در القائل:

مَنْ لَا يَزَلْ مُتعَجِّباً مِنْ كُلِّ مَا تَأْتِي بِه الأَيَّامُ طَالَ تَعَجُّبُهْ

ولقد رحت أتحسس هذه الأسباب وراء تلك الحملة المحمومة على العمل الإسلامي والخيري، فلم أجد إلا ما سأذكره من تلك الأسباب الظاهرة لدي والله أعلم بالبواطن، وقد يكون ما خفي أعظم.

أولاً: البنية الفكرية (المستغربة):

وهي تلك العقول التي لا تعرف إلا ظاهر حضارة الغرب ذات البريق المعماري، والزعيق التقني، والتطاول المادي،فراحوا يؤمنون بها وبكل مأثوراتها ظاهراً أو باطناً.. ويوالون لها ويعادون عليها فولوا قبلتهم شطر الغرب وحضارته المادية.. فليتهم عرفوها ظاهراً وباطناً واستوعبوها قلباً وقالباً، وإنما هو انتساب إلى غير نسب، وتشبث إلى غير سبب، وتشبع بما لم يعط.. وتبعية على غير بينة وروية!!!

(١)حديث صحيح سبق تخريجه.

وهذه الفئة تفاعلت مع معطيات الانبهار بكل ما هو غربي فراحوا يتقولبون في قوالب «علمانية لا دينية» تردد ما يزعمه المستشرقون بلا تبصر،فهم أبواق لهم وهم صدى لما يكتب عن الإسلام والمسلمين في صحافة الغرب، وهم على ما قال القائل:

وَمَا أَنَا إلاَّ مِنْ غُزَيَّةَ إِنْ غَوَتْ غَوِيتُ وإِنْ تَرْشُدْ غُزَيَّةَ أَرْشُدِ [1]

ثانياً: اختلاط المفاهيم العقدية والجهل بالحقائق الإسلامية:

وهذا جهل بين ومطبق لدى هذه الحفنة المستغربة،فليتهم لما تعالموا وتعلمنوا اجتهدوا في فهم حقائق الدين الذين يُنْسَبون إليه ويحسبون في الجملة عليه، ولكنهم فقهوا كل بريق غربي وجهلوا حقيقة ما هو إسلامي وإني لأخاف عليهم الدخول تحت قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾[2]، وأخاطبهم بقول القائل:

فَإِنْ كُنْتَ لاَ تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ وَإِن كُنْتَ تَدْري فَالُمصِيبَةُ أَعَظْمُ

ثالثاً: الجهل بمفهوم الولاء والبراء:

وهو من أصول الإيمان ومن ثوابت العقيدة؛حيث إن المسلم الحق هو الذي يوالي على الجملة أهل الإيمان والإسلام، فيحبهم وينصرهم ويؤازرهم، ويعادي ويبرأ من أهل العصيان والكفران،فيبغض كفرهم ومعاصيهم ولا يعينهم عليها،وهذا ما عبرت عنه الآيات والأحاديث قال تعالى:﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ ..﴾ [4].

---

(١)غزية: قبيلة من قبائل العرب.والأبيات تبين تبعية صاحبها وانقياده لغيره بالعقل منه.

(٢)الروم:٧.

(٣)التوبة:٧١.

(٤) المجادلة:٢٢.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»[١]، «ومن أحب قوماً حشر معهم»[٢] وقال أيضاً «يحشر المرء مع من أحب»[٣] وقد عرف في الإسلام أن الحب في الله والبغض في الله من أوثق عرى الإيمان ولله در ابن عباس عندما قال: «وهل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله»!

والولاء والبراء من الإيمان بمكان،إذ قد يخرج فاقده من رحابة الدين إلى غيره من مدارج.. نسأل الله العصمة والعافية..!

ومن أهمية الولاء والبراء أن المرء قد يبالغ في البعد عن المعاصي الظاهرة من مثل شرب الخمر والزنى،إلا أنه يلقي بنفسه في التهلكة في موالاة أعداء الله ومحادة أولياء الله وهذا أخطر بكثير من تلك المعاصي الظاهرة على حرمتها وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[٤].

فليحذر أولئك ولينتبهوا وليستفيقوا قبل تجاوز الخطوط الشرعية الحمراء..

وليحذروا من الانحدار في مستنقع الإسلام الأمريكي أو «الإسلام المودرن» إسلام المباني دون إسلام المعاني فهذا من الخطورة بمكان..!

رابعاً: الحقد الدفين والحسد المكين على الصحوة الإسلامية وثمارها:

وهذا الحقد يظهر جلياً في سلوك هذه الحفنة من ذوي الأقلام المسعورة في تسويدها بياض العمل الإسلامي بما تخطه من أعمدة في صحف ومجلات فتحت لهم أبواباً وأباحت لهم تسويد صفحاتها...

فهم لا ينفكون في تحقير كل رمز أو مظهر إسلامي والعمل على وأده في مهده، مع الحرص الخبيث على الاصطياد في الماء العكر،وهذا دأب بوم وغربان الفكر.. وإلا بالله

---

(١)أخرجه أبو داود (٤٠٣١)، وأحمد (٢/ ٥٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٢)المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ١٨) عقب رقم (٤٢٩٤) جزمًا بلا سند.

(٣)أخرجه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠)، عن عبد الله بن مسعود دون لفظة: «يحشر».

(٤)المجادلة: ٢٠.

كيف يفسرون هجمتهم الشعواء السوداء ودعايتهم الظلماء على العمل الإسلامي والتطوعي والخيري..؟!

زعامات الأذناب.. محسورة مغمورة غير مسموعة الكلمة لدى أهل القوامة بإذن الله.

لا زلنا نتابع الحديث عن تلك الحفنة النابتة وما أكثرها في كل عصر ومصر،فقد سمعنا كثيراً عن زمرة السوقة من دنايا القوم وسقطهم ممن إذا قالوا أعجموا، وإن كتبوا أبهموا، وإن فضحوا مدحوا،وإن أساؤوا أحسنوا.. ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [1] فهم يبذلون الجهد الجهيد، ويسخرون النفيس والقديد، في سبيل هدف مبتغى وسعي مرتجى، إلا أن الله يقلب سعيهم وينقض غزلهم، ويحل مبرمهم وهكذا دربهم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا..﴾ [2].

ولا أظن هذه الحفنة المتعاملة إلا ضرباً من هذه الضروب المهمة كالواو في «عمرو»، أو كالنقط في غير نقط، أو كالتذييل في العروض الذي يفسد النغم وينقص الوزن..

وإني لأحمد الله لأهل الإسلام أنهم لا يرعون آذانهم لهذه الحفنات من الفقاعات الدمنة،وأنهم ماضون على درب وسنن الشريعة من إعلان الخير، وبذل البر، ونصرة العمل الخيري والتطوعي،وأنهم ساعون في توثيق عرف آبائنا وأجدادنا المسلمين والكويتيين من السابقين بالخيرات والواقفين والساعين بالمبرات،وعلى رأسهم صاحب مسيرة الخير أميرنا حفظه الله.

وفي الختام نطمع أن يهب كل إسلامي مناصر للحق ضد تلك النبتة الخبيثة ليذهبوا بها أدراج الرياح؛فالساكت عن الحق شيطان أخرس.. نسأل الله السلامة والستر والعافية.

اللهم قد بلغت.. اللهم فاشهد..!!

---

(١)النحل: ٩٢.

(٢)النور: ٣٩.

عاشرًا:
الحرية الشرعية

الحرية الشرعية هي الحرية التي يرسم الشرع حدودها، ويوضح معالمها وآثارها، فهي حرية منضبطة بضوابط الشرع، وليست لنوازع الهوى، وهي الحرية التي ظهرت في عصر المسلمين الأول، فحيث كان يسكن الرسول ﷺ والمؤمنون معه في المدينة كانت الحرية متجلية في أسمى صورة، كتب الرسول ﷺ الوثيقة التي وضحت معالم الحرية لليهود وللمسلمين وللطوائف الأخرى.. ولولا غدر اليهود وبغيهم وحسدهم لظلوا يعيشون في المدينة ولكنهم ـ كدأبهم وطبعهم ـ لم يوفوا بالعهود ولا بالمواثيق، فأخرجوا من المدينة جزاء بغيهم ونقضهم ما عاهدوا الرسول عليه.

ولقد بقيت الطوائف غير المسلمة ـ في بلاد الإسلام ـ متمتعة بكامل حقوقها في الدين والتملك والتصرف والمعاملة، لأن الحرية المكفولة لهم ليست منحة من بشر، ولكنها تشريع من الله، لا مكان فيه للفوضى، ولا مجال فيه للاضطراب، وليست الحرية التي يدعيها غير المسلمين كذلك، إذ إن عنصر الفوضى والإباحية التي لا ضابط لها متغلغل في أعماقها، مصاحب لوجودها، وهذا ما جعل بعض العلماء في العصر الأخير يقف من هذه الحرية المضطربة موقف المستريب المتشكك في ثمرتها.

لقد التقى الشيخ نجيب المطيعي ـ أحد العلماء البارزين في العصر الحديث ـ مع الأستاذ سعيد النورسي في إسطنبول، فسأله الشيخ المطيعي: ما قولك عن الحرية الموجودة في الدولة العثمانية وعن المدينة الأوروبية؟.

فأجابه النورسي: إن الدولة العثمانية حبلى الآن بجنين أوربا، وستلد يوما حكومة مثلها، أما أوربا فهي حاملة بالإسلام وستلد يوما ما [1].

---

(١) رجل القدر: ص: ٣٨.

وهذه الإجابة تدل على إيماءتين: إحداهما استشفاف ما سيصيب العالم الإسلامي من نكبات ما يطلق عليه «حرية الغرب» وهو ما ينبغي الحذر منه، والأخرى: الإرهاص بما سيكون من شأن للإسلام والمسلمين في مستقبل الأيام، وهذا ما حدث بعضه الآن في أمريكا، مما جعل الرئيس الامريكي يحتفل بعيد الفطر مع عدد من المسلمين في البيت الأبيض، وجعل الصلاة مسموحا بها للمسلمين في الجيش الأمريكي، وتم تعيين بعض المرشدين الدينيين لهم في الجيش.

ويعتبر الإسلام ثاني أكبر ديانة ـ الآن ـ في فرنسا، إذ يبلغ عدد المسلمين فيها أربعة ملايين شخص.

أما ما أصاب العالم الإسلامي من جراء هذه «الفوضى الغربية» التي يحلو للبعض أن يسميها «الحرية» فشيئان ظاهران:

١ـ موجة السفور والتبرج وما لحق بها من عروض أزياء واختلاط وما صحبها من دعوة لتحرير المرأة، ومشاركتها الرجل في الأعمال والسلوك والتصرفات.

٢ـ انتشار بعض الأفكار الإلحادية التي تظهر من آن لآخر في بعض البلدان الإسلامية على يد بعض الذين اغتربت أفكارهم، فتجد لهم كتابا أو مقالات أو رسوما يطعنون بها الدين، ويحاولون إلحاق الأذى بالله وبرسوله وبالمؤمنين، وما كان هذا أو ذاك إلا تقليدا للغرب وللنمط السائد فيه ومحاولة التخلق ببعض أخلاقه المتسببة، المتسترة باسم الحرية، مما جعل كثيرا من العلماء يتصدون لهذه الدعوة التدميرية التي تهدف إلى طمس هوية المسلم، مفرقين في الوقت نفسه بين ضرورة اقتباس العلوم التي تغذي التقدم، وضرورة الابتعاد عن أخذ شيء من الجوانب السلبية للحياة الاجتماعية الغربية مع وجود وجوب التصدي للموجة الإلحادية، وبيان زيفها والكشف عن أهدافها وغايتها المستورة، بل وبعض وسائلها الخفية، وقد أخذ بعض العلماء الميثاق على أنفسهم ليبيننه للناس، بقول أحد العلماء: فالخدمة التي يستطيع أداءها شخص مثلي هي تقديم النصيحة للأمة وللدولة، ولا قيمة لهذه النصيحة إلا بحسن تأثيرها،

ولا يحسن تأثيرها إلا عندما تكون مخلصة خالية من شوائب الطمع، عن المنافع الشخصية [(١)].

وصحب هذه الموجة الإلحادية عوالق تدعو إلى العلمانية بدعوى «أن الغرب لم يتقدم إلا عندما مزق سيطرة الكنسية وسيطرة رجال الدين المسيحيين» وكانت هذه الدعوة إلى العلمانية دعوة مبكرة لم يتركها العلماء، بل تصدوا لها وبينوا أن الإسلام ليس فيه رجال دين بالمفهوم الغربي المسيحي، فليس عندنا رهبان، ولكن عندنا مرشدون ودالون على الطريق يعرفون أن الإسلام نظام كامل للحياة «إذ تكفل للذين يفتخرون بالانتساب إليه بوضع نظام قائم على العقل والمنطق لحياتهم الدنيوية والأخروية ووضع الأحكام لذلك»[(٢)].

«إن الحرية التي كفلها الدين لا تقوم إلا على الحق وعلى الصدق والمحبة، بحيث تتلاشى فيه الامتيازات غير الطبيعية لفئة على أخرى من بين الناس.

ولا يخدعن أحدا أن يرتدي التحلل الأخلاقي أو التخلي عن الآداب الدينية رداء الحرية، لأن الافتراء سرعان ما يظهر أمره،والمكر والكيد لا يخفي سره كثيراً، ولو كان الإيمان بالتمني لفعل العلماء العاملون ما قاله الشاعر حين قال:

وَلَوْلاَ تَكَالِيفُ الْعُلاَ وَمَقَاصِدٌ غَوَالٍ وَأَعْقَابُ الأَحَادِيثِ فِي غَدي
لأَعْطَيْتُ نَفْسِي فِي التَّخَلِي مرَادَهَا وذَاكَ مُرَادِي مُذْ نَشَأتُ وَمَقْصَدي

إن الحرية الشرعية تدفع المسلم لأن يعتز بكرامته الإنسانية، فليس هو عبدا إلا لله وحده، فهي من خصائص الإيمان لا يذوق ثمرتها إلا من عرف الإيمان والالتزام حق المعرفة، وكل من أسلم وجهه لله حسن عمله، له من الحرية الشرعية نصيب، بقدر ما في قلبه من إيمان وما في عمله من إحسان.

(١)رجل القدر، ص: ٣٦ .

(٢)رجل القدر، ص: ٤١ .

حادي عشر:
جهود لا تضيع

«الذهب يزيد بريقا كلما طرق، فلا ترضخ لما يعتريك من مصاعب، فكل من سار على الدرب وصل، وفي نهاية المسار ستتذوق الرضا والنجاح، إن المصاعب خير معين لك إذا استخدمتها لتجديد العزم والثبات على الطريق الذي اخترته» [(١)].

التراجع عن الطريق ـ أمام المصاعب التي تبدو فيه ـ خذلان وضعف وتأخر، ومحاولة السير وسط الأشواك تعلم الإنسان كيف يتقبلها، وكيف يتحمل بعضها إن أصابه، فيتقوى على السير من غير خوف، ويأمن الوقوع فيها في المستقبل.

إن بعض الأمراض الخطيرة التي يخشى الإنسان من فتكها وانتشارها يحاول الأطباء أن يحقنوا الناس بشيء منها، ليأخذ الجسم طابع المقاومة وهيئة الاستنفار، حتى إذا ما أصيب بها كان مستعدا لملاقاتها، قادرا على التغلب عليها.

وهكذا يجب أن يتلقى الناس المصاعب ويواجهوها، عالمين أنهم لا مهرب لهم منها ولا مفر من ملاقاتها، لأنها بعض الابتلاء الذي يبتلي الله به عباده، ليعلم الشاكرين ويعلم الصابرين.

وطريق الدعوة ليس مفروشا بالورود، وليس بحمد الله مملوءًا بالأشواك، وإنما فيه من هذا وذاك، واليسر فيه لا يخدعنا عما يمكن أن يصيبنا من مشاق، والعسر فيه لا يقعدنا، والشدة لا تزيد المخلصين إلا عملا وجهدا وتحملا وبذلا.

وإذا كان بعض أصحاب المشروع الإسلامي يلقون الأذى في بعض البلاد، فإنهم يتحملون ذلك راضين، لأنهم يسيرون على خطى الأنبياء، والأنبياء أشد الناس بلاء، ومن سنن الله في كونه أن التمكين لا يكون إلا بعد التمحيص والابتلاء: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ

(١)فن الدراسة والإيصال، ص: ٦٦ .

أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [1].

وقد كان من مهمة الأنبياء أن يعملوا على تثبيت أتباعهم ويدعوا أناسا جددا للانضمام إليهم، وتكثير عددهم، حتى يكون أهل الحق قادرين على تحدي الباطل ومواجهته. وأصحاب المشروع الإسلامي عليهم أن يقوموا بالأمرين معا: تثبيت الأتباع، وتكثير الأشياع، وألا يتكاسلوا أو يتوانوا في هذين الأمرين، وقد كان رسول الله ﷺ وهو القدوة والأسوة يلقى التثبيت من ربه حينا وراء حين: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢ ﴾[2]. فكان بعض الحكمة في نزول القرآن منجما تثبيت فؤاد الرسول ﷺ، وهل التثبيت يكون إلا حيث يكون الأذى والتعب والمشقة ومكابدة الأعداء، والصبر على البلاء وغير ذلك من ألوان الشدائد والمصاعب؟ فكل من سار في طريق الدعوة محتاج إلى التثبيت سواء أكان مسؤولا أم غير مسؤول، ثم يبقى واجب هؤلاء أن ينقلوا الدعوة إلى الآخرين، وأن ينشروا نور الله في العالمين.

والهمة في هذا الطريق لا غنى عنها، فبغيرها يكون الكسل صاحبا، والعجز صديقا، وهي التي تحول بينهما، وتمنع وصولهما للإنسان، فيظل نشيطا، طيب النفس يجود على غيره بما أعطاه الله من سعة الوقت وبسطة الرزق.

الهمة إذن والعمل المتواصلان سبيلان واضحان للوصول إلى التثبيت المطلوب الذي إن طال أمده أو قصر أجله، سيصل إلى الغاية التي نسعى نحوها، ونريد تحقيقها وهي إقامة شرع الله في الأرض، وإظهار دين الله على الدين كله:﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ﴾ [3] ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾[4].

على أن العاملين لا ينظرون إلى هذا الهدف على أنه الغاية الكبرى التي يسعون

---

(١)العنكبوت: ٢، ٣.

(٢)الفرقان: ٣٢.

(٣)الروم:٤، ٥.

(٤)يوسف: ٢١.

نحوها، فهم ليسوا طلاب دنيا، ولم يكن عملهم لدنيا يصيبونها أو نساء يتزوجونهن، وإنما غايتهم وهدفهم ابتغاء مرضاة الله وطلب مثوبته، فإن حققوا ذلك فليس يعنيهم شيء بعده، وفي هذا عزاء للعاملين، الذين لا يرون ثمرة جهودهم كاملة أمامهم في حياتهم الدنيا،وهو عزاء غير موجود عند أي دعاة آخرين يولون ظهورهم للإسلام، ويقبلون على المناهج الأرضية الأخرى، فهؤلاء إن لم يروا ثمرة عملهم في دنياهم فأين يرونها؟ إن معظم هؤلاء من الذين عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا،ولذا فهم يتحولون من الشرق إلى الغرب ويتبدلون ويغيرون اتجاهاتهم، وقد يأخذون مناهج غير مناهجهم لأنها تدر عليهم ربحا دنيويا، فإن ضاع هذا الربح الدنيوي من بين أيديهم أو لم يظفروا به فقد خسروا خسرانا مبينا. فكيف يكون لهؤلاء ثبات على مبدأ أو منهج؟ والأمر مختلف عند دعاة المسلمين الذين يعلمون يقينا أنهم إن فاتهم حظ الدنيا فلن يفوتهم حظ الآخرة، ولذا فهم لا يتحولون ولا يتغيرون، ولا تغرهم الحياة الدنيا ولا يغرنهم بالله الغرور.

ثاني عشر
قوة الدين... كيف نستثمرها؟

التفريغ الداخلي للإنسان المسلم بزعزعة إيمانه، ومحاولة تغيير قناعته،والعمل على هز القيم الإيمانية في نفسه، والعمل على إبعاده عن مصدر النور والهدى والخير والرشاد، تحقيقاً لوصايا السياسيين الغربيين، وفي مقدمتهم جلادستون وزير المستعمرات البريطانية (١٨٠٩ـ١٨٩٨م) الذي قال في مجلس النواب البريطاني بعد أن حمل مصحفاً في يده : «مادام هذا القرآن موجوداً في يد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم، فإما أن نأخذه من يد المسلمين،وإما أن نقطع صلته بهم» ثم تأتي خطوة أخرى بعد ذلك هي زحزحة هذا الإنسان المسلم عما تمسك به ونشأ عليه، بحيث يحاول تقليد غير المسلمين في كثير من عاداتهم وتقاليدهم والسير على أخلاقهم والإيمان بقيمهم في الحياة، هذا كله قتل لروح الإنسان، ليسهل قياده بعد ذلك في دروب الظلام، ويسهل قطعه عن معاني الآخرة وعن العمل من أجل تحقيق أجرها وثوابها، فيصبح همه الدنيا .

والمسلم الذي يفعل ذلك لا يستطيع أن يجاري غير المسلمين في عنايتهم بالدنيا وشؤونها، لما لهم من باع طويل وخبرة تامة ودراية بأحوالها وانقطاع إليها، وعدم التفكير فيما وراءها، وهنا يشعر بأن لغيره عليه الفضل فيخزى، ويستسلم ولا يقاوم منكراً ولا يأمر بمعروف، وتلك جناية يرتكبها المرء في حق نفسه، وترتكبها الأمة في حق نفسها وحق أبنائها، إنه قتل معنوي لروحها حين تترك ما في يدها من النور والهدى، وحين تطفئ مصباح الإيمان أو تحجبه، لتخوض في الظلام والأوحال التي يخوض فيها الآخرون .

وهذا القتل المعنوي لروح الأمة هو ما خطط له غير المسلمين، وهو من أقوى

الأسباب الدافعة لخلق حاجز قوي من الحماية والمقاومة يتمثل في الحركة الإسلامية المعاصرة التي رأت الزحف التدميري الغربي الممتد إلى بلاد الإسلام، بحيث لا يهدد فقط أمنها وسلامها، بل يهدد كيانها ووجودها، فقامت جماعات إسلامية هنا وهناك تحاول أن ترد للفرد اعتباره، وتحاول أن ترد للأمة شخصيتها، وتعمل على إيقاظ العزة فيها والكرامة في أبنائها بتنبيههم إلى ما بين أيديهم من القوة المعنوية (قوة الدين) التي لا يجدها ولا يعرفها أي فريق آخر .

وواجب الحركة الإسلامية إبراز الوجه الصحيح لهذه القوة الدينية في جميع الوجوه، لأن كل ما يشغل الإنسان المسلم من شؤون حياته ومعاده داخل في الإطار الديني الإسلامي، الذي لا يشذ عن حكمه شيء، فالله سبحانه قال :﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [1] فلا صحة لمدع أن شيئا من حياة المسلم يدخل في اختصاص قيصر؛ لأن كل حياته (المسلم) تدخل في اختصاص الله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [2] .

والحركة الإسلامية وقد تبوأت مكانها فوق الأرض، ينبغي عليها أن تُعنى كل العناية بركيزتين :

١ـ الإيمان العميق الذي لا تقوم قوة بدونه، إذ هو أساس كل قوة دافعة الى الحركة والنشاط والهمة،فبه تتغير النفوس من هزالها إلى قوتها، فيغير الله حالها، ويزيدها تمكيناً،فالله ـ سبحانه ـ لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم من العجز والوهن والخوف والجبن وغير ذلك من أمراض القلوب والأبدان التي تصيب الأمم، فتجعلها تشعر بالضعف والخور، فلا تحسن بناء، ولا ترفع قواعد.

٢ـ العلم المادي المتشعب الذي أصبح روح العصر، وغزا جميع الميادين، بحيث لا يخلو منه ميدان في البر أو في البحر أو في الجو؛لأن «مقام الخلافة لا ينحصر في إقامة

(١)النحل: ٨٩.

(٢)الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

شعائر صلاة الجمعة، فكما أن للخلافة قدرة وقوة معنوية، فيجب أن تكون لها القدرة المادية التي تكفل مصالح الأمة المحمدية في أقطار الأرض جميعاً »[1] .

وهل تتحقق مصالح الأمة المحمدية في أقطار الأرض جميعاً في ظل التخلف العلمي الطاغي في بلاد المسلمين ؟

إن في الأمة قدرات هائلة عقلية وفكرية ومادية، ولكنها مبعثرة مفرقة، غير متكاملة ولا متعاونة، بل إنها قد تتضارب وتتناقض في بعض الأحيان، وعلى الحركة الإسلامية أن تبذل ما تستطيع في سبيل توحيد الجهود وتعاونها وتكاملها، ولو في ميدان واحد من ميادين الحياة المفتوحة على مصراعيها، والتي لا تمنع يد الخير والعطاء حين تمتد إليها، ولو بذلت ـ بصدق ـ بعض الجهود المخلصة على المستوى الشعبي في سبيل القضاء ـ مثلا ـ على الأمية المتمكنة من كثير من الناس لأمكن بعد بضع سنين حصرها، وتضييق نطاقها في سبيل الخلاص من شرورها في الأمة الإسلامية .

ولو تعاون بعض الصادقين من المسلمين المخلصين في سبيل إيجاد قوة عصرية تحمي أمة الإسلام من أعدائها، وتردعهم عن محاولة انتزاع أرضها، وفرض السطوة على مقدراتها لأمكنهم أن يحققوا ما فيه الخير للأمة كلها .

إن الجهود القليلة المجمعة تثمر وتغني، والجهود الكثيرة المبعثرة لا تفيد شيئاً يذكر في عالم اليوم الذي تكدست فيه الأسلحة المادية في يد غير المسلمين الذين لا يكفون أيديهم عن أن تصنع كل ما يغيظ المسلمين.

فهل نصنع بعض ما يأمر به الدين لصيانة كرامة المسلمين؟ .

---

(١)رجل القدر.، ص:٣٠ . أورخان محمد على.

ثالث عشر:
سنن الله في هذه الدنيا ماضية حتماً

سنن الله في كونه لا تتبدل ولا تتخلف؛ فالثبات طابعها، والاستمرارية دأبها، ولذا فإن تعامل البشر مع هذه السنن والنواميس قائم على أن المقدمات تؤدي إلى النتائج، وأن الأسباب مبنية على المسببات،فالماء يغلي إن ارتفعت درجة حرارته إلى مقدار مئوي معلوم، والزرع ينمو إن تعهدته بالسقي والرعاية، والجسم يمرض إن تركته عرضة للجراثيم، ولم تحافظ عليه من الجوع والحر والبرد.

ولا أحد يرتاب في هذه الأشياء؛لأنها مسلمات يشهد بها الواقع، ويقرها العقل، ويراها الناس أمامهم كل حين،(فما في الكون ذرة أو حركة إلا ولها قانون وسنة .. وما من حركة نفسية أو اجتماعية أو نقلة حضارية،إلا ولها قانون يتجلى في الأسباب والعوامل المؤدية إليها).

وتخلف الأمم وانهيار عمرانها لا يأتي من فراغ، ولا يتم فجأة، لأن مقدمات هذا الانهيار والانحدار تظل واضحة بارزة أمام الناس عقودا، وربما قرونا من السنين، فإن امتدت إليه يد الإصلاح استقام حال الأمة، وإن ظل الخلل جاريا، ولا تتخلف السُّنن كذلك مع الأفراد، فمن أهمل من الأفراد جنى ثمرة إهماله ـ بعد حين ـ حسرة، ومن عصى وخاض في الذنوب والآثام جنى نتيجة عمله حرجا في الصدر وضيقا في الرزق، وتعثرا في الحياة، وتكالبا من الأعداء عليه، وانقضاضا من الأعوان عنه، وبالجملة فإن ﴿لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[1] قبل أن يحشر أعمى يوم القيامة بما جنت يداه، وما حاد به عن منهج الله ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[2].

---

(١)طه: ١٢٤.

(٢)الروم: ٤١.

إن السنن الشرعية التي يلتزم بها الناس من أهم عوامل مقاومة التحلل والفساد، إذ التحلل لا يصيب العمران إلا إذا تعمق في نفوس الأفراد بعد أن تستمرئ الملذات، وتركن إلى الشهوات، وتستلذ حياة الرخاوة والدعة، ولو تحققت على حساب الرجولة والكرامة، حينئذ تستسلم هذه النفوس لخدر الكسل، وطول الكرى، فتنشط جراثيم التحلل والفساد،وتظهر في المجتمع علامات التخلف والكساد. وقد يطول ذلك فيقضي على الأمة، فتصبح أثرًا بعد عين،حدث ذلك مع حضارة اليونان، والرومان، والفرس، وغيرها من الحضارات القديمة، وحدث مع الأندلس الإسلامية حين انشغل الناس بالترف، وتفرقوا مزقا مبعثرة، وأشلاء مبددة، سميت بـ«ملوك الطوائف»، وصار كل (ملك) من هؤلاء طيعا للنصارى، يحارب غيره من المسلمين، ولا يرقب فيهم إلا ولا ذمة، مما جعل النصارى يؤججون نيران الخلاف، حتى إذا أحرق بعضهم بعضا بهذه النيران، سهل عليهم أن يجتاحوا تلك الممالك واحدة بعد الأخرى، فلم يراع هؤلاء السنن الشرعية التي تثبت أن في الترف هلاكا للأمم، لأنها تحيد عن منهج الله، ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [(١)]، ولم يراعوا السنن الشرعية التي ربطت القوة بالتعاون والتآلف ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [(٢)]،والسنن الكونية في هذا ليست مخالفة للسنن الشرعية، بل تسير في ركابها،وتثبت مدلولها، غير أن أهل الأندلس خالفوا ذلك فذهبت ريحهم، وذهبت أرضهم وبلادهم،واستبدل الله بهم آخرين، وإن كانوا كافرين، ومع هذا فإن العبرة تكاد تضيع، ولولا أن الله سبحانه يقيض لهذه الأمة كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها وبالتالي أمر دنياها، لحدث لها ما حدث للأمم الخوالي، ولنخر فيها ما ينخر الجثث البوالي.

ولئن كانت الأمة الإسلامية لم يصبها الاندثار فقد أصابها الانحدار، فهوت من

---

(١)الإسراء: ١٦.

(٢)الأنفال: ٦٤.

القمة إلى السفح، لا لأنها لم تأخذ بسنن الله الكونية فقط، بل لأنها ـ كذلك ـ حادت عن السنن الشرعية . ولسوف تبقى هكذا ما لم تعد للأخذ بالسنن الكونية والشرعية، وهما يتحققان بإشاعة مناخ علمي، وبث التربية الدينية، وهما معا ما عمل المسلمون الأولون على إشاعتهما ونشرهما في مجتمع المسلمين،ليكونا ركيزة بناء الأفراد وعمران المجتمعات بناء على الأخذ بسنن الله الجارية في الأنفس والآفاق، وحين يحدث خلل في هاتين الركيزتين تكون النتيجة الحتمية التخلف ثم الجمود والهمود. ولقد كانت هذه الحقائق واضحة كل الوضوح أمام المسلمين الأولين، مما جعل الحسن البصري يعبر عن هذه السنن بقوله: «إذا وجدت تعثرا فابحث عن خلل في التعامل مع السنن الشرعية، أو السنن الكونية أو كليهما». ونحن ـ الآن ـ أحوج ما نكون لسد الثغرات، وملء الفجوات، لا للبحث عن الخلل،فقد كان الخلل في زمن الحسن البصري والدولة في قوتها، وتتمتع بفتوتها وتعمل على اكتمال أسباب نهضتها، أما الآن فإن القضاء على الإهمال ومعرفة السنن والأخذ بها من أهم أسباب البقاء، فلا حياة لمتوان كسول، ولا لمتبلد جهول، ولا لغافل عن سنن الله في الكون والشرع والحياة.

رابع عشر:
العولمة وكيفية التعامل معها من خلال ملامح المشروع الإسلامي

١ ـ العولمة هي الاستعمار بأشكال جديدة:

لقد شرع في العقد الأخير من القرن العشرين استخدام الباحثين والمحللين في عالمنا العربي والإسلامي لمصطلح العولمة Globalization وكثر حوله الجدل العلمي والخلط الشديدين في منتجاتهم الفكرية والثقافية،وبعضهم أفرط في تمجيده والإطراء عليه والتبشير به إلى حد تصويره على أنه رجس من عمل الشيطان، وفريق ثالث رأى أن العولمة أصبحت واقعاً ولا فكاك منها،والأمر يقتضي إعداد برامج مقاومتها والتحصن بمضادات واقية،إلى جانب الاستفادة من حسناتها إن وجدت .

وفي هذا الصدد يمكن القول : إن ظاهرة العولمة ليست نظرية طارئة أو مجرد فكرة ولدت بشكل عفوي في رحم الفكر الغربي،وإنما هي فلسفة منظمة ومنهج علمي يستهدف تحقيق استراتيجيات محددة على صعد شتى في المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية والاجتماعية، إذ بعد اندحار الخطر الأحمر في مطلع التسعينات وانتهاء الحرب الباردة التي دامت قرابة نصف قرن انفردت الولايات المتحدة الأمريكية بالأحادية القطبية، وراحت تكرس وجودها وحضورها المباشر عبر التدخل في شؤون بعض الدول وخاصة الدول العربية والإسلامية، وما أدل على ذلك من تدبيرها لحرب الخليج الأولى وقيامها بالثانية إعداداً وتنفيذًا، بعد أن وجدت ضالتها المنشودة في ديكتاتورية النظام العراقي الغاشم، وحصارها لليبيا والسودان،واستفزازها المستمر لسوريا وإيران، وعلى الوجه الآخر تحالفها السياسي والعسكري والاقتصادي والاستراتيجي مع الكيان الصهيوني؛ لكي تضمن له التفوق على خصومه من العرب والمسلمين .

وقد اعتقدت الولايات المتحدة الأمريكية أنه بعد انتهاء الشيوعية لم يعد أمامها أية عقبة لفرض هيمنتها على العالم، والقيام بدور الشرطي المنظم لحركة إيقاعاتها، لكنها تنبهت إلى ما أطلق عليه في الكتابات الغربية بالخطر الأخضر (الصحوة الإسلامية) الذي بدأ يتململ في مرقده.وهذا ما تحدث عنه ريتشارد نيكسون في كتابه «الفرصة السانحة» وهنتنجتون في مؤلفه «صراع الحضارات»، ومن ثم اعتبر المعسكر الغربي بزعامة أمريكا المد الإسلامي هو العدو الأول الذي يهدد مصالحه، وهنا بدأ خطر العولمة يتعاظم وتتفاقم حدته،ووصلت العولمة إلى أن أصبحت ظاهرة ملموسة بعد أن صار العالم أشبه بالقرية الصغيرة بفضل الثورة الاتصالية الهائلة التي تملكها أمريكا وتعمل من خلالها على عولمة كل مجالات الحياة المادية والأدبية وتذويبها في سراديبها .

هذه الكوكبية ـ أو ما يسمى بالكونية ـ ليست وليدة اليوم ولكنها نتاج لعصور سابقة وإن حملت أشكالا مختلفة وحلقات متباينة.ومن هنا نستطيع أن نقول إنه إذا كانت السياسة هي الحرب بوسائل أخرى، فإن العولمة هي الاستعمار بأطياف جديدة من أجل تحقيق البرجماتية الأمريكية.وقد عضد هذا المعنى اللورد بالمرستون عام ١٨٤٨ بقوله «لا يوجد عندنا صداقات دائمة ولا عداوات دائمة وإن مصالحنا هي الباقية والدائمة ومن واجبنا الحفاظ على تلك المصالح».

إذن لا مشاحة في المصطلح ـ كما يقولون ـ فالمقاصد واضحة، والأهداف محددة، والاستراتيجيات مرسومة.فهناك محاولات تهميشية واضحة للفكر العربي والإسلامي أمام التهديدات العولمية من خلال فرض اتجاهات الأسواق المفتوحة دون دراسة لواقع الاقتصاديات العربية،فضلا عن فرض إصلاحات اقتصادية غير ملائمة للظرف الحالي، وإشاعة قيم الاستهلاك والنفعية والربح السريع عبر آلياتها الخطيرة الممثلة في اتفاقية الجات وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي والشركات متعددة الجنسيات. وقد انتقد التقرير السنوي الأخير لبرنامج الأمم المتحدة بشدة مخاطر ظاهرة العولمة،مؤكدا أنها تخدم مصالح الدول الغنية وأرباح الشركات متعددة الجنسيات،ولا

تخدم مصالح الشعوب لا سيما في الدول النامية،كما أنها لا تخدم مستقبل البشرية بشكل عام .

٢ ـ مشروع استحواذ وسيطرة :

وتتعاظم خطورة العولمة بإصرارها على فرض ثقافة عالمية واحدة عبر الآلة الإعلامية الضخمة التي تتمثل في استغلال مبتكرات الاتصالات والمواصلات والفيديو والكمبيوتر والإنترنت وغيرها في نشر الثقافة الوافدة.ومما يؤسف له أن إعلامنا العربي يردد ما تبثه أبواق الغرب،دون تمييز بين غث وسمين.وقد وجد بين ظهرانينا من ينكر حقنا في احتفاظ أمتنا بخصوصيتها الحضارية والثقافية والاجتماعية إلى درجة التأثر بالأجواء الغربية والدعوة إلى الفكر الليبرالي الغربي،ومن بين هؤلاء رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك وأحمد لطفي السيد وطه حسين وغيرهم من تلامذتهم المعاصرين مثل فؤاد زكريا ووجيه كوثراني والسيد ياسين وسعيد العشماوي وحسين أمين وغيرهم .

وبهدف تطويع إرادة المسلمين وتشكيل عقولهم ومسخ هويتهم وعولمة القيم الأسرية دون مراعاة لخصوصيات المجتمعات،نظمت الولايات المتحدة الأمريكية مؤتمرات السكان الدولية التي عقدت في القاهرة وبكين،وأسفرت فعالياتها عن توصيات أقل ما توصف به أنها تصطدم بالمشاعر الإنسانية،فضلا عن الإسلامية؛إذ تحدثت عن النوع الواحد وزواج المثلين وإباحة الإجهاض، وأفرطت في توسيع دائرة الحرية إلى حد الفوضى والإباحية والانفلات الأخلاقي،ضاربة بالمعتقدات الدينية عرض الحائط .

هذا الفكر الهيكلي الذي يسعى الغرب بزعامة أمريكا إلى تجذيره في أوساطنا ما هو إلا محاولات تنميطية ترفض قيام المجتمع الإنساني على أساس التعدد والتنوع، وهذا ما يصطدم بالسنن الإلهية القائمة على التنوع والتعدد،ويؤكد أن العولمة مشروع استحواذ وسيطرة وإشاعة فكر عالمي واحد .

٣ـ وسائل مقاومة :

ولما كانت ظاهرة العولمة ـ الجديدة في مفهومها، القديمة في جوهرها ـ أصبحت أمراً واقعاً وملموساً، فإن مصلحتنا، بل ووجودنا، يقتضي إعادة صياغة المنظومة العربية والإسلامية بما يقيم لها وزنا ذا شأن في الميزان الدولي الاستراتيجي،خاصة أنها تمتلك المعطيات التي تجعلها ذات قوة لا يستهان بها، ومن ثم لا بد أن يُعمل الباحثون المنظرون أقلامهم وأفكارهم في الدعوة إلى استثمار فكرة العولمة على صعيد الاستفادة من محاسنها المتصلة بالإنجازات العلمية،خاصة أن البحث العلمي والتقني في عالمنا العربي يحتاج إلى جهود كبيرة، لعل أهمها محاولة تهيئة الأجواء لإعادة الأدمغة العربية المهاجرة والتي تشكل ٣٠ ٪ من العقول الأمريكية حسب آخر إحصاء. الأمر الثاني أن وجود العولمة في حد ذاته والحذر من مخاطرها يستوجبان استنهاض عزيمة الأمة وهمتها، ولن يأتي ذلك إلا من خلال تدشين مجموعة وسائل مقاومة لعل أهمها :

١ـ أنه في إطار فن الممكن لا بد من تفعيل التجمعات والكيانات والتكتلات والمنظمات العربية والإسلامية،أمثال «منظمة المؤتمر الإسلامي،وجامعة الدول العربية، ومنظمة الوحدة الأفريقية، وتجمع الدول الثماني الاقتصادية،ومجلس التعاون الخليجي» إلى درجة أنه لا بأس من تغيير الدساتير والقوانين الحاكمة لبعض المنظمات بهدف تفعيلها، فضلاً عن الدعوة المستمرة إلى السوق العربية والإسلامية المشتركة، وتنمية الاتحادات والتجمعات المهنية العربية والإسلامية، وتعميق الاهتمامات المشتركة بينها، وتوحيد الأجهزة الإعلامية لتكوين رأي عام موحد إزاء مخاطر العولمة، وإنشاء جيش عربي وإسلامي قوي، وصبغ التعليم في جميع درجاته ومستوياته بالصبغة الإسلامية لصد الغزوة الثقافية الشرسة التي تروج لها العولمة، والتنسيق بين جامعاتنا بهدف أسلمة العلوم الإنسانية .

٢ـ تأسيس مشروع عربي وإسلامي مواز ومغاير للمشروع الأمريكي الصهيوني والصليبي بات أمراً حتميا وضرورة ملحة تفرضها الخبرة التاريخية والاقتصادية

والاجتماعية والسياسية للأفكار العربية لمواجهة برامج العولمة. وهذا لن يحدث إلا من خلال حوار شوري وديمقراطي نزيه داخل الدولة الواحدة أولاً لاستثمار طاقات القوى الحية وتوحيد الجهود الداخلية،ثم ننتقل بهذا الحوار إلى الحوار العربي أو ما يعرف بالتطبيع العربي الإسلامي، حتى نستطيع إقامة مصالحة عربية فعلية تستند إلى وحدة العقيدة والشريعة أو تجسد في النهاية منظمة دولية ـ كما دعا د.عبد الرزاق السنهوري ـ لتتولى المهام التي كانت من وظائف الخلافة الإسلامية وهي المحافظة على مقومات وحدة الأمة.

٣ـ هذه الأخطار العولمية ينبغي أن تفرض على حكام العرب والمسلمين اللياذ بشعوبها والتحصن بها، عبر تحسين سجلات حقوق الإنسان والالتزام العقائدي بالخصوصيات الدينية والحضارية؛ حتى لا نغرق في طوفان الغربنة والأمركة.كما أن التمسك بهويتنا الدينية والثقافية يسهم في حفظ ذاتنا وحمايتنا من هذه الأخطار .

٤ـ لا بد من التأكيد على أن العولمة بمعنى العالمية هي فكرة إسلامية صميمة نادت بها الأديان السماوية نظريًا وعمليًا وتجلت بمصداقيتها الأخاذة في دعوة الناس كافة إلى الإسلام،وبالتالي فنحن أولى بعولمة قيمنا وأدبياتنا الإسلامية السابقة التي تستهدف تحقيق الخيرية والسعادة للإنسان في الدنيا والآخرة.ومعروف أن الإسلام دين عالمي يلائم الفطرة التي فطر الله سبحانه وتعالى الناس عليها دون حرج أو مشقة ومن الأدلة القرآنية لعالمية الإسلام ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾[1] ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾[2] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾[3] ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[4] وقال النبي ﷺ: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»[5] .

(١)البقرة: ٢٠٨.

(٢)الحجرات: ١٣.

(٣)النساء: ١.

(٤)الحجرات: ١٣.

(٥)أخرجه أحمد (٥/ ٤١١) عن أبى نضرة، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣/ ٢٦٦): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

٤ ـ المستقبل لأمة الإسلام مهما أظلم الليل وطال :

لقد شهد العالم الإسلامي منذ أواسط القرن الحالي، وبصورة أوضح خلال العقدين الأخيرين حالة بارزة من الصحوة الإسلامية،تجلت مظاهرها وأوجه تعبيرها على امتداد الجغرافيا الواسعة للعالم الإسلامي، وهذا دليل على عودة الإسلام مجددا إلى قلب الحركة الفكرية والسياسية ومفردات المعادلة الدولية،بعد غيبة طويلة فرضت عليه بقوة الجيوش الغازية، وما لحق ذلك من اتفاقيات ومعاهدات كان أبرزها سايكس بيكو ١٩١٦م التي قسمت العالم الإسلامي إلى مناطق نفوذ دولية، ثم تفكيك ما تبقى من رموز الحضور السياسي للمسلمين في المسرح الدولي بسبب إنهاك الدولة العثمانية، وقضم أطرافها في البداية، ثم تتويج هذا المسار بإلغائها وشطبها جملة، وبذلك تحول العالم الإسلامي من رقم صعب في المسرح الدولي إلى مجرد ملف في أجندة الساسة الغربيين،سمي في البداية بمشكلة الرجل المريض، وأخيراً «المسألة الشرقية».ولكن بفضل الله ثم الجهود الرائدة الإصلاحية الإسلامية وأعلامها المجددين بدأ الخط الإسلامي يفرض نفسه وحضوره،ليس على القطاعات التقليدية التي تركت للمسلمين، بل أصبح له حضور على القطاعات الحديثة ـ السياسية والاقتصادية والاجتماعية ـ وبدأ المظهر الإسلامي يلاحظ في أوساط النخبة المثقفة والقوى السياسية المنظمة، وفي الحركة التلقائية والعميقة في المجتمع.

وهذا الرجوع طبيعي بعد أن رمي الإنسان في صحراء تعوي فيها ذئاب الرأسمالية وكلاب الشيوعية.

٥ ـ تعال معي لنقف على الحقائق:

الحقيقة الأولى: أن داء الأمة من دمارها من داخلها وهو داء الفرقة الذي عصف بالأمة على مستوى الدول والجماعات والأفراد، وعلاج هذا الأمر لا يكون إلا من المجتمع الإسلامي نفسه، ففي الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم في صحيحه قال ﷺ:«سألت ربي ثلاثاً: فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي أن لا يهلك أمتي

بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها»[١]. وعلى هذا يكون الصراع المدمر للأمة من داخلها. أما من خارج الأمة من الكفار بشتى أشكالهم، فهذا أمر طبيعي خاضع لنظام التدافع الموجود منذ بدء الخليقة ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾[٢] ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[٣].

الحقيقة الثانية: إن بقاء الأمم ودمارها بحسب تعاملها مع نواميس الكون وسنن الله الشرعية والكونية.

الحقيقة الثالثة: لقد استطاع اليهود أن يحولوا العداء اليهودي النصراني إلى موالاة ومحبة؟ فالنصارى مع كفرهم أقرب إلينا معاشر المسلمين ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾[٤] ولكن كيف استطاع اليهود أن يزرعوا في المؤسسة الدينية النصرانية شخصاً يهودياً (شارك اليهودي) وهو بولس الأول، ثم بولس الثاني الذي لن يختلف عن الأول - كيف استطاعوا ذلك؟ .. أمر يحتاج إلى دراسة.

الحقيقة الرابعة: أن انتصار الإسلام والمشروع الإسلامي لا يفترض أن يخرج من عباءة الخلافة، بل الخلافة أو الحكومة الإسلامية هي نتاج المشروع الدعوي، ولا يمكن الربط بين وجود الخلافة والمشروع الدعوي، ثم إن تحقيق وإنجاح المشروع الإسلامي ليس له صورة واحدة متكررة، بل الوسائل متغيرة بحسب واقع الأمة والطبيعة المجتمعية للعالم. فإن كان المسلمون اليوم لا يملكون من أمر القوة العسكرية شيئا فلا يعني أنه لن يتحقق نصر الله، فقد أخبر النبي ﷺ بفتح رومية والقسطنطينية؛ ففي مسند الإمام أحمد قال عبدالله بن عمرو بن العاص: بينما نحن حول الرسول ﷺ نكتب إذ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٠) عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) الحج: ٤٠.

(٣) البقرة: ٢٥١.

(٤) المائدة: ٨٢.

سئل رسول الله أي المدينتين تفتح أولا:القسطنطينية أو رومية فقال الرسول ﷺ: «مدينة هرقل تفتح أولا» يعني القسطنطينية [(١)].

فانتصار الإسلام وتحقيق المشروع الإسلامي الحضاري في العالم سيتحقق.وهذا الفتح ليس بالضرورة أن يكون كما في الصور القديمة من تجهيز الجيوش من دار الخلافة إلى الثغور والبلدان، بل نص الحديث مطلق من حيث فتح رومية،أما الطريق والكيفية فكل زمان بحسبه،ولكن المتفق عليه أن عملية الفتح ستكون بالجهد البشري من أناس تجردوا لله سبحانه .

٦ ـ معالم نصر هذه الأمة :

١ـ الاعتقاد الجازم بأن نصر الله آت ومتحقق: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ .. ﴾ [(٢)].

٢ـ أن النصر والهزيمة متبادلان بين البشر: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ ﴾ [(٣)] فنظام التدافع منصوص عليه بآية محكمة: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ [(٤)] ونظام المداولة هذا يختلف عندما يكون المنافس هو الإسلام، فهو مع الجهد البشري والأخذ بالأسباب ينتصر بسرعة، انظروا إلى هذا النص قال العلاء بن الزبير الكلابي يحدث عن أبيه أنه قال : «رأيت غلبة فارس الروم، ثم رأيت غلبة الروم فارساً، ثم رأيت غلبة المسلمين فارسا والروم، كل ذلك في مدة خمس عشرة سنة».

نعم كما قال سيد قطب: ظلت وسائل التشكيك في هذا الدين تساوره وتهاجمه وتتسلل إلى قواعده في إصرار.. ووراءها جميع قوى العالم الجاهلي.. فلا تبلغ أن تحطمه من أساسه ولكنها مع تطاول الزمان ومع التجمع والترصد، ومع الإصرار والاستمرار، ظلت تنقص منه شيئاً فشيئاً وتنحرف به عن أصوله شيئاً فشيئاً حتى أثخنته فعلاً وهددته تهديداً خطيراً.. ومع هذا كله فإنها لم تستطع ـ حتى اللحظة

(١)أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦)، والحاكم (٤/ ٥٥٥)، وصححه الألباني فى الصحيحة (٤).
(٢)يوسف: ١١٠.
(٣)الروم: ١، ٢.
(٤)البقرة: ٢٥١.

الحاضرة ـ تشويه أصوله النظرية، فما تزال هذه الصورة قادرة على البعث الجديد حين يعتنقها جيل جديد[(١)].

٣ـ إن قدر هذا الدين أن ينتصر بالجهد البشري قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾[(٢)].

فكانت المسافة بين الإسلام ـ يوم جاء ـ وبين واقع الناس في الجزيرة العربية وفي الكرة الأرضية، مسافة هائلة سحيقة، وكانت النقلة التي يريدهم عليها بعيدة بعيدة، أما اليوم فالأمر سهل .

٤ـ أنه لا بد من الصبر ..

فَكُلُّ الحَادِثَاتِ وَإِنْ تَنَاهت فَمَوْصُولٌ بِهَا فَرَجٌ قَرِيبُ

٥ـ معرفة المشكلة: فمشكلتنا ـ نحن المسلمين ـ أن هزيمتنا ليست عسكرية؛حيث يمكننا أن نستبدلها في معركة ثانية،بل هي الهزيمة الداخلية، حيث أصبحت مجتمعاتنا وبيوتنا ومدارسنا وأسواقنا ميداناً للمنافسة والسباق على بضاعة الغرب الكاسدة، ومع ضخامة المشكلة فنحن نملك الحل حيث تمتاز الأمة بمزايا منها :

أولاً: الحق الملائم للفطرة، القريب للعقل الذي إن صدق المسلم في تمسكه به تحرك به منذراً ومجاهداً، وخير مثال على ذلك قصة استماع الجن للقرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾[(٣)].

---

(١)من كتاب هذا الدين ص ٣٦ ، ٣٧.

(٢)محمد: ٤ .

(٣)الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١.

ثانياً : ثقة المسلمين بدينهم وإيمانهم الراسخ بأنه الحق من ربهم،فهو يقين لا يقبل الشك والمراجعة، ثم صبر على مقتضيات هذا الدين.وهنا تتحقق الآية الكريمة: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [1] .

نعم إن مشكلتنا ليست في الإسلام كدين، بل في المسلمين، فديننا له ما يميزه ويجعله المنقذ للبشرية من الضياع،فهو عالمي في كل شيء، وهذا هو الذي سيحقق للإنسانية الكرامة والعزة والرحمة والمودة والوفرة والأمن والإيثار والعدل، ويجعل هذا كله من مظاهر الإنسانية الحقة، فهو مجتمع العدل والأخوة والدعوة الإسلامية، كذلك هو موجه إلى الإنسان في كل مكان، والتاريخ يبين أن هذه الأمور ليست أفلاطونية بل واقعية أثبتها التاريخ .

٧ ـ نداء لأحبائي الدعاة :

إن المكر الذي يُحاق بالأمة من قبل أعدائها يستدعي أن تكون هناك راية ترفع من رجال يصدقون عهدهم مع الله،وقد تبرع نفر من الأمة لحمل راية الإسلام، فعملوا وجدوا واجتهدوا وذلوا وهم في كل أمرهم مأجورون ولإحدى المرتبتين نائلون «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد فله أجر»[2] .

وصيحتنا هذه محاولة لبيان ما نراه مساعدا للوصول للأحسن والاجتهاد الدعوي :

١ـ أن تنتقل الدعوة من مفهوم المشروع الإسلامي الحركي إلى المشروع الإسلامي العام، وإشراك كل الطاقات والإمكانات الموجودة في الساحة الإسلامية لخدمة تحقيق هذا الدين في أرض الواقع، فإن من الظلم أن تبدأ الحركة المعادية للإسلام بالتعامل معه كدين لمليار ونصف المليار ونحن لازلنا نتعامل معه كمجاميع تنظيمية، الكل يود أن ينجح ويخرج النصر من عباءته!! فالمتأمل لألفاظ اليوم يجد الصحوة الإسلامية أصبحت أمة وليست حركة .

---

(١)السجدة: ٢٤.

(٢)أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦)، وأبو داود (٣٥٧٤)، وابن ماجة (٢٣١٤) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

٢ـ أن تكون أدبيات التربية لأبناء الحركة الإسلامية قائمة على روح تفاؤلية، ترى نصب عينها رايات لا إله إلا الله خفاقة على أرض الإسلام على وجه الخصوص وعلى العالم على وجه العموم، فالشاب الذي نريد أن يكون أداة في بناء الدولة، وعضوا عاملاً في المجتمع الإسلامي في العالم لابد أن يسمع نداءات الحركة التفاؤلية التي كان النبي ﷺ يحبها، وكان يعجبه الفأل الحسن،فعن يعيش الغفاري قال: دعا رسول الله ﷺ ناقة يوماً فقال:من يحلبها فقال رجل: أنا، فقال: ما اسمك؟ قال: مرة، قال: اقعد. ثم قام آخر فقال ما اسمك؟ قال: جمرة فقال: اقعد، ثم قام يعيش فقال: ما اسمك؟ قال: يعيش، قال: احلبها[1]. حتى بيان البلاء يكون بروح تفاؤلية كما عرضه ﷺ عندما اشتدت الشكوى من المسلمين في مكة فقال ﷺ: «والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون»[2] وعندما استقرت هذه الحقيقة التفاؤلية في نفس السائل بيّن ﷺ حقيقة البلاء الذي يقع على أهل الدعوة، ونحن اليوم في العصر الحديث الذي نعول فيه على موقف إسلامي عام ومستقبل حضاري يقوم على لا إله إلا الله، لسنا ملزمين أن نضع أمام شباب الدعوة صورة رجل سقط من حبل المشنقة، صحيح أن البلاء من طبيعة الصراع في كل صور التدافع البشري،ولكن ليس بالضرورة أن يأخذ البلاء صورة واحدة متكررة في كل جيل وزمان ومرحلة،فلا شك أن البلاء في وقت الاستضعاف الذي وقع على الصحابة في مكة يختلف عن البلاء الذي وقع في مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكذلك هو مغاير للفتنة التي وقعت في زمن عثمان.. وهكذا.. فنحن وإن وقع علينا البلاء فهو ليس بالأصل، بل هو عارض، فالحقيقة في هذا الدين أنه في النهاية ينتصر، وانتصار الدين كان اليقين الذي ينطلق منه سيد البشر.ففي اللحظة التي كان فيها ﷺ يتعرض لأشد صور المطاردة بين الحق والباطل، ولم يكن بين سراقة

---

(١)أخرجه الطبراني فى الكبير (٢٢/ ٢٧٧) (٧١٠) عن يعيش الغفاري، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٤٧): «رواه الطبراني وإسناده حسن».

(٢)صحيح ، سبق تخريجه.

والنبي ﷺ إلا مسافة سماع الصوت يقول ﷺ بثقة: «يا سراقة ارجع وخذل عنا ولك سوارا كسرى»(١) وتمر الأيام القليلة ليتسلم سراقة ما وعد به ﷺ وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

٣ـ أن يحمل الدعاة هَمَّ الأمة،فعند انشغال رجل الدعوة بالأمة تكون قد بدأت رحلة الكبار التي تبدأ من عيش الداعية للآخرين وإن كان الأمر متعبا، فمن عاش لغيره عاش متعباً، ولكنه عاش كبيراً ومات كبيرا، فبداية الهم تعني الانطلاقة، يتحدث الأستاذ عباس السيسي عن حوار تم بينه وبين الإمام البنا فيقول : رآني الإمام البنا مهموما فقال: أراك مهموما اليوم، فقلت «عباس» كيف لا أكون مهموما وقد سقطت اليوم «ألبانيا» بأيدي الشيوعيين، فقال الإمام البنا رحمه الله : أوهمك هذا ؟ فقال الأستاذ عباس : نعم، فقال الإمام البنا : لقد بدأت الطريق إذًا !! نعم إن الرجال الكبار هم الذين يغيرون واقع الجاهلية بفضل الله وكرمه وإلا كما قال المتنبي :

إِنَّ السِّلاَحَ جَمِيعُ النَّاسِ تَحْمِلُهُ ... وَلَيْسَ كُلُّ ذَوَاتِ المخْلَبِ السَّبُعُ

الذي يمتلئ قلبه بهموم الأمة لا يعرف خوفاً ولا خوارا، يسمع محمد إقبال يجلجل في أذنه :

لَمْ نَخْشَ طَاغُوتا يُحَارِبُنَا ... وَلوْ نَصَبَ المَنَايَا حَوْلَنَا أَسْوَارَا

نَدْعُو جِهَارًا لاَ إِلهَ سِوَى الَّذي ... صَنَعَ الُوجُودَ وقَدَّرَ الأَقْدَارَا

وَرُؤُوسُنَا يَارَبِّ فَوْقَ أَكُفِّنَا ... نَرْجُو ثَوَابَكَ مَغْنَمًا وَجِوَارَا

والكبار هم الذين يختارون لأنفسهم المكان العالي حتى في طريقة موتهم،قال عنترة العبسي :

---

(١)الشفا للقاضي عياض (١/ ٦٧٤)، والإصابة لابن حجر (٣١٢٢) وقال: «قال ابن عيينة عن إسرائيل عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟ قال: فلما أتى عمر بسواري كسرى ومنطقته وتاجه، دعا سراقة فألبسه، وكان رجلا أزبّ كثير شعر الساعدين فقال: ارفع يديك وقل: الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة الأعرابي»، وأخرجه البيهقي في السنن (٦/ ٣٥٨) وليس فيه وعد النبي ﷺ له.

وَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَنْزِلاً تَعْلُو بِهِ   أَوْ مُتْ كَرِيمًا تَحْتَ ظِلِّ القَسْطَلِ

٤ـ أن تكون هناك مراجعات قيادية :

مراجعة طريقة تعامل الحركة مع الخصوم والمتخوفين من حكم الشريعة الإسلامية وإحلال النظام الإسلامي كبديل للأنظمة البشرية المهترئة.لقد أثبت الواقع أن استمرار لعبة القط والفأر بين الأنظمة والحركة الإسلامية العاملة في الساحة، هذه الاستمرارية فيها دمار للأرض وخيراتها وللبشر وإمكاناتهم.فالأمر يحتاج إلى دراسة من الطرفين، فقد أثبت الواقع أن سياسة الاحتواء مع الأنظمة للحركات الإسلامية، والحوار من أعلى،والضرب بيد من حديد،لم تحقق نتيجة مع الجماعات الإسلامية فهل يمكن أن :

أ ـ تتخلى الدولة عن وظيفة الوصي على المجتمع، وتترك للشعوب القرار الأنسب والأصلح لها .

ب ـ يتنازل الطرفان ـ الحكومة والحركة ـ عن فكرة نفي الآخر والإيمان بفكرة التعايش وفق نظام العدل والحرية وإعطاء الحقوق ؟

جـ ـ أن يتم الاتفاق على الممكن بدل الصراع على الواجب.

٥ـ الآن الحاجة الماسة إلى صياغة «فقه المؤسسات» في لغة وتصورات عصرية مفهومة .

٦ـ الآن بحاجة إلى ترتيب الأولويات؛لأن المهام أكثر بكثير من الموارد المتوافرة للقيام بها .

٧ـ على الحركات الإسلامية ـ على وجه الخصوص ـ والدول الإسلامية ـ على وجه العموم ـ أن لا تخوض معركة خاسرة وعليها أن تتجنب أن تجر إلى مواجهات ومواقف قبل أن تكون مستعدة لها .

٨ ـ هيمنة قوة واحدة أمر مستحيل :

والأمر الذي نحب أن نختم به ونطمئن الخائفين على ثقافتنا وهويتنا من هذه العولمة،بل ونهدئ من روعهم،أن الخبرة البشرية تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أنه من

المستحيل الهيمنة على العالم بواسطة قوة واحدة،فقد فشلت من قبل الإمبراطورية الرومانية في تحقيق هذا الهدف،كما سقط الاستعمار الغاشم وخرج مهزوماً مدحورا، وانهزمت الشيوعية في عقر دارها،معلنة الرحيل،بل سقطت كل قوى الظلم والبغي، هذه الأيديولوجيات والتيارات الاستعمارية بشرت بقيم الهيمنة، وها هي الرأسمالة التي ادعى منظروها أنها المثالية ـ كما قال فرنسيس فوكاياما المؤرخ الياباني الأمريكي في كتابه نهاية التاريخ: هذه الرأسمالية الآن تحمل في طياتها بذور انهيارها، فانتشار الانحلال والتفسخ الاجتماعي والانفلات الأخلاقي مؤشر قوي على الانهيار، وهناك أرقام وإحصائيات مرعبة ولا تخطئ التقويم في هذا الشأن. وعلى جانب آخر يبقى الإسلام حصنا منيعاً بقوته الذاتية وحفظ الله له: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾[1] ولكي يسود في الأرض لابد أن تفرز هذه الأمة من بين أبنائها من يستحقون النصر ويأخذون بأسبابه فيتحقق التغيير: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2].

(١)الحجر: ٩.

(٢)الرعد: ١١.

خامس عشر:
النبع الصافي الذي لا تكدره الدّلاء

إن ظهور أكثر الأنبياء في الشرق، وأغلب الفلاسفة في الغرب،رمز للقدر الإلهي بأن الذي يستنهض الشرق ويقومه إنما هو الدين والقلب، وليس العقل والفلسفة، فما دمتم قد أيقظتم الشرق ونبهتموه فامنحوه نهجا ينسجم مع فطرته، وإلا ستذهب مساعيكم هباء منثورا، أو تظل سطحية مؤقتة.

الشرق مهد الأديان، فروحه متشبعة بالإيمان، وقلبه أشرب باليقين والاطمئنان، وهما «الروح والقلب» سر كل نهضة شرقية، فما من نهضة حقيقية فيه إلا وللروح مكانها فيها، وللقلب حياته وهيمنته على جوانبها،وإذا خلت حركة الشرق وتعاملاته يوما من أثر الروح والقلب، فإن العفاء غير بعيد عنه. ولقد ارتبطت حركة الشرق قوة وضعفا بحركة الروح السارية فيه، فإن هيمن وملك على الروح أقطارها، ورسم لها مسلكها في الحياة، قويت الأمة،ولو لم تملك كل المقومات المادية.

هذا ما حدث في صدر الإسلام يوم قويت الروح الدينية في الأمة،فاجتاحت أمامها سدودا وحدودا عديدة، وانساحت في ممالك جديدة لم تكن القوة الإسلامية أكثر منها عددا، ولا أشد منها بأسا، ولا أقوى شكيمة، ولكن هذه القوى المعادية كانت قد بلغت مرحلة متقدمة من شيخوخة الروح،فلم تثبت أمام المسلمين الذين يملكون روحا قوية صنعها الإسلام، ويملكون وعيا وفهما جيدا لمواجهة الآخرين في ميادين القتال، ويدركون أنهم «إنما يعملون لبناء حياة يحكمها منهج الله، فأثمر عملهم نهضة إسلامية في كل الجوانب، ظلت تنمو وتمتد وتتواصل حتى بلغت غايتها في القرن الرابع الهجري، فكانت الثمرة الحضارية فيه نتاج الروح القوية التي دفعت أصحابها منذ مجيء الإسلام إلى الجد والبناء والاجتهاد في كثير من الميادين، وحين بلغت مظاهر الحضارة

الإسلامية غاية رقيها في القرن الرابع كانت الروح الباعثة قد ضعفت وفترت،وانعكس ذلك على أعمالها الحضارية التي ظلت تتدهور حتى العصر الحديث، دون أن يفلح في إنقاذها من الضعف والتدهور أمصال عديدة جلبها البعض من البلاد الغربية ذات الحضارة المادية الحديثة على أمل أن ينهض بها الشرق، ولكن النهضة لم تتم واليقظة لم تتسع، لأن بناء النهضة الغربية على قواعد وأسس غير موافقة لطبيعة الشرقيين، وإن وافقت طبيعة الغربيين.

إن الحضارة الحديثة تقوم على العقل وتعنى به أشد العناية، ولا تلقي بالا للروح ولا تعطيها حظها أو بعض حظها من الاهتمام، فالعلم هو أساس كل حركة وله القيادة في كل مضمار، ثم تأتي المظاهر المادية المترتبة على هذا العلم في أوجه النشاط المختلفة لتسوق الإنسان نحو غاية بعينها، لا مكان فيها لقلبه، ولا عناية بروحه حتى ضمر قلبه وذبلت روحه، ونما عقله نموا عظيما، وبرزت عضلات جسمه بحيث يراها كل إنسان. ورغم التقارب العصري في وسائل المواصلات والاتصالات،فإن ذلك لا يلغي طبيعة الشعوب، فسوف يبقى الشرق شرقا والغرب غربا، لكل منهما طبيعته، ولكل منهما سماته وصفاته.

فالشرق يقوم أول ما يقوم على الروح الدينية وعلى إحياء النوازع الأخلاقية، والتمسك بالقيم والفضائل الإنسانية، والعلم يأتي تبعا لذلك، بحيث تخفف من جفوة العلم الروح الإنسانية السمحة، التي تعرف التسامح حتى في البيع والشراء، والأخذ والعطاء.

والغرب يقوم أول ما يقوم على العقل والعلم والمادة، وفي سبيل ذلك تلغى القيم أو تبقى وتحمى معالم الإنسانية أو تبقى، لا يهم ذلك - عندهم - طالما أن العقل يعمل، والعلم تظهر ثماره ونتائجه، ويحصد الناس مردود عمله من الماديات الكثيرة في حياتهم.

وهذه البدهيات تدفع بنا دفعا قويا للأخذ بشرع الله والاحتكام إلى شريعته، حتى

نحيي في الأمة بواعث النهضة.

إن المنهج الإسلامي أثبت أنه هو الذي يستقيم مع فطرة الناس، وأنه المحرك الأساسي للناس في الشرق الإسلامي، وهو أحد أبرز أسباب الانتصار على الأعداء في حطين وعين جالوت وغيرهما من المواقع والمعارك، فلماذا نترك العلاج المجرب وراء علاج غير مأمون العواقب نجلبه من هنا أو هناك؟

الخاتمة

مضت تلك التطوافات العجلى بين جدران الدعوة ونقوشها...متأملة وشاهدة... ومسجلة لما هو كائن،وملتمسة سبيل ما ينبغي أن يكون..وبينما لم ترفع الأقلام عن ملاحظة النقوش، ولم تجف الأحبار عن ما بيضته من نقش... فإذا الأمة يحتويها الأسى ويعتصرها العدوان الصهيوني الموجه إلى قلب الأمة في القدس، فتطالعنا وكالات الأنباء بسيل الكيد والمكر الصهيوني الذي يعمل في الظلام والخفية على هدم الجدار ومحو نقشه...!

وتلك لعمري قاصمة الظهر...!

ومورثة الدمار والقهر...

ونذير السوء والفقر...

ونحن لا زلنا ما بين صادق قليل الحيلة تهمل عيناه ويعتصر قلبه أسى، وما بين واجف قلق يحار فيما يسمع ويذهل عما يبصر... ولا يدري أين الأساس من البنيان ولا أين النقوش من الرقوش... إذ اختلط عليه الحيّ باللّيّ... والصادر بالوارد...! وما بين ثالث ارتكس عن إسلاميته وانتزع من هويته... وراح ينخر في الجدار نخر الأعداء... إما بقصد أو بغير قصد.

واقتصادًا لاستصحاب الأسى، وكفا عن كشف متوالية النكبات على الأمة،فإنني أنوه إلى أهم تلك الاستخلاصات التي يمكن أن نشير إليها من خلال التطوافات السابقة وهي:

١ـ أن حضارة الإسلام لا تزال هي نبع الإشراق... ونهج الاستشراق مهما زعم المرجفون... وأرجف المبطلون وشكك المثبطون... فهي لا تزال فخر الماضي... ومبتدى الانطلاقة في القابل... وجوهرة ما يجيء للمستقبل.

٢ـ أن الواقع الإسلامي المعاصر لا يزال يعاني من غاشيات... ويقذف بأوبال... وينزلق في أوحال:

أ ـ الاختراق الفكري... والاستلاب الحضاري.

ب ـ ثورة الشبهات من المشككين ونابتة الحاقدين من المتأسلمين العملاء...

جـ ـ حفنة المتصهينين... ومن وراءهم من الغرب المعاون لهم ممن انضم إلى الحلف الصهيومسيحي... حيث توالوا واجتمعوا على أمة.. وتداعوا على نقض عراها.

د ـ جهل مدقع تغيب فيه الحقائق وتتباين فيه المعاني عن المباني.. والمسميات عن الحقائق بما يعبر عنه بالاستسلاخ.

٣ ـ مخرج المخارج وفائق المعارج للصعود وحسر غمامات الجهل والتصرم عنا إنما هو بالعودة إلى منابع الإسلام الصافية وركائزه الصحيحة،ابتداءً بالتوحيد الصحيح على منهج سلفنا... والتوحيد الصفي بتعاضدنا وتآزرنا.. ثم استبانة المنهجية الصحيحة في الدعوة إلى الله، واستنهاض المعايير والأسس الكفيلة بجمع الصف وتجلية الفهم وتأسيس تبصر وتثبت قبل الإقدام على أمر أو الإحجام عن نهي...

فالله الله في توحيد الاعتقاد وتوحيد الصف وتوحيد المنهج وتوحيد الجهد... فذاك ملاك أمر المسلمين إلى النهوض والصعود...

وفي باقي التأملات ما يوضح ويجلي كثيراً مما أجملته هنا... وهناك..

وأسأل الله التوفيق والنفع والقبول آمين.

ثبت المراجع

١ ـ الكتب المعتمدة في تخريج الأحاديث.
٢ ـ المعجم الوسيط، الطبعة الرابعة، مكتبة الشروق الدولية.
٣ ـ مجموع الفتاوى لابن تيمية، دار الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض.
٤ ـ حول إعادة تشكيل العقل المسلم لعماد الدين خليل.
٥ ـ الطبقات لابن سعد.
٦ ـ مستقبل الصحوة الإسلامية د/ عبد الله النفيسى.
٧ ـ تاريخ الإسلام للذهبي.
٨ ـ تاريخ خليفة بن خياط.
٩ ـ الروضتين فى أخبار النورية والصلاحية لأبى شامة المقدسى.
١٠ ـ العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف د/ رجب محمد عبد الحليم.
١١ ـ الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب لمحمد العروسى.
١٢ ـ صحيفة الوطن الكويتية.
١٣ ـ مجموعة الرسائل للإمام حسن البنا.
١٤ ـ إنصاف أهل السنة والجماعة لمحمد بن صالح العلي.
١٥ ـ أحكام أهل الذمة لابن القيم.
١٦ ـ منهاج السنة النبوية لابن تيمية.
١٧ ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.
١٨ ـ جريدة الشرق الأوسط.

١٩ ـ إعلام الموقعين لابن القيم.

٢٠ ـ هذا الدين لسيد قطب.

٢١ ـ مقدمة ابن خلدون.

٢٢ ـ فتوح الشرق بعد القادسية لأحمد عادل كمال.

٢٣ ـ تاريخ الطبرى.

٢٤ ـ فتوح البلدان للبلاذري.

٢٥ ـ التغيرات السياسية من منظور حركات الإسلام السياسى لعوض الرحوب.

الفهرس

****

هذا الكتاب

يوضح أن حضارة الإسلام لا تزال هي نبع
الإشراق.. ونهج الاستشراق مهما زعم المرجفون..
وأرجف المبطلون.. وشكك المثبطون.
ويبين أن الواقع الإسلامي المعاصر لا يزال يعاني من غاشيات.. ويقذف
بأوبال... ويتحدث الكتاب عن:
.الاختراق الفكري... والاستلاب الحضاري.
- ثورة الشبهات من المشككين ونابتة الحاقدين من المتأسلمين العملاء.
- حفنة المتصهينين... ومن وراءهم من الغرب المعاون لهم ممن انضم إلى الحلف
الصهيومسيحي.. حيث توالوا واجتمعوا على الأمة.. وتداعوا على نقض عراها.
- جهل مدقع تغيب فيه الحقائق وتتباين فيه المعاني عن المباني.. والمسميات عن
الحقائق بما يعبر عنه بالاستسلاخ.
ويوضح الكتاب أن المخرج هو بالعود إلى منابع الإسلام الصافية وركائزه الصحيحة
ابتداءً بالتوحيد الصحيح على منهج سلفنا.. ثم استبانة المنهجية الصحيحة
في الدعوة إلى الله ،واستنهاض المعايير والأسس الكفيلة بجمع الصف.

المؤلف

مؤسسة السماحة للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت - المنطقة التجارية رقم ٩ بلوك ١ مكتب ١٢.
E-mail: alsamaha_laib@gmail.com